5885

الأُنْثَى

رواية

تأليف

دوريس ليسينج

ترجمة

د. محمد درويش

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة

مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم
MOHAMMED BIN RASHID
AL MAKTOUM FOUNDATION

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

بسم الله الرحمن الرحيم

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي

The Cleft

حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من المؤلفة
بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينها وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.

Copyright © 2007 by Doris Lessing

All rights reserved including the right of repoduction in whole or in part in any form.

The moral right of the author has been asserted

Arabic Copyright © 2008 by Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

الطبعة الأولى
1430 هـ - 2009 م

ردمك 978-9953-87-570-5

مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم
MOHAMMED BIN RASHID
AL MAKTOUM FOUNDATION

tarjem@mbrfoundation.ae
www.mbrfoundation.ae

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص.ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

إن مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم والدار العربية للعلوم ناشرون غير مسؤولتين عن آراء وأفكار المؤلف. وتعبر الآراء الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف وليس بالضرورة أن تعبر عن آراء المؤسسة والدار.

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (9611+)
الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (9611+)

مقدمة المترجم
دوريس ليسينج... ميثولوجيا الذكر والأنثى

قبل أن تصدر هذه الرواية في العام 2007، قالت دوريس ليسينج في مقابلة أجرتها معها إحدى الصحف، بأن هذه الرواية تحتمل الكثير من المفاهيم غير الصحيحة... إذ بعض القراء سيكرهون كل كلمة فيها... وإنّها لا تعتقد أن الرواية تنتمي لأي من الروايات التي سبق أن صدرت لها، منذ روايتها الأولى **العشب يغني**، وإن بعض القراء سيجدون صعوبة في قراءتها...

ترى ما الذي دفع دوريس ليسينج إلى مثل هذا الكلام؟ بل كيف يمكن للفائزة بجائزة نوبل عام 2007 أن تصف روايتها السادسة والعشرين بمثل هذه العبارات؟ ثم ما السر الذي يجعلها تؤكد بعد صدور الرواية بأنها ستكون آخر المؤلفات التي أنجزتها على مدى ستة عقود من السنين بدءاً بالعام 1948، وهو عام كتابة رواية **العشب يغني**؟

القراءة الثاقبة، الأولى لهذه الرواية، توضح أن قدرة الرواية على احتضان ما هو غير صحيح من المفاهيم، بغض النظر عن نمط تلك المفاهيم، هي التي تشير على قوة الرواية وعنفوانها، على الرغم من أنها رواية غريبة ومثيرة للجدل، لكن القارئ لن يكره كل كلمة فيها، كما تقول المؤلفة، بل سيصاب بالذهول، بل بالحيرة، خاصة إذا ما وضعنا في أذهاننا مسألتين غاية في الأهمية:

أولاهمـــا، إن ليسينج تواصل، منذ أول أعمالها الروائية وحتى هـــذه الـــرواية التي أعلنت أنها ستكون الأخيرة، إحالة القارئ إلى مفاجـــآت غير متوقعة، لكنها حتمية، إذ تسعى إلى شد هذا القارئ وتـــشويقه من خلال حبكة محكمة الصنع تنقله من مشهد إلى آخر، وكأنهـــا تقـــدم له سلسلة من مشاهد مسرحية، بعضها ينفتح على عوالم رحبة، وبعضها الآخر مغلق، لا يدري القارئ إن كان المشهد قد انتهى أم لا.

وثانـــيهما، إن قوة هذه الرواية تكمن أساساً في اختلافها اختلافاً جـــذرياً عن كل ما كتبته ليسينج من روايات، سواء من حيث الإطار العام الذي تدور فيه الرواية، أم من حيث انعدام الشخصيات المرسومة رسماً دقيقاً بخلاف ما شاهدناه في مجمل أعمال ليسينج الروائية.

* * *

بادئ ذي بدء، نؤكد أن هذه الرواية ليست سوى جزء من تاريخ ميثولوجـــي، أُسطوري، يرويه شيخ عجوز من شيوخ البرلمان الروماني علـــى عهد نيرون (إذاً، هي رواية تنهل من التاريخ)، أخذ على عاتقه مهمـــة شاقة، هي أن يمضي البقية الباقية من عمره الفاني في إعادة جمع وتـــرتيب قصة ظلت محفوظة في غرفة مملوءة بالمدونات الناقصة، والتي تحتاج إلى جهد جبار، وزمن طويل من أجل إعادة صياغتها، وتركيب مقاطعها المتباينة، بل المتناقضة في كثير من الأحيان، وصولاً إلى الحقيقة الكـــبرى...، بـــل بالتغـــييرات الحتمية التي طرأت على جذور المجتمع البشري ومنذ العصور الغابرة.

إن ليسينج تلجأ إلى هذا الشيخ الروماني ليكون هو المؤرخ الذي يجهـــد بـــأن يـــروي لنا روايتها، ويفسر مجمل التاريخ الشفاهي الذي تكـــشف لنا عنه المدونات بشأن أول الأقوام التي عاشت على كوكب

الأرض قبل ملايين السنين. فما الذي يكتشفه هذا المؤرخ الذي يظل حتى نهاية الرواية بلا اسم، وبلا ملامح؟

تقول المدونات إن المجتمع البشري كان يقتصر على الإناث. كيف؟

مجتمع الإناث، إن كان حقاً مجتمعاً، يمتد فوق منطقة ساحلية، بلا اسم، تقضي فيه الإناث أوقاتهن بين البحر واليابسة، بل إن نصف أجسادهن في الماء والنصف الآخر على اليابسة. الحياة رتيبة، لا يعكر صفوها أي شيء، إلى أن حدث، يوماً ما، ما لم يتوقعه أحد. إذ بدلاً من أن تنجب إحدى الإناث أُنثى، نراها تنجب ذكراً، يطلقن عليه صفة مسخ لاختلاف بنيته الجسدية عن بنيتهن الأنثوية.

وعندما يتوالى إنجاب الذكور، تسعى الإناث، منذ ولادة أول ذكر، إلى التخلص منه بوضعه فوق صخرة يطلقن عليها اسم صخرة الموت، لكن بدلاً من أن تلتهمه الوحوش الكاسرة والنسور الجائعة، نجد النسور تحمل الذكور، كلما جيء بأحدهم إلى صخرة الموت، إلى وادٍ غير بعيد عن ساحل الإناث. فينشأ، بمرور الزمن، مجتمع ذكوري إلى جانب مجتمع الإناث.

هنا يتبادر إلى ذهن القارئ سؤال مهم عن كيفية حمل النساء!! تخبرنا مدونات هذا التاريخ الشفاهي الموغل في القدم، أن أوقاتاً معينة من استدارة القمر ومد البحر تساعد في الحمل، فتلد الإناث إناثاً لا ذكوراً، إلى أن جاء اليوم الذي بدأت الإناث بإنجاب الذكور، من دون معرفة السبب.

هنا لا بد للقارئ أن يتوقع أن الإناث، أو الذكور، سيكتشفون مكان الجنس الآخر، ويبدأ التزاوج، بين الجنسين، على بساطته، وينمو المجتمع. لكن...

في خضم هذه الأحداث، تنتقل ليسينج بالقارئ إلى رواية أو قصة موازية في قصة المؤرخ نفسه وعلاقته بزوجته الشابة المغناج، ثم إلى قصة ثالثة هي قصة الخصام المحتدم الدائم، بين هورسا زعيم مجتمع الرجال، ومارونا زعيمة النساء الجديدة في مجتمع روماني على ما يبدو. ربما يمثل هذان الشخصان اللذان يوحي اسم كل واحد منهما بأسماء سلتية أو إنكلو - ساكسونية، ما هو أكثر من تمثيلهما نفسيهما، على مستوى الرمز والدلالة.

هذا الخصام هو الخصام الأزلي بين الذكر والأُنثى: الأُنثى تظن أن الرجل لا يهتم بالأطفال، والذكر لا يدري لِمَ كل هذه الجعجعة؟ الرجال قصيرو النظر، وعديمو الاهتمام، بينما النساء يمكنهن توقّع وقوع الكوارث والمصائب، لكنهن، من جهة أخرى، لا يستطعن فعل أي شيء سوى الاستلقاء فوق الصخور الساحلية وصيد الأسماك. لكن هذين الزعيمين، الذكر والأُنثى، يتوصلان في نهاية المطاف إلى حقيقة لا غبار عليها وهي "ليس بيننا شيء مشترك، لكن كل واحد منا يحتاج إلى الآخر".

لقد أشار الناقد الأدبي هارولد بلوم ذات مرة إلى كتابات دوريس ليسينج متهماً إياها بأنها تشن حملة صليبية ضد الذكور في مجمل كتاباتها الروائية. غير أن ليسينج، وهذا واضح من مواقفها المعلنة على الأقل، ترفض أن توصف بأنها روائية أنثوية تناضل من أجل قضية المرأة وحسب، وتؤكد مراراً أنها لا تتعاطف إلاّ تعاطفاً بارداً مع قضايا المرأة السلبية، تماماً مثل تعاطفها البارد إزاء قضايا الذكور، وأنها غير قلقة من احتمال خطأ الموقف الذي تتبناه من وجهة النظر السياسية.

بالإضافة إلى ذلك، فقد دعت ليسينج في أثناء مهرجان أدنبرة لعام 2004 إلى ضرورة الكف عن الحط من قيمة الذكر في الثقافة الغربية

المعاصـــرة، وســـاد الاعـــتقاد أن ليسينج ستكتب عمّا قريب عن هذا الموضـــوع، فجاءت هذه الرواية قبل أقل من ثلاث سنوات على تلك الدعوة، لتقول كلمتها باختصار شديد، وهي أن الذكر والأُنثى يحتاج كـــل منهما إلى الآخر بصرف النظر عن الصراع الأبدي القائم بينهما مـــنذ بدء الخليقة، بل إن الخليقة نفسها لا يمكن لها الاستمرار من دون وجـــود الاثـــنين معاً، فكل واحد منهما مكمل للآخر. وقد جسدت ليسينج في معظم رواياتها مثل هذا الصراع القائم بين الرجل والمرأة على المـــستويات كافـــة، وإن بأشكال متباينة، ومتفاوتة في قوتها وعنفوانها، استناداً إلى موضوع الرواية.

لقـــد عـــرف القراء دوريس ليسينج روائية تنحو منحى الواقعية الاشتراكية في معظم رواياتها. فقد ذكرت الروائية البريطانية مارغريت درابـــل في إحدى المناسبات أن ليسينج واحدة من الروائيات القليلات اللـــواتي رفضن الاعتقاد بأن العالم شديد التعقيد، ويصعب فهمه. لكن كـــيف يمكـــن لأنصار الأنثوية فهم هذه الرواية التي تنطوي على نقد لاذع، مرة بالاستعارة ومرة بالكناية، توجهه ليسينج إلى الحركة الأنثوية؟

فهـــي عندما تصرح بأن "ما توحي به، من خلال تقديم شخصية الذكـــر في الرواية، هو أن روحاً جديدة من البحث وحب الاستطلاع قد ولدت، وهو أمر ممكن بحسب اعتقادي، فالرجال قلقون ومغامرون، والنـــساء محافظـــات على الرغم من كل مزاعم الإيديولوجيا الأنثوية الراهنة. صحيح أن الرجال يختلفون عن النساء، ولا يمكن بأي حال من الأحـــوال إغفال حقيقة مهمة: إن المرأة هي من يقولب حياة الذكر في السنوات الخمس الأولى من عمره، شئنا أم أبينا".

لقد ظلت الأُنثى عنصراً مكافئاً، لا سيما عندما تكون هذه الأُنثى في مرحلة الأمومة. لكن ليسينج ترى أن هذا التكافؤ يستند إلى مظهرين

أساسيين: الحماية والتعذيب. وكانت في سنواتها الأولى التي أمضتها في روديسيا الجنوبية تشاهد والديها يجلسان أمام البيت تحت سحابة من دخان كثيف ينبعث من السجائر، مقيدين بقيود حياة ملؤها الخيبة والإحباط والفقر، فتصر على القول إنها ترفض أن تنحو حياتها ذلك المنحى. وعلى هذا يمكننا أن نفهم أن تلك الفترة من حياتها المبكرة لم تكن إلاّ سلسلة من هروب متواصل، وكأنها تغير جلدها مثلما تغير الأفعى جلدها.

لقد أصبحت حياة دوريس ليسينج، بدءاً بطفولتها في أفريقيا وزواجها مرتين متتاليتين، وهجرها أطفالها، والرحيل إلى لندن، وبروزها كإحدى أهم الشخصيات الأدبية في أدب ما بعد الحرب العالمية الثانية، حياة مألوفة بكل تفاصيلها عند قرّائها الذين عايشوا رحلتها الإيديولوجية، أو الروحية، من الشيوعية إلى الصوفية مروراً بعلم النفس. وقد صدرت في كتاب **تحت جلدي** عام 1995 الذي يرصد سنوات طفولتها حتى عام 1949، وفي كتاب **السير في الظل** عام 1997 الذي يسلط الضوء على السنوات 1949 - 1962، بل في رواياتها أيضاً التي تصور في جوانب مختلفة منها مظاهر النظام العنصري البغيض في روديسيا **العشب يغني** مروراً بخماسية **أطفال العنف** وحتى رواياتها الأخيرة مثل **الحب ثانية** عام 1996، **والحلم الجميل** عام 2001 ، من دون أن نغفل بطبيعة الحال رائعتها الضخمة **المفكرة الذهبية** عام 1992.

ولدت دوريس تايلر في العام 1919 في كرمنشاه في إيران لأبوين ألقت الحرب العالمية الأولى بظلالها الثقيلة عليهما، إذ فقد الأب ساقه في تلك الحرب، فيما فقدت أمها حبها للحياة. عند بلوغ دوريس الخامسة من عمرها، انتقلت إلى روديسيا، فأحبت الغابة، وعشقت التوغل في

الأدغـــال، وســـاعدت والدها على زراعة التبغ في المزرعة التي اشتراها طمعاً في الثراء، بعد أن كان موظفاً بسيطاً في مصرف في كرمنشاه. في تلـــك الأجواء الرائعة بدأ شغف ليسينج بالقراءة، وكيف لا تشغف بها وبيت الأسرة يضم بين جنباته مئات الكتب التي كانت أمها ترسل في طلبها من لندن؟ عن تلك الأيام تقول ليسينج: "عشت حياتين مختلفتين تمامـــاً: الحـــياة التي أقرأ عنها في الكتب، والحياة المحيطة بـــي. وإذا ما قُيِّض للمرء أن يولد في روديسيا الجنوبية، ففي إمكانه أن يقرأ مؤلفات تـــشارلز ديكنـــز ويعقد المقارنات، إذ ليس هناك الكثير من الاختلاف بـــين شخـــصية أوليفر تويست، على سبيل المثال، وشخصية أي طفل أسود لا يحصل على كفايته من الطعام".

كانت دوريس في الحادية عشرة من عمرها تتلقى دروسها في دير الراهبات عندما أفصحت عن رغبتها في أن تصبح أديبة. وما إن بلغت الرابعة عشرة من عمرها حتى وجدناها تترك الدير بذريعة المرض، لتعود إلى والدتها، التي كانت كثيرة الخصام وإياها.

تقول ليسينج عن تلك الأيام: "لم أحصل على أي تعليم مناسب، ولم أحصل على شهادة دراسية، لذا لا بد لي من أن أصبح كاتبة. هل هـــناك شـــيء آخر كان في وسعي عمله آنذاك؟". بعد بضعة أعوام، هـــربت دوريس من البيت لتبدأ العمل في سنترال الهاتف في سالزبري. في تلـــك العاصمة، عاشت دوريس حياة صاخبة، تنقلت في أثنائها بين الحانات حتّى أدمنت الشراب، والتدخين. وسرعان ما تزوجت بفرانك وزدم، الموظف الحكومي الذي كان يكبرها بعشرة أعوام، وأنجبت منه طفلـــين. وكتبت دوريس عن تلك الأيام تقول: "لم يكن ما هو أكثر ســـأماً لامرأة ذكية مثقفة أن تقضي اليوم كله بمعية طفل صغير". مثل هـــذا النقد القاسي، لتلك الأيام الأولى التي عاشتها مع زوجها جعلها

تـــدرك إدراكاً عميقاً، أنها إن استمرت في العيش معه على ذلك النحو فـــسينتهي بهـــا الأمر إلى أن تصبح مدمنة على الشراب، أو في إحدى المصحات العقلية، وهو ما لا تريده. إذاً، ما الحل؟

هذه المرة اتجهت دوريس إلى مهاجرين أوروبيين في مدينة سالزبري، كانـــوا قد هربوا من النازية، وكان بينهم الكثير من المثقفين الذين، بحسب مـــا تؤكده بنفسها، أثروا فيها تأثيراً كبيراً، وتعلمت منهم الشيء الكثير. وهكـــذا اســـتبدلت حفلات الشاي بنادي الكتاب اليساري، وتخلت عن قراءة صحيفة الأوبزرفر اللندنية لتقرأ صحيفة نيوستيتسمان اليسارية الهوى، واســـتبدلت زوجهـــا وزدم بغوتفريد ليسينج وهو مهاجر ألماني ينتمي إلى الحزب الشيوعي. وعلى الرغم من احتمال الانسجام والتوافق السياسي بين غوتفـــريد ودوريـــس، إلاّ أن حياتهما العاطفية كانت، بحسب ما تشير في مذكراتها، تافهة. وتعترف أن الزواج ليس من مواهبها.

هكـــذا، وقـــبل أن تبلغ الثلاثين من عمرها، وجدت نفسها في إحدى البواخر المتجهة إلى إنكلترا، مخلفة وراءها زيجتين فاشلتين، وابناً وابـــنة من زوجها الأول، ولكنها أخذت معها طفلها الرضيع، وحقيبة مملـــوءة بثياب عفا عليها الزمن، وعدداً كبيراً من الكتب، ومئة جنيه، ومخطوطة روايتها الأولى **العشب يغني**.

لا تـــريد دوريس أن تفصح عن السبب الذي دفعها إلى مثل هذا التـــصرف، فتقول: "لقد ذكرت كل شيء في كتبـــي. لم أكن أرغب في وضع نفسي في مثل ذلك المستوى الذي كان يحاصرني. عندما وضع روســـو أطفاله في دار حضانة أطفال، كان مرتاح الضمير، فالأطفال سيترعرعون في بيئة أفضل".

ربمـــا كانـــت أجواء لندن في تلك الأيام، التي أعقبت الحرب العالمـــية الثانية، غير مناسبة لامرأة شابة منفصلة عن زوجها. لكن

مواهـــبها الأدبية المتنامية أوصلتها إلى مجموعة من الكتاب والفنانين الذين كانوا يحيون حياة بوهيمية، يتنقلون من حانة إلى حانة، ومن نـــادٍ إلى نـــادٍ في حـــي ســـوهو الشهير بحاناته ومواخيره وملاهيه ومسارحه.

تتذكر ليسينج تلك الأيام فتقول:

"كانـــت الأجواء مذهلة، جذابة، مدهشة، وكنت أتسكع في تلك الأماكن في أوقات ما بعد الظهيرة، وأغرق نفسي فيها. لكنني، لـــسوء الحظ، كنت أتحمل مسؤولية كبيرة، مسؤولية لا تسمح لي بالخـــروج لـــيلاً، لأنني لا أقوى على دفع أجور من يبقى مع طفلي ليلاً".

كان بعض رفاقها من الكتاب والمؤلفين الشباب آنذاك قد باتوا يعـــرفون باسم *الشباب الغاضب*، ومنهم جون أوزبورن وكنكزلي إيمـــس، وجون برين، وكولن ولسن، الذين أحدث العمل الأدبـــي لكل واحد منهم دوياً هائلاً في دنيا الأدب في بداية خمسينيات القرن العشرين.

لقـــد باتـــت دوريس ليسينج اليوم، مع مرور الأيام، أُسطورة أدبية، إذ كتبت في مختلف الأجناس الأدبية، مما يصعب على النقاد، الأكاديميين وغير الأكاديميين، توصيفها ووضعها ضمن فئة معينة من الـــروائيات. فإذا قلنا إنها روائية توظف السياسة في روايتها، فذلك صـــحيح. وإن قلـــنا إنهـــا روائية تستغور أعماق النفس البشرية، مـــستلهمة نظريات فرويد، أساساً، في بحثها عن الدوافع الكامنة في ســـلوك البشر الظاهري، فذلك صحيح أيضاً. وإذا ما قرأنا روايتها الخاصة بالفنتازيا، أو تلك التي تشوبها أكثر من مسحة من التصوف، لرأينا دقة معالجتها الروائية التي تنم عن فهم عميق لهذين الميدانين من

ميادين المعرفة الإنسانية. أما إذا أشرنا إلى اهتمامها بالنواحي الاجتماعية، والنسيج الاجتماعي الذي يحكم علاقات أبطالها وبطلاتها، في أكثر من رواية، فإننا لا نستطيع إلا الإقرار بأن تفوقها في هذا المجال لا يُبارى، لا سيما إذا ما أخذنا في الاعتبار خمسينيات وستينيات القرن العشرين حيث طفت على سطح الأحداث المتواترة في ذينك العقدين النزعات والحركات الأنثوية التي كانت تنظر إلى دوريس ليسينج بوصفها رمزاً لتلك الحركات التي استأثرت اهتماماً واسعاً، وقلبت الكثير من المفاهيم التي سادت، على مر عصور طويلة، بشأن العلاقة بين الذكر والأُنثى.

لقد تعمدت ليسينج أن تفاجئ القراء بكل ما هو جديد في كل رواية من رواياتها، ويبدو أن ملامح شخصية المرأة الفكتورية كانت في ذهنها عندما رسمت شخصيات هذه الرواية من الإناث. فالمجتمع الذي تعيش فيه الإناث، إن كان يصح أن نسميه مجتمعاً بالمعنى المعاصر للكلمة، هو مجتمع يتسم بالبلادة، إناثه يفتقرن إلى كل ما يثير حبّ الاستطلاع، همهنّ الأول والأخير الاحتفاظ بالحالة الراهنة التي يعشنها. ببساطة شديدة، حياتهن يمكن تلخيصها بعبارة: لا جديد تحت الشمس!

لقد أردنا بهذه المقدمة أن نوضح للقارئ الكريم بعض ملامح هذه الرواية، فضلاً عن إلقاء بعض الضوء على بعض مراحل حياة دوريس ليسينج، ولا نريد أن نثقل بما هو أكثر مما ذكرناه آنفاً سوى أن نشير إلى أن عنوان هذه الرواية باللغة الإنكليزية هو The Cleft. ولا يخفى على القارئ أن دوريس ليسينج أرادت المعنيين في آن واحد، وهما الأُنثى، والصدع أو الشق الذي يهيمن على ساحل الإناث. ويلاحظ القارئ أن ليسينج استعملت الكلمة الإنكليزية في

مـــتن الـــرواية مرة في حالة المفرد ومرة في حالة الجمع لتعني أُنثى وإناث، فيما استعملت الكلمة لتعني الصدع أو الشق في حالة المفرد فقط. وقد أرسلنا رسالة إلى ناشر الرواية نستوضح فيها آفاق المعنى الـــذي قـــصدته المؤلفة، فأجابنا المحرر الأقدم في دار نشر (فورث إيستيت) بأن المؤلفة كانت تقصد المعنيين حتماً. ونظراً لصعوبة إيجاد كلمـــة في العـــربية تعطي هذين المعنيين المقصودين، كان لا بد من الاستغناء عن المعنى الثاني، وهو الصدع أو الشق، واللجوء إلى المعنى الأول، أي الأُنثى، ليكون عنواناً للرواية التي نقدمها لقرائنا العرب، ونكون بذلك قد قدّمنا بترجمتنا رواية ثالثة تضاف إلى الروايتين اللتين تـــرجمناهما للـــروائية ليـــسينج ونقصد بهما **مذكرات من نجا والحلم الجميل**، ومن الله التوفيق.

الدكتور محمد درويش

بغداد – صيف عام 2008

الرجل يفعل، المرأة هي(*)

روبرت غريفز

(*) الرجل يفعل، المرأة هي (Man does, woman is): هـذا الاقتباس الذي تـورده المـؤلفة، هو عنوان قصيدة في مجموعة شعرية للشاعر الإنكليزي روبـرت غريفز (1895 - 1985) صدرت في لندن عام 1964. واضح أنّ الـشاعر اقتـبس بـدوره العنوان من كتاب بعنوان (The Word Woman) للكاتبة (لورا رايدنغ جاكسن) التي عاشت معه في جزيرة ميورقا ثلاثة عشر عاماً، قبل أن ينتقل الاثنان إلى إنكلترا وبالتالي إلى أميركا هرباً من مخاطر الحـرب الأهلـية الإسـبانية. تقول لورا في هذا الكتاب: عندما تلتقي امرأة بامرأة فإنّها تعرف ما هي، على نحو لا تستطيع فيه أن تعرف على الفور ما هو الرجل، ولا يعرف رجل أي رجل آخر: وهي تعرف أن المرأة الأخرى هي امرأة، في حين أن السؤال بخصوص الرجل، القائل (من هو؟) لا يمكن الإجابـة عـنه إلا بالحديث عما يفعله، وما نوع النشاط المحدد الذي يمثله". (المترجم)

تاجر

نحن لا نسافر لأجل المتاجرة بالممنوعات.
فقلوبنا المتقدة تزداد اتقاداً برياح أشد حرارة.
من أجل معرفة ما لا ينبغي معرفته،
ننطلق في رحلتنا الذهبية إلى سمرقند.

سيد القافلة

افتح البوابة يا حارس الليل.

الحارس

هيه، إنني أفتحها أيها المسافرون. لأجل أي أرض
تتركون أنتم مدينة المتعة بقمرها الخافت؟

التجار (بصوت عالٍ)

إننا في رحلة ذهبية إلى سمرقند
(تجتاز القافلة البوابة)
الحارس (معزّياً النساء)
ما خطبكنَّ أيتها السيدات؟ هكذا هو الحال منذ زمن.
الرجال طائشون، الغاية منهم غريبة.

امرأة

لديهم أحلامهم، فلا تفكر فينا.
أصوات القافلة (تنشد عن بعد)
إننا ننطلق في رحلتنا الذهبية إلى سمرقند.

جيمز إلروي فليكر

في هذا اليوم شاهدت ما يأتي:

عندما تأتي العربات من مزرعة الضيعة، في أواخر الصيف، محمّلـــةً بالشراب والزيتون والفاكهة، تظهر على الدار مسحة احتفالـــية أشـــارك فـــيها. أُراقب من نوافذي، مثل عبيد الدار، وصـــول الثيـــران وهي تنعطف عن الطريق، وأُصغي لصليل العربة. الثيران اليوم هائجة، متلهفة، فالدرب، في جهة الغرب، صـــاخب مزدحم، بياضه ازداد حمرة، تماماً مثل شراب العبد ماركوس، الذي امتلأ شعره غباراً. هرعت الفتيات اللواتي كن يراقبن المشهد، صوب العربة، لا من أجل كل المنتجات اللذيذة التـــي ســـيخزّنها الآن فـــي المخازن وحسب، بل أيضاً بسبب ماركـــوس الـــذي أصبح شاباً وسيماً في السنة الأخيرة. غُصَّ حلقه بالغبار، فلم يستطع رد تحياتهن، فهرع إلى مضخة الماء، وخطـــف إبريق الماء، وشرع يحتسي ويحتسي، ثم صبَّ الماء علـــى رأسه، لتظهر من هذه الإراقة كتلة من تجاعيد سوداء. بعـــد ذلك وضع الإبريق بعجلة، فوق الحافة المحيطة بالبلاط، فـــتحطم. وهـــنا، انـــدفعت لولا – وهي فتاة سريعة الاهتياج،

سريعة الانفعال، كان والدي قد اشترى أُمها في أثناء رحلة إلى صقلية – صوب ماركوس، تصرخ مؤنبة، متهمة. فصرخ هو، بـــدوره، دفاعاً عن نفسه. في هذه اللحظات كان بقية الخدم قد شـــرعوا برفع جرار الشراب والزيت، وحصاد العنب، الأسود والذهبـــي، فكان مشهداً صاخباً، مفعماً بالنشاط. وبدأت الثيران تخـــور، فـــيما تناولت لولا، وقد بدا عليها نفاد الصبر، إبريقاً ثانـــياً، وغطـــسته في الماء، وهرعت به صوب الثيران، حيث مـــلأت هـــناك أحواضـــاً كانت شبه فارغة. كان من مسؤولية ماركوس التأكد من حصول الثيران على الماء حال وصولها. خفـــضت الثيران رؤوسها العظيمة وشربت، بينما التفتت لولا ثانـــية إلـــى ماركـــوس مؤنـــبة، غاضبة على ما يتضح. كان ماركـــوس ابـــن عبد من عبيد البيت، في الضيعة، وقد عرف الاثـــنان بعضهما طوال حياتهما. في بعض الأحيان، عمل هنا فـــي بيتنا الريفي، وفي أحيان أخرى كانت تذهب إلى الضيعة بنفسها لقضاء موسم الصيف. لولا معروفة بحدة طبعها، لو لم يكـــن ماركوس يشعر بالحرارة والغبار على جسده بعد الرحلة الطـــويلة والبطيئة، لضحك منها على الأرجح، ولأخرجها عن طـــورها. غير أنهما لم يعودا طفلين، إذ تكفي مشاهدتهما معاً ليدرك المرء غضبها وتجهمه، وأن مبعث ذلك ليست حرارة ما بعد الظهر الشديدة.

ذهـــب صـــوب الثيران، متجنباً قرونها العظيمة المتسامقة إلى أعلـــى، وبـــدأ يهدّئ من روعها، فأطلقها من سيورها الجلدية المـــربوطة بهـــا، وقادهـــا إلى ظل شجرة تين ضخمة، وترك السيور فوق أحد الأغصان. لسبب ما، كانت رقة ماركوس مع الثيـــران تـــزيد من انـــزعاج لولا. فوقفت تراقبه، بينما مرت فتـــيات أخـــريات مـــن أمامهـــا يحملن المنتجات من العربة،

فاحمـــرت وجنـــتاها، في حين ألقت عيناها باللوم على الغلام واتهمته. غير أنه لم يعرها أي اهتمام، بل سار أمامها، وكأنها غيـــر موجـــودة هناك، واتجه نحو الشرفة، حيث سحب شراباً آخـــر من صرته، ونـــزع السترة المغبّرة، وطفق يصبّ الماء صـــباً على نفسه، من دون أن يجفف بدنه – فالحرارة ستتكفل بذلك خلال لحظة واحدة – وارتدى ثوباً نظيفاً.

بدت لولا أكثر هدوءاً. وقفت ويدها على جدار الشرفة، نادمة، أو توشـــك علـــى أن تكـــون نادمة. مرة أخرى لم يعرها أي اهـــتمام، لكـــنه وقـــف عـــند أقصى طرف الشرفة يحدق إلى الثيـــران، موضع اتهامه. قالت له: "ماركوس...". كان صوتها مألوفاً، إلاّ أنه هزّ كتفيه، متنصلاً منها. في هذه اللحظات كانت آخـــر الجرار، وآخر الفاكهة قد نُقلت إلى الداخل. كان الاثنان وحـــدهما علـــى الـــشرفة. قالـــت لولا مرة أخرى باستمالة: "ماركـــوس". الـــتفت لينظر إليها، غير أنني ما كنت لأحب أن أســـتحق تلـــك النظرة. كانت نظرة احتقار، غضب، بعيدة كلّ الـــبعد عـــن الكياســـة التي كانت تتمناها. اتجه صوب البوابة ليقفلها، ثم ابتعد عن لولا وعن البوابة. كانت حارات العبيد عند نهاية الحديقة. فأخذ صرته، وبدأ يسير سريعاً، إلى حيث يقضي هذه الليلة. ناشدته: "ماركوس". كانت تبدو على أُهبة الاستعداد للـــبكاء. أمـــا هـــو، فكان يوشك أن يتجه إلى أحياء الرجال، فهرعت إليه، ووصلت بينما هو يتوارى وراء الباب.

لـــم أكـــن محتاجاً إلى أن أراقب أكثر، إذ كنت أعلم أنها ستجد العـــذر لتحوم حول صحن الدار، ربما تلاطف الثيران وتربت علـــيها، تقـــدم لها التين، أو تتظاهر بتقديم الرعاية التي تحتاج إلـــيها. ســـتنتظره. كـــنت أعلـــم أنه يرغب في الخروج إلى الـــشوارع، برفقة الصبيان الآخرين، للمرح مساءً؛ فهو لا يأتي

غالباً إلى هذا البيت في روما نفسها. غير أنني كنت أعلم أيضاً أن هـذين المخلوقـين سيقضيان الليلة معاً، بغض النظر عما يفضّله.

يـبدو لي أن هذا المشهد الصغير يختزل حقيقة العلاقات التي تربط الرجال بالنساء.

عـندما أشـاهد في أغلب الأحيان شيئاً ما يكشف عن سر ما، في أثـناء انهماكـي بمعاينة الحياة الدائرة في الدار، كنت أضطر إلى دخـول الغرفة التي أحتفظ فيها بمجموعة عظيمة من المواد التي أشتغل عليها، والتي مضى على وجودها معي سنوات طويلة. قال آخرون، سبقوني، إنهم سيحاولون التوصل إلى شيء من خلالها.

مـا هـذا الـشيء؟ مجمـوعة هائلة من المواد تجمعت عبر العـصور، وأسّـست التاريخ الشفاهي، البعض منها متشابه، ولكـنه دُوِّن فـي وقـت لاحق، كلها ترمي إلى معالجة أولى السجلات الخاصة بنا، نحن شعوب الأرض.

إنها مجموعة مواد مربكة، صعبة الاستعمال لجسامتها، تعرّض أكثر من مؤرخ، يُرجى منه الخير، إلى الهزيمة على يدها، لا بـسبب صعوبتها وحسب، بل بسبب طبيعتها أيضاً. ولا بد لكل مـن يشتغل عليها أن يعلم أنها لو وصلت إلى مرحلة الكمال، وأصـبح يسهل وضع اسم لها، وتشتهر بأنها نتاج عمل بحثي، فستواجه هجوماً وتحدياً، وربما توصف أيضاً بأنها زائفة.

أنا لست شخصاً يستمتع بمشاحنات الباحثين. في هذا الجدال، لا يهـم حقـاً نمطي كإنسان، لأن هناك تنافساً حول السماح لهذه الحكايـة أن تبقـى خـارج الرفوف المغبّرة، التي طالما بقيت فـوقها. لقـد عُـدَّ عـنوان *الأنثى* – وهو ليس من اختياري الشخـصي – فـي أزمان مختلفة بوصفه مهيِّجاً مما أدى إلى وضعه مع وثائق أخرى *بالغة السرية*.

كما أشرت قبل قليل، فإن التاريخ الذي أرويه يستند إلى وثائق موغلة في القدم، تستند بدورها إلى مدونات شفاهية أشد قدماً. كما أن بعض الأحداث المروية محاكة، وقد تثير حفيظة بعض الـــناس. امتحـــنت شقيقتي مارسيلا ببعض المواد المختارة من هذه المدونات، فوجدتها في حالة رعب، ولم تصدق أن الإناث المحتـــرمات يمكـــن أن يتصرفن تصرفاً يفتقر إلى الحنان مع رضَّع صغار وأحبّاء. إن شقيقتي على استعداد دائم لأن تعزو لنفسها كل الصفات الأنثوية الرقيقة؛ وهي سجية لا أظنها غير مألـــوفة. لكـــن عندما ذكرتها أن كل مَن شاهدها وهي تصرخ عـــند تدفق الدماء في الميدان، لا يسهل عليه الاقتناع بصعوبة إرضـــاء الأُنثى. فالأشخاص الذين يرغبون في تجنب ما يثير حفيظـــتهم يمكنهم بدء قراءة هذه الرواية من الصفحة التي تبدأ بعنوان ***التاريخ***.

إن هـــذا الجـــزء الذي نقدمه ليس هو الأقدم في التاريخ الذي بين أيدينا، إلا أنه غني بالمعلومات، لهذا فإنني أعرضه عليكم أولاً.

* * *

نعـــم. أنـــا أعلم أنكم ستظلون تقولون: إلا أن الشيء الذي لا تفهمـــه هو أن ما أقوله الآن لا يمكن أن يكون صحيحاً، لأنني أخبركم كيف أرى كل شيء الآن، وهو شيء مختلف اختلافاً واضحاً عما كان في الماضـــي. بـــل إن الكلمات التي أستعملها هي كلمات جديدة، لا أدري مـــصدرها، تـــبدو لي معظم الكلمات التي نتفوه بها هي من هذا الكـــلام الحديث. إنني أقول "أنا"، وأكرّر مرة أخرى "أنا"، وأنا أقول "هـــذا"، وأفكّر "ذاك"، لكن في ذلك الزمان ما كنا نستعمل "أنا"، بل "نحن"، وكنا نفكّر في "أننا".

أنـــا أقول أفكّر، لكن هل فكّرنا؟ ربما بدأ نمط جديد من التفكير شـــأنه شأن كل شيء سواه، عندما بدأت ولادة المسوخ. آسف. إنك تـــردد دوماً قول الحقيقة، وإنك تبغي الحقيقة، وعلى هذا الأساس ننظر إلـــيك، وإلـــيكم كلكـــم، بدايةً. وحوش، مشوهون، دميمو الخلقة، مقعدون.

مـــتى كان ذلك الزمان؟ لا أدري. كان ذلك في زمن موغل في القدم. هذا كل ما أعرف.

الكهـــوف قديمة. وقد رأيتموها. إنها كهوف قديمة، تقع في أعالي الصخور، بعيدة تماماً عن كل الموجات، حتى الكبيرة منها، حتى الأكبر. عـــندما تكـــون البحار هائجة، يمكنكم الوقوف فوق الجروف، وإلقاء نظـــرة إلى الأسفل، لتظنوا أن الماء ينتشر في كل مكان، لكن العاصفة تهـــدأ، بعد ذلك، ويستقر البحر في مكانه. نحن لا نخشى البحر. فنحن أهـــل البحـــر. والبحر هو الذي صنعنا. كهوفنا دافئة، ذات أرضيات رملـــية، جافـــة، والنيران المضطرمة خارج كل كهف تُحرق حشائش البحـــر وأعشاب البحر اليابسة، وأخشاب الجروف، ولم تنطفئ هذه النيران قط، ولا حتى منذ اليوم الأول الذي وجدناها فيه. هناك زمان لم تكـــن لديـــنا فيه نار، وهو مدوَّن في محفوظاتنا. فقصتنا معروفة، وقد حُكـــيت لـــشبان مختارين، وكان عليهم أن يتذكروها، وأن يحكوها، عـــندما يكـــبرون، إلى مـــن هم أصغر سناً. ينبغي عليهم التأكد بأنهم يتذكرون كل كلمة، تماماً مثلما قيلت لهم.

مـــا أقـــوله الآن ليس جزءاً من هذا النوع من المدوّنات. فعندما رويت الرواية لمن هم أصغر سناً – هم لديهم أسماء، ويطلق عليهم اسم ذكريات – فإنها رويت أول الأمر في وسطنا، وعندئذ يظهر من يقول: "لا، إنهـــا ليست كذلك"، أو ليقول آخر: "نعم، إنها كذلك". وعندما

تـــصل إلى الوقت الذي نتفق فيه جميعاً، فإننا يمكن أن نكون واثقين من أن الرواية لا تحتوي على أي شيء غير صحيح.

أتـــريدون معرفتي؟ حسناً جداً. اسمي ميري. هناك دوماً مَن اسمها مـــيري، وقد ولدت في أسرة حارسات الكهف، مثل أمي وأمها؛ هذه كلمـــات حديثة. إذا ما أنجبت كل واحدة، بعد أن تصبح كبيرة السن إلى حدٍّ كاف، فإنها تصبح أماً. وأنتم لستم مضطرين إلى أن تقولوا "أمَّا". وأُســـرة حارسات الكهف هي أهم الأسر، لأن علينا حراسة الكهف. عندما يكون القمر بدراً وأكثر إنارة، فإننا نتسلق إلى ما فوق الكهف، حـــيث تنمو الزهور الحمراء، فنقطعها، حتى يصبح هناك الشيء الكثير من اللون الأحمر، ونترك الماء ينساب من تلك العين الواقعة في الأعلى، فيدفع ماء الزهور إلى داخل الكهف، من القمة إلى القاع، فينساب دمنا كلنا، بمعنى، كل أولئك اللواتي لن ينجبن. حسناً جداً. لنوضح بحسب طـــريقتكم. إن إشعاعات ضوء القمر هي التي تعمل على تدفق الدم، ولـــيس ذلك الماء الأحمر الذي ينساب داخل الكهف. لكننا نعرف أننا إن لم نقطـــع الزهور – وهي زهور صغيرة وناعمة مثل فقاعات صغيرة علـــى أعشاب البحر ينساب منها سائل أحمر إذا ما سحقتها – إن لم نفعل ذلك فإن دماءنا لن تتدفق.

الكهـــف هو تلك الصخرة القائمة هناك، ولا تشكل مدخلاً إلى أي كهـــف مـــن الكهوف، لأنه كهف بلا مخرج، وهو أهم شيء في حياتنا، وهكذا كان شأنه دوماً. فنحن الكهف، والكهف هو نحن. وقد حرصنا دوماً على التأكد من عدم وجود أعشاب في داخله كي لا تنمو وتصبح أشجاراً، عدم وجود أدغال. وهذا الكهف مشقوق شقاً داخل الصخرة وينتهي بحفرة عظيمة. في كل عام، عندما تلامس الشمس قمة ذلـــك الجـــبل، الكائن في تلك البقعة، يكون الوقت هو فصل البرودة

دائماً، ونكون قد قتلنا إحدانا ورمينا الجثة من قمة الكهف باتجاه تلك الحفـــرة. تقولون إن كنا قد عددنا العظام، لكنني لا أفهم كيف يمكننا ذلـــك، لأن بعض العظام تحولت الآن إلى هشيم. تقولون إذا ما رمينا الجـــثة وعظامهـــا إلى تلك الحفرة كل عام، فإنه ليس من الصّعب أن نحـــسب كم مضى على ذلك. حسناً. إذا كنتم تظنون أن هذا الشيء مهم...

لا، لـــن أقول لكم كيف بدأ كل شيء، فذلك خارج موضوع روايتنا.

لا بد أن النساء المسنّات يعرفن شيئاً ما.

إنـــنا لم نـــسمّهم بـــذلك الاســـم قبل أن تبدأ ولادة المسوخ. لماذا نسميهم؟ نحن ليس لدينا سوى الفتيات، أليس كذلك، نساء فقط. أما في مـــا يخـــصّ النساء المسنّات فإننا لم نكن نفكّر في الأمر على ذلك النحو. النساء يولدن، يعشن مدة معينة من الزمان، إلا إذا غرقن في أثناء السباحة، أو تعرّضن لحادث مؤسف، أو تم اختيارهن لأن يلقى بهن داخل الكهف. وعند وفاتهن يتم إخراجهن، ووضعهن فوق صخرة الموت.

لا. لا أعرف كم واحدة منا كانت هناك في ذلك الوقت، بغض النظـــر عـــن تاريخ ذلك الوقت. هناك هذه الكهوف، كهوف كثيرة، كثرة عدد أصابع اليدين وأصابع القدمين، وهي كهوف واسعة، تندفع عمـــيقاً داخل الجروف. وفي كل كهف يعيش نمط واحد من النساء: أُســـرة، حارســـات الكهـــف، صائدات السمك، صانعات الشباك، المعالجات بجلد السمك، وجامعات أعشاب البحر. على هذا الأساس، اختيرَت أسماؤنا. فقد كان اسمي حارسة الكهف. لا، ما أهمية أن يكون لعدة أشخاص الاسم نفسه؟ في وسعكم أن تعرفوا ذلك بمجرد النظر إلى شخص ما. أليس كذلك؟

اسمي، ميري، هو من الكلمات الحديثة.

فنحن لم نفكّر على ذلك النمط. لا، لم نفكّر. لم نفكّر بأن يكون لكـــل واحدة منا اسم يختلف عن أسماء البقية. في بعض الأحيان، أتخيل أنـــنا كنا نحيا في حلم، كنا نائمات، كل شيء بطيء وسهل، لا يحدث أي شيء سوى أن القمر مضيء وبدر، والزهور الحمراء تنساب داخل الكهف.

طبيعـــي أن الرضّـــع يولدون. لقد ولدوا فحسب. لن تفعل أي واحـــدة أي شـــيء كي يولدوا. أعتقد أننا فكّرنا بأن القمر هو الذي صنعهم، أو سمكة كبيرة، لكن يصعب أن نتذكر بماذا كنا نفكّر. كان حلمـــاً جميلاً. إن تفكيرنا لم يكن قط جزءاً من حكايتنا، لأن حكايتنا تدور عمَّا حدث وحسب.

أنتم تغضبون عندما أقول "مسوخ". لكن انظروا إلى أنفسكم. انظروا إلى أنفسكم وانظروا إليَّ. هيَّا. انظروا. إنني لا أرتدي نطاقاً من زهور حمراء يكشف لكم كيف أبدو. الآن انظروا إلى الكهف. نحن متشابهات. المرأة والنساء. ليس هناك ما يدعو إلى العجب عندما تسترون أنفسكم. أما نحن فلسنا مضطرات. النظر إلينا يُسِرُّ الناظر. كأنـــنا إحـــدى الصَّدفات التي يمكن التقاطها من فوق صخرة إثر هـــبوب عاصـــفة. جمـــيلة. لقـــد علمونا تلك الكلمة، وأنا أحب استعمالها. فأنا جميلة مثل الكهف بزهوره الحمراء اللطيفة. أما أنتم فلـــستم سوى كتل ونتوءات بارزة... هل يمكنكم أن تتساءلوا عما إذا كنا عند ولادة أول الأولاد قد وضعناهم خارج الكهف ليكونوا طعاماً للنسور؟

لقد اعتدنا أن نرمي الولادات المشوهة هناك، فوق تلك الصخرة، الصخرة المائلة الواقعة خارج الكهف مباشرة.

كان أحد جانبـــي الكهف يرتفع إلى خارج صخرة الموت، نعم. هذا هو الاسم الذي استعملناه لها. فنحن لم نحتفظ بالأطفال المشوهين، و لم نحتفظ بالتوائم. كنا نحرص على أن يبقى عددنا محدوداً، لأن ذلك أفـــضل لـــنا، لماذا؟ لأن هذا هو الحال منذ زمن بعيد، و لم نفكّر بتغيير الأشـــياء. لم تكن لدينا ولادات كثيرة، ربما ولادتان أو ثلاث ولادات في الكهـــف الـــواحد على مدى زمن طويل، بل إن بعض الكهوف لم يكـــن فـــيها أطفال قط. صحيح أننا نفرح عندما تولد طفلة، لكن إن احتفظنا بكل طفلة تولد، عندئذٍ لن يكون لدينا متسع من المكان يكفينا كلنا. نعم، أعرف أنكم ستقولون إننا يجب أن نعثر على شاطئ حيث يوجد متسع من المكان، لكن وجودنا ارتبط دوماً بهذه البقعة. ثم كيف نستطيع الانتقال من الكهف؟ هذا هو مكاننا، وكان دوماً مكاننا.

عـــندما وضعنا الأطفال المشوهين خارج الكهف، جاءت النسور من أجلها. إننا لم نقتل الأطفال، بل النسور هي التي قتلتهم. ... هل في وســـعكم رؤيته؟ تلك النقطة الصغيرة في ذلك المكان. إنها نسر كبير، بحجـــم إنسان. إننا نضع كل المسوخ حديثي الولادة، ونراقب النسور وهي تحملهم إلى أعشاشها. نعتقد أن ذلك الزمن استمرّ، واستمرّ، لأن النـــساء المسنّات (وهو الاسم الذي تستخدمونه للإشارة إليهن) انتابهنّ قلـــق، لأنـــه لم يعـــد في الكهوف سوى عدد قليل من الإناث، بينما ازدادت ولادة المسوخ، ازدادت أكثر منا نحن الإناث.

ذكور، إناث. كلمات جديدة، أناس جدد.

اســـتمر الحـــال. وبـــدلاً من أن ننتظر ولادة بكل سرور، صرنا خائفـــات. وعندما كانت تشاهد إحدانا أن المولود مسخ، فإنها تشعر بالعـــار، فـــيما تكرهها الأخريات، وإن لم تكن كراهية دائمة، إلاّ أن اللحظـــة التي كان المسخ يظهر فيها عند الولادة، كانت لحظة رهيبة.

وأصبحت القليلات منا يقمن بصيد السمك، وجمع الطعام البحري. واشتكت المسنّات من أنهن لا يحصلن على كفايتهن من الطعام. نعم. كنا دوماً نطعمهن، ونقدم لهن ما لذّ من الطعام ليأكلنه. لا أعرف لذلك سبباً. كل ما هنالك أننا فعلنا ذلك. وفجأة لم يعد هناك سوى نصف العدد في كهف صائدات السمك، ولهذا اضطرت بعض الأخريات، ممن لم يكنّ صائدات سمك، إلى أن يتحولن إلى صائدات سمك.

إنني أوافق على أن الشيء الغريب هو أننا لم نفكر البتة في أن نسأل عمَّا يجري في الطرف الآخر من تلال النسور. أنتم تتكلمون دائماً كأننا غبيات. لكن لو كنا غبيات جداً، فكيف تمكنّا من أن نحيا كل هذه السنين الطويلة حياة آمنة، رخية، أطول مما عشتم أنتم أيها المسوخ. أنتم تقولون لنا، إن قصتنا ترجع إلى عصور سحيقة، لكن قصتكم أقصر بكثير. لكن ما الذي جعلنا نطوف الأرجاء، ونبحث عن أشياء جديدة، أو نتساءل ما هي النسور؟ ما السبب؟ فنحن لدينا كل ما نريد في هذا الجزء من الجزيرة؛ وهي الكلمة التي أطلقتموها أنتم على هذا المكان، عندما قلتم لنا إنها جزيرة مترامية الأطراف. حسناً، سيعود ذلك بالنفع عليكم. لكن ما الفرق عندنا؟ نحن نعيش في ذلك الجزء من الجزيرة، حيث نراقب الشمس وهي تتوارى في البحر كل مساء، ونراقب القمر وهو يشحب بطلوع النهار.

بعد مرور وقت طويل على ولادة أول مسخ، شاهدنا على ذلك الجزء من شاطئ البحر الأقرب إلى تلال النسور واحداً من مسوخكم، واحداً منكم. وكان يربط حول وسطه ثياباً من جلد السمك، كالتي نلبسها عندما يحين وقت الزهرة الحمراء. كنا نرى من تحت ذلك الجلد شيئاً منتفخاً، فكّرنا أنه شيء قبيح. كان ذلك مسخاً أنجبناه، وأصبح

الآن بالغاً. كيف حدث ذلك؟ قالت المسنّات إننا يجب أن ننتظر، وأن نقتل ذلك المسخ في المرة القادمة التي يظهر فيها على الشاطئ. لكن حدثت معارضة وسط المسنّات، وقالت بعضهن إننا يجب أن نتسلق التلال حيث تعيش النسور عندما نترك هناك مسخاً آخر كي يموت، ونراقب كي نرى إلى أي مكان تأخذه النسور. البعض منّا فعلن ذلك الشيء. كن خائفات جداً، بالمعنى الذي يجعل الصغار يتعلمون من الحكاية. لم تكن عادتنا أن نطوف الأرجاء، وعلى وجه التأكيد، لم نصل إلى نقطة بعيدة بُعد تلال النسور. إذ لم تذهب أي واحدة منا من قبل إلى مثل ذلك المكان البعيد. نعم، أنا أعلم أنها ليست أكثر من مسافة قصيرة.

شاهدنا النسر يحمل المسخ بمخالبه، ويطير به إلى أعلى التلال، حيث توجد الأعشاش، لكن بدلاً من رمي الرضيع في العش، استمر النسر في طيرانه، وحمل الرضيع، وهبط به إلى واد توجد فيه أكواخ. نحن لم نشاهد أي كوخ البتة، أو أي ملجأ، لأننا نسكن دائماً في كهوفنا. بدت الأكواخ مثل حيوان غريب الشكل، بل إنها أثارت هلعنا إلى حدّ أوشكنا معه على الرجوع ركضاً إلى البيت. لقد أخذ النسر الطفل إلى الأسفل، وهناك تلقّفته بعض الوحوش، وناولوا النسر قطعة كبيرة من الطعام. ندرك الآن أنها كانت سمكة. أخذوا الطفل إلى أحد الأكواخ. أثار المشهد خوف الحارسات، الأمر الذي دفعهن إلى الركض سريعاً إلى البيت ليحكين للمسنات عمَّا شاهدنه. كانت الحكاية رهيبة. فعلى تلال النسور يوجد مسوخ أحياء، أناس بالغون، ليسوا مثلنا نحن الإناث. كان في وسعهم أن يعيشوا على الرغم من أنهم كانوا مشوهين وقبيحين. هكذا كان رأينا فيهم. كل واحدة منا كانت خائفة، مذهولة، لا تدري في ما تفكّر، أو ماذا تفعل.

ثم ولـــد مسخ آخر، فأخبرتنا المسنّات أن نرميه في البحر من فوق ذلـــك الجرف. فأخذت مجموعة منَّا الطفل إلى أعلى الجرف، لكن لم تكـــن لديهن رغبة في قتله، لأنهن كن يعلمن الآن أنه يمكن أن يترعرع ويعـــيش، وأنهن إذا ما رمينه إلى الموج، فسيموت. كلنا نعرف السباحة والعوم، ونشعر بالسعادة عندما ننـــزل البحر. لكن ينبغي علينا أن نعلّم صـــغيراتنا الـــسباحة، اللواتي كن يصرخن ويولولن، بينما كان الطفل الرضيع يصرخ أيضاً، لأنهن كن بعيدات عن مسمع المسنّات، وكن غير مـــتفقات علـــى مـــا يفعلنه. كن يكرهن المسوخ، أما الآن فأصبحن خائفـــات أيضاً، يعرفن أن المسوخ تعيش هناك فوق التلال... انظروا. لقـــد طلبـــتم مـــني أن أحكي عمَّا حدث، فما الذي يدفعكم إذاً إلى الغـــضب عـــندما أحكي؟ لو أن بعض نسائنا ولدن في مجتمعكم فلربما فكـــرتم أنـــنا مـــسوخ، لأننا نختلف عنكم. نعم. أنا أعرف أنكم لا تـــستطيعون الإنجـــاب، بل نحن النساء وحدنا القادرات على الإنجاب، لكنكم تحتقروننا. نعم، أنتم تحتقروننا، لكن لولانا لما وُجد المسوخ، ولما وُجـــد أحد قط. هل فكّرتم في ذلك؟ نحن النساء نصنع الناس كلهم، نساءً ومسوخاً، فما الذي يحدث؟ هل فكّرتم حقاً في ذلك؟

كـــن واقفـــات على الجرف يحملن المسخ الرضيع وهو يبكي، عندما ظهر للعيان نسر كبير يحلّق فوقهن. زعق بهن، مرات ومرات، حـــتى انتابهن رعب حقيقي. النسور كبيرة، وتستطيع حمل شخص بالغ؛ إن ليس لمسافة بعيدة، لكنها تستطيع حمل واحدة منا من فوق الجرف، ربما تلك التي تحمل الرضيع، وتنطلق بها صوب البحر، وفي البحـــر. كمـــا يمكن لتلك الأجنحة العظيمة أن تضربهن واحدة إثر الأخـــرى فيـــسقطن وسط الأمواج المتلاطمة الوثّابة فوق الصخور الحـــادة. غير أن ما حدث لم يكن كذلك. فقد دنا النسر وهبط من

الـــسماء، والـــتقط الطفل الرضيع بمخالبه، وحلّق بعيداً مولياً ظهره تلال النسور.

لم تعرف النساء ماذا يفعلن، فقد خشين أن يحكين للمسنات عمَّا حدث. ولا أتذكر أي واحدة قالت من قبل إنها خائفة.

ثم حـــدث شـــيء جديـــد. فعندما ولد مسخ جديد، تظاهرت الـــصغيرات بـــرميه في الموج، إلاّ أنهن ذهبن بعيداً إلى حيث لا يمكن مشاهدتهن، وهن يعلمن أن بكاء الطفل سيأتي بأحد النسور. ثم وضعن الطفـــل فوق الجرف وراقبن النسر وهو ينحدر متهادياً ويلتقطه. عند ذلـــك الـــوقت، ولـــد عدد كبير من المسوخ قدر عدد الإناث اللواتي يشبهننا، والذين يشبهونكم.

هـــل فكرتم بغرابة وجود الحلمات فوق ذلك الجزء المسطح من أمامكم. ليس في وسعكم أن تسمّوها أثداء. أليس كذلك؟ لماذا لديكم حلمـــات فيما لا فائدة منها لكم؟ إنكم لا تستطيعون إرضاع الرضّع منها. إنها بلا جدوى.

نعـــم أنـــا متأكدة أنكم فكرتم، لأنكم دائماً تلاحظون الأشياء وتطرحون الأسئلة. حسناً، ما جوابكم، إذاً؟

شيء آخر. قالت إحدى المسنّات إنّه ينبغي علينا أن نحتفظ بأحد المسوخ، بواحد منكم، ونتركه ينشأ ويترعرع، ونرى إن كان يفيد في أي عمـــل. هذا صعب، لأن النسور كانت تراقبنا طوال الوقت، ولهذا يتعين علينا أن نبقي الطفل المسخ بعيداً عن أنظارها.

إنني لا أريد حقاً أن أفكّر في مصير الطفل، إن كل ما هنالك، هـــو أنني سمعت بحكايته. إنها جزء من القصة، وقد روتها الذكريات مرات ومرات. أما الشيء الذي أخبركم به الآن، فهو ليس إلاّ جزءاً مما أسميناه قصة.

ثمة شعور سيئ بخصوص ذلك الجزء من قصتنا. فهناك اختلافات، والأسوأ من ذلك، مشاجرات. ففي القصة لم يكن هناك البتة ذلك النمط من الشجار من قبل. لقد أرادت بعض المسنّات ألاّ يدور حديث عن أول طفل من المسوخ، ولا كيف كانت معاملته، بينما تساءلت أخريات عن فائدة قصة مبتورة بعض أجزائها. أنا أعتقد أن أجزاءً كثيرة بُترت منها. غير أن ما نعرفه نحن كلنا هو أن ما من واحدة منا رغبت في إطعام المسخ. لذلك لم يحصل على ما يكفي من الطعام، فكان دائماً جائعاً، باكياً، مما يعني أن النسور ظلت تحوم حول المكان، محاولة أن تعرف أين احتفظنا بالطفل. في الحقيقة، لقد أُطعم الطفل، لكن التي كانت تطعمه كانت تشاكسه وتعذبه، في أثناء إطعامها له، لقد مرَّ أول طفل مسخ بوقت عصيب.

ثم قالت إحدى المسنّات إن كل شيء يجب أن يتوقف، فإما أن تقرر إبقاءه على قيد الحياة والعناية به، أو لا، لأن ما يحدث الآن سيؤدي إلى قتل الطفل. ماذا فعلنا به؟ لقد كانت كل واحدة منا تريد أن تتداعب ذلك الأنبوب الموجود في مقدمة كل واحد منكم. غير أن المسخ الصغير ظل يصرخ ويصرخ حتى مرض، وامتلأ بسائل ذي رائحة كريهة. ثم قالت إحدى النساء المسنّات إن المسوخ يشبهوننا حقيقةً، ما خلا ذلك الجزء الموجود في مقدمتكم، وفي الثديين المسطحين. إنه أشبه بواحد من صغارنا. لنقطع ذلك الجزء الأمامي ولنرَ ما الذي سيحدث. حسناً، قمن بقطعه، فمات. كان طوال الوقت يصرخ ويزعق، وعندما ولد مسخ آخر، واحتفظن به، فإنه عومل معاملة أفضل، لكنني لا أرغب في أن أحكي لكم، كل شيء، عن الطريقة التي عومل بها هؤلاء الصغار. أعتقد أن البعض منا شعرن بالخجل، فنحن لسنا قاسيات، ولا يوجد ما يشير إلى أن أي واحدة منا ارتكبت أفعالاً قاسية إلى أن ولدت

المسوخ. كان المسخ الذي حاولنا أن نربيه يضل طريقه خارج الكهف الـــذي وضـــعناه فيه، مما جعل نسراً ينحدر متهادياً ذات يوم، ويلتقطه ويحلّـــق بـــه صـــوب التل، ويضعه مع الآخرين. أما كيف بقي هؤلاء الأطفال على قيد الحياة؟ فهذا ما لا نملك عنه أي فكرة.

ثم ولـــد عدد لا بأس به من المسوخ، كلهم دفعة واحدة، فأرادت بعض المسنّات منا أن نبقي أحدهم ليكون لعبة، من دون الآخرين. غير أن الحكاية تمضي لتقول إن بعض الأطفال وضعوا فوق صخرة الموت في الوقت نفسه، ولكن بدلاً من نسر واحد أو نسرين، جاءت نسور بعدد المـــسوخ الـــصغار، وراقبنا الأطفال وهم يُحملون إلى ما وراء التلال. كـــيف عـــاش هؤلاء الأطفال؟ الأطفال الرضّع يحتاجون إلى حليب. وهناك حكاية عن أن إحدى نسائنا شعرت بالأسى لما أصاب الأطفال مـــن جوع، فذهبت بنفسها إلى ما وراء التلال، لتجد الأطفال الصغار وهـــم يزحفون ويبكون، فأرضعت أكبر عدد تستطيع إرضاعه. هناك حليب في أثدائنا دوماً. أثداؤنا مفيدة، بخلاف أثدائكم.

هكـــذا مكثت هناك مع المسوخ، لكن ما من أحد يعرف الآن ما الذي جرى حقاً. ونحن نريد أن نصدق ذلك، لأننا، كما أعتقد، نشعر بالخجل من بقية الحكاية. لكن السؤال الذي يظل مطروحاً هو: كيف عاش أولئك الصغار فيما لم يكن هناك مَن يطعمهم؟

ثمة حكاية تقول إن اثنتين من نسائنا كانتا جالستين قرب البحر، تـــراقبان المـــوج، وفي بعض الأحيان تنـــزلان البحر لسباحة قصيرة. وهـــناك شـــاهدتا سمكتين من النوع الذي يشبه الثدي، بسبب طراوة حجمهمـــا الكبير، ووجود أُنبوبين ناتئين فيهما يشبهان تلك التي لدى الأطفال المسوخ. ولدى التصاق أنبوب إحداهما بأُنبوب الثانية تساقطت بيوض صغيرة في الماء.

هكـــذا فكّـــرنا أن الفائـــدة من الأنابيب عند المسوخ هي صنع البيض، ولكن إن كان الأمر كذلك، فما السبب، ولأي غرض؟

أعـــتقد أن هذه الحكاية خيالية، غير أنني أعتقد أن شيئاً مقارباً لها قد حدث.

بـــدأت المسنّات يتحدثن عن الأمر، لأننا أخبرناهن؛ أقصد بكلمة أنـــنا الـــصغيرات منَّا اللواتي وجدن شيئاً موارباً في هذه الأنابيب وهذا البـــيض. فذهـــبت بعض الصغيرات إلى التل، ولدى رؤية المسوخ لهن قبـــضوا عليهن، وأدخلوا أنابيبهم فيهن. وهكذا أصبحنا ذكوراً وإناثاً، وتعلمـــنا كيف نقول أنا ونحن، لكن هناك حكايات كثيرة، لا حكاية واحدة بعد هذا كله. نعم، أنا أعرف أن ما أقوله لكم لا يرقى إلى أي معنىً، لكنني أخبرتكم أن هناك الكثير من الحكايات، لكن من يعلم أيها صـــحيحة؟ بعـــد مـــرور وقت على ذلك، فقدت النساء القدرة على الإنجاب من دون المسوخ؛ من دونكم.

* * *

هـــذا الشرح الذي تقدمه ميري هو شرح متأخر عن أول وثيقة نملكهـــا، متأخر كثيراً؛ بعصور. ينبغي ألاّ نثق بكلمة عصور: فهي تعني عدم وجود معرفة حقيقية. إنها حكاية سهلة، رُويت مـــرات ومـــرات، كما أن الندم على القسوة استهلك تماماً. لا، غيـــر صحيح، إنه مفيد، بقدر ما تتواصل الحكاية، لكن هناك الشيء الكثير الذي لم يذكر. فذلك الشيء غير المذكور موجود فـــي أول وثيقة، أو في المقطع الذي ربما هو محاولة أولى في كـــتابة *القـــصة*. إنها قصة فجة، غير متكاملة، يرويها شخص مذهول. فقبل ولادة *المسوخ* الأوائل لم يحدث شيء البتة – ولا حتى على مر العصور – بهذه الجماعة من البشر الأولين. لقد شوهد المسخ الأول بوصفه خطأ ولادياً لم يحالفه التوفيق. لكن

حـــدثت ولادة أخرى، وأخرى، وساد الإدراك بأن ذلك الشيء سيـــستمر. وانـــتاب الهلـــع الإناث المسنّات، فثارت ثائرتهن، وصـــرخن، وعاقبن صغار الإناث اللواتي كن ينجبن المسوخ، أمـــا معاملتهن للمسوخ؛ حسناً، إن قراءة شرح ميري لن يبعث علـــى السرور، لكنني شخصياً لا أستطيع أن أحمل نفسي كي أُعيد تقديم ذلك المقطع هنا، فهو لا يبعث على السرور أبداً فأنا مـــسخ، ولا أســـتطيع أن أحـــول دون التّماثل بأولئك الأطفال الرضّـــع، أول الأولاد الـــصغار الذين عُذّبوا منذ زمن طويل. فعدم صحة القسوة التي ابتكرتها الإناث قديماً تثير الاشمئزاز. وحتـــى في هذا الزمان، الذي يمثل حقبة وضع الطفل المولود حديـــثاً فـــي العـــراء كي يموت، ثم الاحتفاظ بعدد قليل فقط، وتقطيع أوصالهم؛ حسناً، لقد استمر ذلك زمناً أطول بكثير مما يوحي به التقرير الوارد أعلاه، أطول بكثير جداً.

لقد تطور ما يشبه الحرب بين النسور والإناث الأوليات اللواتي لـــم يكـــن فـــي وسعهن الفوز. فهن لم يعرفن القتال أو حتى العـــدوان، بـــل هـــن لا يعـــرفن النشاط البدني أيضاً. فتراهن يضّجعن فوق صخورهن ويمارسن السباحة. تلك هي حياتهن، وهكـــذا كانت منذ عصور. ثم فجأة تظهر هذه الطيور العظيمة التـــي تراقب كل حركة من حركاتهن، وتحاول انتزاع المسوخ مـــن بيـــنهن حال ولادتهم. لقد قتلت بعض الإناث الصغيرات اللواتي كن يقمن على رعاية المسوخ، وجُرفن نحو البحر، ثم مـــنعن من الخروج لأن النسور تحلّق حولهن، وتدفع بهن إلى القـــاع حتـــى يغـــرقن. إن تلك الحرب ما كان لها أن تستمر طـــويلاً، إلا أنهـــا أنتجت عدو الإناث الأول. فكَرِهْنَ النسور، وحـــاولن لبعض الوقت، إلحاق الأذى بها، بقذفها بالحجارة، أو ضـــربها بالعـــصي. وهكذا، لم يبدأ الخوف وحده بل بدأ شكل

بدائـــي مـــن أشـــكال الهجوم والدفاع في هذه الجماعة الغافية (بحسب تعبير ميري) التي كانت تمثل أول الجماعات البشرية، أولـــى الإنـــاث تمامـــاً. وكان هذا يكفي لجعل النساء المسنّات اللواتي يحكمنهن يفقدن توازنهن، إذ أصبحن مصدر خوف مثل النـــسور. واتحـــدت النسوة الشابات، وهدّدن المسنّات بإلحاق الأذى بهن. على أي حال، فهنّ اللواتي أنجبن المسوخ، وعليهن إطعـــامهم، إذا ما تقرر أن هذا أو ذاك هو الذي سيبقى، أو هو الذي سيتم التخلص منه، وهنّ اللواتي أُوكلت إليهن تلك المهمة القـــذرة. فكانت الإناث المسنّات يستلقين ويصرخن، أو يتأوّهن فوق الصخور، يوجّهن اللوم والتقريع لأي شيء ولكل شيء.

لـــم يكن مجيء المسوخ سبباً لإيقاظ الإناث الأوائل من حلمهن الطـــويل فقـــط، بـــل كاد أن ينهيه. فتعين عليهن التوقف عن الـــشجار فـــي مـــا بينهن، لأن ما من أمّ شابة كرهت المسوخ كراهية تكفي لتدميرهم. فقد كان هناك انغماس وتخبط واندفاع في العواطف، مما جعلهن في حالة تشبه حالة الحرب الأهلية.

إننـــي أكـــتب هـــذه الكلمات، وأنا أشعر ببعض تلك العواطف المـــوغلة في القدم. لقد لاحظت أن ميري ذكرت في تقريرها كلمتـــي *"نحـــن" و"نـــا"* للإشارة إلى النساء الأوليات، مثلما لا أســـتطيع إلاّ أن أتماثـــل شخصياً مع الذكور الأوائل. إنه لأمر يثيـــر القـــرف أن تقرأ عن ذلك المقطع الذي يروي لنا حكاية المسوخ الصغار. وحتى في هذا الزمان، فإننا عندما نقرأ كيفية إصدار الأوامر إلى الشابات بقطع *الأنابيب والكرات* الموجودة في مقدمة الأطفال، مما أدى، بطبيعة الحال، إلى قتلهم، وكيف أنهـــن أحســـسن بالنشوة؛ حتى في هذا الزمان، فإننا نشعر بأن ذلـــك شيء مؤلم. سأوفر عليكم، ولن أطلعكم على ذلك الجزء، لأن الإنـــاث قـــررن، بعـــد هذا كله، ألاّ يدرجن في روايتهن

الرسمية ذلك المقطع الذي علّمنه للمسؤولات عن الذكريات. لماذا نملك هذا المقطع، إذاً؟ لا بد لنا من الاستنتاج بوجود رأي أقلية لم توافق على إخفاء الحقيقة؛ الحقيقة المقرفة والمثيرة للاشمئزاز. لقد احتفظت واحدة، أو مجموعة منهن بذلك المقطع، كما أن إحداهن، أو مجموعة منهن، علّمت الكلمات لإحدى المسؤولات عن الذكريات. ومرّ وقت طويل، بينما كانت هذه الرواية المقرفة تروى على الألسنة لتصل الآذان، (وهو التعبير المستعمل لتاريخنا الشفاهي)، جيل بعد جيل، ولم تدرج ضمن الرواية الرئيسية. ثم ماذا؟

ثم جاءت حقبة دُوّنت فيها كل الحكايات المنقولة شفاهاً، بلغة لم تحل شيفرتها إلاّ منذ وقت متأخر. وقد كتب الملحق الضار والمثير للفتنة والشغب على نحو منفصل وأُرفق بالرواية الرسمية. ولهذا السبب اعتقد أولئك الأوائل، ممن فكوا رموز الشيفرة، أنها مزورة، وأن ذكوراً دونوها للحط من شأن جنس الإناث كله. لكن التقرير ينطوي على الشيء الكثير الذي يدمي، وعلى الكثير من الصرامة، مما لا يجعل تلك الأحداث القاسية مزيفة. وهناك تفاصيل لا أعتقد أن تزويرها سهل.

من هو هذا المؤرخ؟ أنا كاتب وباحث، معروف باهتمامي بكل ما هو غريب، وشاذ. اسمي في هذا الكتاب ترانزيت. أما اسمي الحقيقي، فسأُبقيه سراً. وهذه الحزمة أو المجموعة من الأوراق التي تحوي قصة هؤلاء النسوة والمسوخ موجودة على الرفوف الخلفية من المكتبات، أو تذبل على رفوف الباحثين منذ زمن بعيد. لقد قرأ عدد كبير من الناس الرواية، ولم يكن هناك من لم يتأثر بها، وهناك نسخٌ منها لذلك النمط من الناس الذين يرون كل شيء على أنه من أدب المجون.

إن تاريخ العار المحفوظ على كِسَرِ أثرية قديمة ليس هو، بأي حـــال من الأحوال، المعلومات الخطيرة الوحيدة المحفوظة في مكان مقفل.

هذه هي النقطة التي نحتاج فيها إلى توضيح. لقد حدث كل هذا الحفظ وهذه التهدئة وإخفاء الحقيقة عندما تم الاتفاق على إنهاء كـــل الأعمـــال العدائية، وإننا كلنا جنس واحد أو شعب واحد. ولما كان هناك مثل هذا التاريخ الطويل والحزين في ذاكرتنا، وأكثره كان محفوظاً في الذكريات الرسمية، فقد تم الاتفاق على أن هذه الصياغة التي تؤشر دوماً إلى تهدئة الخلافات، أي أن الكثير من المواد التحريضية، التي يمكن الحصول عليها كلها، لا بـــد مـــن وضعها في مكان آمن، ولا يسمح لأحد بالوصول إليها إلا إذا كان من الأوصياء الموثوق بهم.

أنـــا واحـــد من هؤلاء، أو كنت واحداً منهم. وهذا هو الجزء الثانـــي مـــن التفسير. لماذا أنا في موقع من يحدثكم عن هذه المادة؟ السبب هو أنني احتفظت بها، وصنتها، وسهرت عليها زمناً طويلاً.

إننـــي هـــنا أُثـــبت أوراق اعتمادي، منذ بداية قصتي. إن ما سأرويه قد يكون – بل يجب أن يكون – افتراضياً، لكنه مبنيٌ علـــى حقـــيقة. لقـــد وضعت منذ البداية مقاطع من تلك المواد المحفـــوظة، لكـــي أضـــفي نكهة على المادة التي يتعين عليَّ الاشتغال بها. ربما تقولون إن الشرح يفتقر إلى التماسك. لكننا نتحدث عن وقائع جرت منذ زمن سحيق، وليس في وسع أحد اليوم أن يحدد مقدار قدم ذلك الزمان. ولهذا مظهر مشوّق. فهو سجل تحقيق قام به واحد منا – أي الذكور(أو المسوخ، إذا ما أردنا أن نستفيد من النكتة التي لا تزال رائجة) – مع أُنثى أو امرأة. وهذا يكفي في حدّ ذاته، لأن يجعل المرء يتوقف ويفكر.

ممـــا لا شـــك فيه أن المحقق في موقع السلطة، وهذا يموضع الحـــدث فـــي وقت متأخر من تاريخنا الطويل. لكنها محفوظة بالطـــريقة التـــي لجأت إليها الإناث، أي أنها تذكر تاريخاً ما، تقريـــراً مـــا، محفوظاً في ذكريات الذكرى، وينقل إلى أجيال متعاقـــبة من الذكريات. لهذا، فنحن نتحدث عن أحداث مبكرة جـــداً، عـــندما ننظر إلى حكاية أخرى محفوظة، لكنها لا تزال مـــوغلة فـــي القدم، لا ترتبط إلاّ قليلاً بما يتعلّمه أطفالنا على أنه حقـــيقة. وهذا يعني أننا نحن الذكور كنا البداية في القصة، وعلى نحـــو مـــدهش حكتها الإناث. نحن الأقدم، وهن من أنتجننا. شيء مثير للاهتمام عندما تنظرون إلى التشريح: ذكر وأنثى. لكن كيف تفـــسر روايتنا الرسمية ما يقال عن أن الذكور ليس لديهم وسائل استيلاد وتربية؟ لا يوجد تفسير لذلك. نحن حكايات جذابة، ضبابية أنـــتجت فـــي الوقت نفسه الذي أُقفل فيه على تلك الوثائق التي أعتقد الآن أنها غالباً ما دُمرت.

لكنكم لا تستطيعون تدمير ما هو محفوظ في عقول الناس. إن المـــنهج الذي انتهجته الإناث ينطوي على حفظ فعّال للتاريخ، لأنـــه تمـــثّل فـــي استظهار دقيق، كلمة كلمة، ثم تسليم ما هو محفوظ للجيل التالي، بعد أن تقارن كل كلمة وتمحّص باللجوء إلـــى منهج الخطوط الموازية من الذكريات، وذلك طوال المدة التـــي يتطلبها التمحيص والتي تستدعيها المقارنة. وستصيبكم الدهـــشة بسبب ضخامة المادة الموجودة في المكان الذي أُطلق عليه، على سبيل النكتة، اسم السجون. نعم، أعتقد أن هذه هي النكتة التي نستخدمها نحن الحراس الرسميين للحقيقة الممنوعة. لقد جاء معظمها تقريباً من ذكريات الإناث، على الرغم من أن ذلك يوافق الزمن الذي بدأنا فيه استعمال المنهج نفسه، أي من ذكرياتنا أيضاً، وإن كنّ أخذن عنا هذا المنهج. غير معقول، إن

لامعقولـــية روايتـــنا الرسمية هي التي غدت عبئاً ثقيلاً نرزح، نحن المؤرخون، تحت وطأته.

لـــم يعمـــد أحـــد إلى تولي مهمة دراسة المادة بوصفها سجلاً خطيـــراً، ومـــن ثـــم محاولـــة تحـــويلها إلى تاريخ متماسك. الميثولوجـــيا والأســـاطير من اختصاص الإغريق إلى حدٍّ ما، ويمكـــن أن تعـــرض هذه المادة بوصفها أسطورة، لكن ما من إغريقي تبنى هذه المهمة، ولعل السبب يعود إلى أن هذه ليست أسطورة، بل أشبه ما تكون برواية حقيقية. إن تاريخنا لا يغور عمـــيقاً جـــداً. أليـــس كذلك؟ كما ينطلق من الميثولوجيا، مع إينـــياس(*)، والحرائق المشتعلة في طروادة، التي تضيء أقدم عصورنا، تماماً مثلما أضاءت عصور الإغريق.

...

لقد وجدت ما يبعث على التسلية في تقديس الإناث، فيما نراهن في الحياة الاعتيادية في مركز ثانوي، يُنظر إليهن نظرة دنيا. لعل نـــزعة الشك الموجودة عندي جعلتني أستطيع القيام بمهمة ســـرد الرواية عن أصولنا الأسطورية. على سبيل المثال، هذه النـــسور التـــي اضطهدت أولى الإناث، وأنقذت أول الذكور. حـــسناً، نحن في روما، لا نقوى على توجيه النقد إلى نـــزعة تبالغ في أهمية النسور، حتى لو كانت نسورنا أصغر بكثير من النسور العظيمة الخاصة بالنساء والمسوخ.

.....

.....

.....

.....

(*) إينياس: بطل طروادة في ملحمة الإنياذة التي كتبها فيرجيل (70 – 19 ق.م) كبير شعراء الرومان. (المترجم)

ملاحظـــة مؤرخ: هذه هي أنشودة الرقص، أنشدها أول رجل، ولعـــل في الإمكان سماعها حتى يومنا هذا، أصولها منسية منذ عهد طويل، وقد أنشدت في بقاع نائية. ويستمر أهل النسر في أقـــوى العشائر، وهي عشيرة الحكام. وحتى اليوم، إذا ما قتل أحـــد مـــا نسراً، فلا بد من أن يلقى العقاب: وفي يوم ما، كان يحكم عليهم بالموت.

في ما يأتي، أنشودة حرب أنشدها أول إنسان:

اقتلوا النساء

اقتلوهن، اقتلوهن،

فهن عدوّاتنا

اقتلوهن جميعاً.

لديـــنا على قطع من الخزف، موغلة في القدم، صورٌ ليست فقط عـــن بتـــر الإناث أعضاء تناسلية ذكورية وحسب، بل عن بتر الذكور أعضاء تناسلية أُنثوية وتشويهها. وهذه الصور ليست تلك المرســـومة على الجرار والأواني التي تعود إلى مرحلة زمنية يعتقد أنها ذات أهمية فنية، بل هي خطوط عامة يعوزها الإتقان. أمـــا الأوصاف الخاصة بالتعذيب فقد بقيت محفوظة، ولم يعرف معظـــم الـــناس بوجودها، فقد أصدر حاكم ذو طبع متفائل أمراً يقـــضي بتدمير كل الأوصاف الخاصة بالتعذيب، أو حفظها في مكـــان مقفل، مؤملاً على ما يبدو، أننا، معشر البشر، لن نتمكن مـــن ممارسة القسوة إذا لم توضع أفكار عنها في أذهانهن أولاً. وإننـــي لأتـــساءل عمـــن يكون هذا الحاكم. من يدري ربما هو امـــرأة. منذ زمن بعيد جداً. فقد عثر على كمية من الفخار داخل مغارة دارت حولها شكوك كونها أحد مساكن البدائيين.

إذاً، سأنهي الشروحات، لأصل إلى محاولتي في كتابة تاريخ، وهو تاريخ من شأن النساء والمسوخ، الذكور والإناث، الاتفاق

علـيه. لكننـي أواجـه مشكلة على الفور. فقد كتبت الذكور والإنـاث، لأن تقاليدنا تضع الذكور أولاً دائماً. فهم الأوائل في مجتمعـنا، علـى الرغم من تأثير سيدات عظيمات ينتمين إلى بـيوتات نبـيلة. نعم. إنني أظن أن هذه الأولوية ليست سوى ابتكار متأخر.

* * *

التاريخ

مجموعة من مدونات لفظية قديمة، دُوّنت بعد مرور عصور عديدة على جمعها.

هـذه المدونات موجودة فوق الصخور، ترشقها موجات البحر، وهـي تشبه عجول البحر، تشبه عجول البحر المريضة، لأنها شاحبة، وعجول البحر عموماً سوداء اللون. في البدء اعتقدنا أنها عجول البحر. عجول البحر المغنّية؟ لكننا لم نسمع عجول البحر تغني، على الرغم من أن بعـض الناس أكدوا أنهم سمعوها تغني. ثم عرفنا بعد ذلك أنها إناث. كـنا ثلاثة صبيان، وكنا نعرف أننا نكره الإناث على الرغم من أننا لا نتذكـر أي شيء عن أيامنا الخوالي، عن وضعنا فوق صخرة الموت، أو عـن قـيام النسور بحملنا فوق الجبل. وما كنا نشاهده لا بد أن يبعث علـى الدهـشة، بغـض النظر عما قيل لنا. علاوة على ذلك شعرنا بالقـرف. فهـذه الأجـسام الشاحبة الضخمة التي تتدحرج في الموج بـشقوقها المنفرة، التي شاهدناها أول مرة ولاحظنا خروج شيء صغير دمـوي من أحد شقوق هذه المخلوقات البطيئة الكسولة، لاحظنا أنه شـق صغير، ولم نفطن إلاّ في ما بعد إلى أنه قد يكون واحداً منّا؛ فتىً. أسـرعنا بالعـودة مهـرولين، ومررنا من أمام أُنثى هائلة الحجم في

الجـــروف، وعليها بقع حمراء اللون، ونتوءات مجعدة. ركضنا، وتقيأنا، رجعنا إلى أعلى الجبل، ثم هبطنا إلى منطقتنا.

إن هـــذا الوصـــف الوارد أعلاه هو أقدم شرح نملكه عن كيفية مـــشاهدتنا نحـــن المسوخ للإناث. وعلى الرغم من عدم وجود طريقة لإثبات ذلك، إلاّ أنني أود القول إنها ذكرى شيء ما، موجود في ماضي المتكلم، ولهذه الذكرى خاصية الرواية المروية مراراً وتكراراً، على نحو مـــصقول الحاشـــية، مـــنذ زمن بعيد. ولا يوجد هنا ما يشبه المقطع الغاضـــب الفج (الذي لم أستشهد به بسبب قسوته الانتقامية المتلذذة)، وهو أول ما سمعناه من الإناث.

* * *

ليس من السّهل صنع تاريخ من مثل هذه المادة، لكن ينبغي لي أن أبـــرّر القـــول بـــأن ذكريات الإناث والمسوخ قلّما اختلفت اخـــتلافاً كبيراً. اللهجة كانت مختلفة غالباً، وساد الاعتقاد يوماً ما، بأن الأحداث المتباينة كانت مدونة. لكن، على وجه العموم، عاشت الإناث والمسوخ (أو الفتيان) القصة نفسها. والآن، أبدأ روايتي مرة أخرى.

كـــنَّ يقطنَّ على شاطئ بحر دافئ، فوق جزيرة مترامية الأطراف حقـــاً، إلاّ أنهن لم يذهبن إلى ما هو أبعد من مأواهن الساحلي. كنّ من البحـــر، مخلوقات بحرية، يأكلن السمك وأعشاب البحر، وبعض الثمار الـــتي تنمو على الساحل. وكنَّ يستعملن كهوفاً طويلة، رملية الأرض، إلاّ أنهـــن كـــن يخلدن إلى النوم، على الصخور، بالسهولة نفسها التي يخلدن فيها إلى النوم تحت سقف الكهف. كم مضى على حياتهن هنا؟ هـــنا نـــأتي إلى صعوبة أساسية؛ في الحقيقة، هذه الصعوبة تمثل مشكلة المؤرخ الرئيسية. فالإناث لم يعرفن متى بدأ جنسهن يزحف من المغاور،

لتنشّق الهواء من فوق الصخور، وكنّ لا مباليات، فلم يفكرن في طرح الأسئلة أو الاستفسار. وكانت إجاباتهن - التي جاءت متأخرة جداً - عـــن سؤال مثل: كم عمركن كشعب؟ بسؤال آخر عام ينطوي على فقـــدان الحس: ماذا تقصد؟ لم تكن عقولهن مهيَّأة لطرح الأسئلة، حتى إن كان يدل على اهتمام بسيط. وقد راودهن الاعتقاد - ولو لم يكن ذلك الاعتقاد الذي يدافعن عنه أو يختلفن فيه - بأن سمكة من الأسماك هـــي التي أتت بهن من القمر. متى؟ نظرات طويلة، بطيئة، وحائرة. هن نـــتاج بيض القمر. فقد وضع القمر البيض في البحر، وفقد بعضاً منه، ولهـــذا السبب تراه في بعض الأحيان كبيراً مضيئاً، وفي أحيان أخرى، رفيعاً شاحباً. أما في ما يخص قدرتهن على الإنجاب، فتلك قضية لم تكن موضـــع سؤال منهن. هكذا كانت الأشياء دائماً. ولم يتغير شيء، ولا يمكـــن أن يتغير، وما من شأنه أن يتغير؛ غير أن هذا ليس سوى شعور أكثر مما هو شيء آخر يستطعن تضخيمه أو حتى ذكره. كنّ يعشن في حاضـــر أبدي. منذ متى؟ لا فائدة من السؤال. وعندما ولد أول مسخ نظـــرن إلـــيه على أنه طفلة مشوهة، لا بد من حدوث ذلك في بعض الأحـــيان. ثم ولـــد مسخ آخر، اتخذ شكلاً بالطريقة المرعبة والمضطربة نفـــسها. فوُضِعا فوق صخرة الموت، ولم يقدّمنهما طعاماً للأسماك، ربما بـــسبب إحـــساس خرافي يفيد أن الوحوش قد تنتشر في البحر، وحتى تـــزحف عائـــدة إلى الشاطئ. هل نستطيع استعمال كلمة *خرافية* عند الحديث عن مخلوقات لم تحيَ في أي نمط من أنماط الواقع الذي ندركه؟

أعـــتقد أن ولادة المـــسوخ كانت أول شيء مزعج، ومثير للقلق يحدث لهن.

نعـــم، هناك علامات تدل على خط الماء على جدران كهوفهن، ولا بـــد أن أمواجاً عظيمة قد اندفعت، في وقت ما، إلى أعلى، ولأكثر

مـــن مـــرة، لكن هذه المخلوقات هي مخلوقات بحرية. ولا يوجد سبيل لمعرفة شعورهن عن الموجات الوحشية؛ فأناشيدهن ليست تواريخ، أو روايـــات، بل هي أشبه ما تكون بصوت حادّ مثل صوت الريح عندما تتنهد وتدمدم.

لم يكـــن المسخ الأول هو الذي أيقظهن من حلمهن. فذراع أو ســـاق ملتوية، يد مشوهة، أو حتى مظاهر غير واضحة، أو رأس دميم؛ إنمـــا هـــو شيء محزن، لكنه لا ينطوي على تهديد، كما في الحالة التي يشاهدن فيها طفلاً ثانياً أو ثالثاً أو آخر، وله عضو في مقدمته. يا له من رعب... ثم آخر... ثم آخر... لم يستطعن الانتظار كي يأخذن هؤلاء الأطفال المولودين ولادة غير ملائمة، إلى صخرة الموت...

حسناً. حملتهم النسور بعيداً، وأطعمتهم، وخبّأتهم بعيداً عن الأنظار.

لكن كل شيء تغير. لا بد أن الأمر يشبه تلك الحالة التي تخز فيها بعـــصا أحد المخلوقات الساحلية التائهة، فاقدة الحس، فتتلوى ألماً إثر إحساسها بالعصا.

شـــعرت هذه المجموعة من المخلوقات الحالمة بالصدمات الواحدة تلو الأخرى، وكان هلعهن البائس سبباً في قسوتهن.

ولمـــا بـــات من الواضح أن المسوخ لن تتوقف عن الظهور، ظهر الآن هذا التهديد الجدّي، المتمثل في تناقص أفراد المجموعة باستمرار.

ســـاد الخوف من أن تنجب أُنثى ما مسخاً آخر، بعد أن أنجبت مـــسخاً أولَ. كـــيف سينظر إليها؟ ليس هناك أي سجل في أي مكان يـــشير إلى ضغينة وسط هذه المخلوقات. هل كانت تلك الأُنثى مهابة؟ هل خافت هي نفسها؟ هل ستعمد أُنثى من الإناث اللّواتي أنجبن أكثر من مسخ واحد إلى الإجهاض عندما ترى أنها أصبحت حبلى؟ ليست لدينا أجوبة عن هذه الأسئلة.

كم استغرق ذلك الزمن البدائي؟

ليست هناك إجابة عند الذكريات.

هـــناك طريقة لعدم قياس تلك العملية الطويلة، بل للإحساس بها. فالقبر أو النقرة العميقة، حيث يُضحّى بالفتيات، كانت مملوءة بالعظام، علماً أنها نقرة عميقة. وفي قاع النقرة ثمة صدوع وفتحات تشير إلى أن الـــصخور قد سقطت إلى الخارج، ويمكن من خلالها ملاحظة الطبقات الـــسفلى مـــن العظام، وهي تختلف عن الطبقات العليا، من حيث إنها ليـــست طازجة أو كاملة، بل مكسورة ومتشظية. وفي الجزء الأعمق مـــنها، على أرضية هذه النقرة العظيمة، توجد طبقة من مادة ذات لون يمـــيل إلى البياض، هي رماد العظام. كانت طبقة عميقة. لا بد أن هذه العظام استغرقت وقتاً طويلاً كي تتحول إلى تراب، على الرغم من أن الرياح والمطر المالح هبّا على هذه الحفر والفجوات، فعجّلا في العملية.

لـــيس مـــرجحاً أن هؤلاء الناس، الذين بدوا وكأنهم يعيشون في حلـــم، كانوا منتظمين في تضحياتهم، أو منتظمين في أي شيء. وقلما نخمـــن بأن تكون الدوافع والإيقاعات هي التي تحكم حياتهم. لكن، بما أنه لا توجد وسيلة لإحصاء عدد الهياكل العظمية، أو حتى تقدير دلالة الطـــبقات الـــرملية في ضوء الزمان، فإننا نستطيع القول بكل ثقة إننا نتحدث عن حقب زمنية طويلة؛ عن عصور.

عـــصور من انعدام التغيير، من وجود تلك الأسماك التي تنجرف بفعـــل تـــيارات المد والجزر إلى الساحل، مستجيبةً لتغيرات القمر. ثم حـــدث التغيير الحقيقي، التغيير المحدد، وهو ولادة المشوهين: الفتيان، المسوخ. بداية الضيق، والقلق، والتذمر الانفعالي الذي يبعث على الألم. بداية الوعي بالذات، بالحياة. البداية وحدها، تشبه الوخزة التي لا بد أن تحس بها سمكة تائهة عندما تخزها عصا.

هـــناك جزء من هذه الحكاية لا بد أن يبقى لغزاً. نعم، نعم. لقد بـــذلتُ محـــاولات سابقة لحل اللغز، وقدمتُ حلولاً تميل إلى الخرافات أكثـــر مما تميل إلى الاحتمالات. كيف بدأ مجتمع الذكور؟ لا يمكننا أن نصدق أن النسور أطعمت الأطفال الرضّع لحوماً نيئة مجترّة، ووفرت لها الدفء تحت ريشها. لا، هناك حل، وهذا هو:

كان الأطفال الرضّع المشوهون الذين وضعوا فوق صخرة الموت، طعاماً للنسور؛ لِكَم من الزمن؟ ولا بد أن المسوخ الأوائل كانوا كذلك أيـــضاً. لكـــن بعد ذلك - لا ندري متى - احتفظت الإناث الهاربات بهؤلاء الصبية ليكونوا دمى للتسلية. إننا نعلم أن الأولاد الصغار في سن الـــرابعة، وعلـــى وجـــه التحديد في سن الخامسة والسادسة والسابعة يـــستطيعون تحقيق مآثرهم بصبر، وحتى بقوة التحمل. ثم هرب طفلان أو ثلاثة أو أربعة من الأطفال الصغار من الكهوف الكائنة فوق البحر. أمـــا النسور، التي كانت حقاً كبيرة جداً، أكبر بكثير من النسور التي نعـــرفها، فلـــم تكن تقوى على حمل أطفال بذلك الحجم، حتى لمسافة قـــصيرة جداً. ثم شاهد الأطفال هذه النسور وهي تعود إلى أعشاشها، الـــواقعة وراء صخرة الموت، محلقةً فوق منطقة الوادي، ثم تذهب فوق الجـــبل، لحقوا بها. و لم يتسكع أولئك الأطفال فوق تلك الحافة المرتفعة مـــن الجـــبل، حيث كانت النسور قد بنت أعشاشها، ولا بد أن تلك الطيور العظيمة أصيبت بهلع بالغ. وإلى أسفل الجانب الآخر، وفي عمق الـــوادي، كان هناك نهر عظيم، حيث اقتات الأطفال على الأسماك، إذ كانـــت الأسمـــاك متوفرة هناك، وإن كانت مختلفة. وقد ظلوا يتمتعون بالـــدفء في الكهـــوف، إلاّ أنهم لا يزالون أطفالاً صغاراً، ولا بد أن الوادي الذي وجدوا أنفسهم فيه بدا عظيماً، مترامي الأطراف. كيف لا نـــستطيع التعبير عن إعجابنا بجرأتهم وذكائهم؟ كان النهر عريضاً،

عميقاً، مندفعاً بسرعة كبيرة، لكنهم، على الرغم من ذلك، تعين عليهم اصطياد السمك فيه. كيف كان ملاذهم؟ لم يكن من الممكن لهم على الفـــور تشييد الأكواخ والملاجئ؛ خاصّة أنّهم لم يشاهدوا من قبل ما يـــشبهها. لقـــد شاهدوا أعشاش النسور، وجذبوا العيدان، ثم العيدان الأكبر حجماً، وصنعوا كومة منها، وزحفوا إليها عند جنح الظلام. ثم ازدادوا حجمـــاً، وقوة، وبدأوا يقوّسون أغصان الأشجار ليصنعوا منها ملاجئ لهم. كان الطقس ملائماً، لذا لم يضطروا إلى الخوف من البرد. لكـــن دعونا لا ننسى الوحوش في الغابات التي كانت تقف على مقربة فـــوق كـــل جانـــب مـــن جانبـــي النهر العظيم. أما كيف نجوا من الوحوش، فتلك قضية تنطوي على أعجوبة. هل ساعدت قوة ما أولئك الصغار؟ ...

يجـــب علينا أن نتذكر أن الذكور الصغار الأوائل تعرضوا إلى تشويه بالـــغ، لا أريـــد الخوض فيه، إذ أُسيء التصرف بأعضائهم التناسلية، و لم يعـــرفوا معـــنى الرقة أو رعاية الأم. لقد أطعمتهم أمهاتهم، بناءً على أوامر النـــساء المـــسنّات، لكن على مضض، ومن دون أن يأخذوا كفايتهم من الطعـــام. يمكنـــنا أن نخفف من فظاعة هذه الرواية بأن نتخيل أُنثى شعرت بعاطفـــة تجاه طفلها غير الشرعي، إلاّ أنها كانت مضطرة إلى إخفاء حقيقة مـــشاعرها، ولا بـــد أن أي عـــناية أو عناق كان سطحياً. كانوا أقوياء، شـــديدين، وماهـــرين في تجنب إثارة الاهتمام؛ إنّهم أطفال صغار، نحيلو البنـــية، لكـــنهم جسورون، لا يعرفون الخوف، لا يحتمل أنهم عاشوا بعد الإناث، لكنهم على الأقل كانوا بعيداً عن معذباتهم.

ثم حـــدث شـــيء مـــدهش. أتت النسور إليهم ببعض الأطفال الصغار، تركوا فوق صخرة الموت، وكانوا أطفالاً جائعين، يبكون، إلاّ أنهم لم يتعرضوا للتشويه. لكن كيف أطعمهم الأولاد الصغار؟

ففي الغابات، لم تكن هناك مجرد حيوانات برية مفترسة، بل كان هـــناك حـــيوانات ودودة أيضاً. وشاهد الأولاد الصغار غزالاً، ومعه غـــزلاناً صغاراً. ولعل ذلك هو ما علمهم أول درس في الحبّ الأبوي عندما راقبوا الغزال وصغاره. فزحفوا إلى مكان أقرب، وبدأوا يراقبون. كانـــت الغزالة واقفة في مكانها، لا تعرف الوجل: إذ لم يكن هناك بعد أي سبب يدفع أي حيوان إلى الخوف من بني جنسنا. يضاف إلى ذلك، كان ذلك مجرد طفل، رقيق الحال. ووقف الصبـــي يداعب فرو الغزالة الـــناعم فـــيما أخذ الغزال الصغير يضرب ساقيه أو يلعقهما، ثم شرع يرضـــع. وهنا جثم الصبـــي وفعل الشيء نفسه. وقفت الغزالة هناك تراقب، ثم استدارت ولعقت الصبـــي. وهكذا بدأت الألفة بين الأولاد والغزالة.

ثمـــة أغنية تقول: "نحن أطفال الغزالة"، إلاّ أنها ليست أغنية مؤثرة كتلك الأغاني عن النسور.

عـــندما صرخ الأطفال الرضّع الجدد، وعلم الأولاد الصغار أنه لا بد من إطعامهم، فلم يكن هناك شيء طبيعي أكثر من أن يؤخذ هؤلاء الأطفـــال إلى الغزالة، سرعان ما تعلمت كيف تستلقي على الأرض، والأطفـــال الصغار بجانبها. ما الذي حصلت عليه الغزالة لقاء ذلك؟ في وســـعنا أن نخمن. إنني أعتقد أن الحيوانات أكثر ذكاءً مما نتخيل. ففي كـــل الأحوال، أرضعت ذئبة رومولوس وريموس. وتمثالها مع الطفلين الرضـــيعين يحظـــى بكل حبنا. لعل بداية تلك الرابطة تمثلت في حاجة الأطفـــال الصغار الذين كانوا يموتون بسبب الافتقار إلى الشيء الكثير الذي كانت تملكه الغزالة، وتملكه الذئبة. فالحاجة تستدعي الإجابة.

لكـــن ما الذي دفع بالنسور إلى إنقاذ الأطفال الرضّع وحملهم إلى الجبل حيث يوجد الأولاد بدلاً من افتراسهم؟ هناك سبب واحد، وهو

أن الأولاد كانـــوا يصطادون الأسماك من أجل النسور، ويضعونها فوق العـــشب، وعـــندها تأتي النسور، بعد أن تكون قد ألقت بحملها من الأطفال الرضّع الباكين، وتقف فوق السمك، وهو سمك هائل، وتبدأ بالأكـــل، وفي أغلـــب الأحيان، كانت تأتي للطعام بين وجبات إلقاء الأطفـــال، أو كانـــت تأخذ سمكة أو جزءاً من سمكة - إذ كان النهر يحتشد بأسماك كبيرة - إلى أعلى الجبل من أجل صغارها.

ولم يكـــن أفراد الموجة الثانية من المسوخ أو الفتيان محرومين من الأم، بـــل كانت غزالة رقيقة تلعقهم وتداعبهم، وكان هؤلاء يداعبون صغار الغزالة كأنهم هم أيضاً صغارها.

كـــان يتعين على الأطفال الرضّع والغزلان الاستلقاء على الأرض معـــاً. ولم تكـــن هناك آنذاك أي أوعية أو أوانٍ؛ لكن على الرغم من ذلـــك، سرعان ما أصبحت صدفات النهر أوانيً للأكل والشرب. ولم يكن النهر ليحتوي على كمية كبيرة من الأعشاب كالتي يحتوي عليها البحر. غير أن هؤلاء الصبيان كبروا وأصبحوا أقوياء، ولم يكن شاطئ البحـــر بعيداً بالنسبة إليهم، وهم الصبيان الأشداء. كان هذا الشاطئ على مسافة من شاطئ الإناث، لكنه يتداخل معه. ولم يعرف الأولاد، منذ زمن بعيد، أنهم لو ساروا في اتجاه واحد على امتداد شواطئهم - إذ كانـــت لهـــم شـــواطئ، بينما كانت للإناث صخور ملساء دافئة - لأصبحوا قبالة الإناث اللواتي عذَّبنهم.

أحضروا من البحر أنواعاً عديدة من الأعشاب، ومن الحيوانات الـــصدفية، وبعـــض الأسماك البحرية، وهكذا تغذى الأطفال الجدد تغذيـــة جـــيدة، حالما تركوا شرب الحليب. وعُرضت على الغزلان الودودة أعشاب، راقتها، مع قشور السمك والحيوانات الصدفية، إلاّ أنها لم ترقها.

لكن لا بد أن الصبيان وجدوا صعوبة في إطعام الأطفال الصغار، حتى لو كان ذلك بمساعدة الغزلان. فقد كانت النسور تأتي بأعداد أخرى من المسوخ الذين لم يكونوا مشوهين هذه المرة. كانت النسور تتربع فوق صخور شاهقة، تستطيع أن تشاهد من فوقها الإناث وصخورها، وحالما يظهر طفل صغير جديد، تسرع نحوه وتنقذه وتأتي به إلى أعلى الجبل.

إننا نعتقد أن بعض الفتيان، ظلوا مختبئين في الكهوف. لكن ليس سهلاً الإبقاء على صبيان أشداء سجناء، إلاّ إذا كانوا مقيدين. وكان بعض الفتيان مقيدين، إلاّ أنهم كانوا يحدثون ضجة هائلة، يصرخون ويزعقون، حتى إنهم عندما أطلقوا سيقانهم للريح، وهربوا، أرشدتهم الطيور الضخمة إلى الطريق، فشعرت الإناث المسنّات بالارتياح. ولم يعد لديهن صبيان صغار يحتفظن بهم كدمى، وعادت الإناث إلى عاداتهن القديمة: فأي طفل لم تلتقطه النسور وتأخذه بعيداً، حال خروجه من الرحم، يوضع على صخرة الموت لتأخذه النسور.

سرعان ما أصبحت هناك جماعة من ذكور صغار، لا نعرف لهم عدداً، فالسجلات المحفوظة لا تشير إلى إحصائيات دقيقة. كان الوقت يمر، وأصبح أول القادمين من أولئك الأطفال شباناً أقوياء الآن، وتضايقوا بأسئلة كثيرة تخص أجزاءً من أجسادهم. نعم. لقد أدركوا الآن أن هدف العضو الذكري هو التبول.

لم يتوقع الذكور أن يبقوا على قيد الحياة حتى يكبروا، بخاصة وهم ينزلون إلى ذلك النهر الخطر ويخرجون منه، كما أن الحيوانات البرية كانت شديدة القرب من الأشجار. توفي أحدهم، بسبب مرض، أو بسبب تعرّضه لحادث ما، لكن مؤرخي السجلات لم يحددوا سبب الوفاة. وكل ما أشاروا إليه هو أن هذه الوفاة تطرح سؤالاً وهو أنهم

أصبحوا الآن يتوقعون الموت، فكيف إذاً سيتم التعويض عنهم؟ للإناث طاقة على الإنجاب، أما هم فليست لديهم تلك الطاقة.

أما الفتيان – وأنا يروقني هذا التعبير أكثر من تعبير الوحوش، لأنه دقيق على الأقل – فقد بدأوا يقلقون بشأن توفّر الأطفال الذين تأتي بهم النسور. لنفترض أن النسور قررت ألاّ تأتي بالأطفال إلى فوق الجبل؟ ما إن يطـــرح هذا السؤال حتى يبقى ماثلاً دوماً. هناك، على الشاطئ – وهـــو ما تذكره بعض الأولاد جيداً – كانت الإناث تقوم بالإنجاب. فلـــولا الإنـــاث، لما كان هناك قادمون جدد على مخالب النسور، ولن يكون هناك فتيان.

إلى متى استمرت تلك الحقبة الخاصة بالشك والاستفسار؟ ليست لدينا أي فكرة. كانت الأغاني التي أنشدها الرجال الأوائل تواريخ من نـــوع مـــا. فقد أنشدوا للوقت الذي أمضوه مع الإناث، كما وثّقت حـــالات القـــسوة. وكانت هناك أغانٍ تحكي قصة الهروب من الألم والـــرعب إلى هـــذا الـــوادي حيث أصبحت فيه النسور صديقة لهم، وأعطـــتهم الغزلان الحليب، وكان هناك سمك في النهر والبحر. وكان لـــديهم مأوى أفضل من أكوام العيدان الأولى. كانوا شجعاناً وأقوياء، موفـــوري الـــصحة والعافية، وأعدادهم آخذة بالازدياد... إلاّ أنهم لا يملكون القدرة على منح الحياة.

كانـــوا ثائـــرين، وقلقـــين، أولئك الذكور الأوائل، أجدادنا الأبعدون جداً، وكانت طبيعتهم تأخذهم إلى مسافات بعيدة داخل الغابات، وبدأوا يعرفون، على الأقل، جزءاً من جزيرتهم، وهو جزء كـــبير، على الرغم من أنه لم تكن لديهم فكرة عنه. وجدوا غابات عظـــيمة، ذات هواء طلق، وأنهاراً عميقة، سريعة الجريان، ووجدوا روافدها، والجداول الصغيرة، والتلال البهيجة والسواحل الآمنة؛ هذا

هو الشيء الذي وجده أولئك المستكشفون الأوائل. تعلموا أساليب الحيوانات البرية، وكيفية تجنبها، ثم سرعان ما تعلموا كيف يصطادونها من أجل الغذاء. لكنهم لم يقتلوا الغزلان، فهي صديقتهم، وقد ارتبطت بالرقة والحنان، والإطعام. وأدركوا أنهم أفضل حالاً، وأحسن طعاماً، ولديهم مساحة يتحركون فيها أكبر من مساحة الإناث اللواتي لم يتركن ساحلهن.

لكن كانت تعذبهم دوماً متطلبات رجولتهم، وإن لم يعرفوا ما الذي كانوا يتوقون إليه. كانت كل الحيل والوسائل المهدئة لجوعهم الجنسي ملكهم، بما فيها اللجوء إلى بعض الحيوانات؛ باستثناء الغزلان، ولم يتمكنوا من دفع أنفسهم إلى استخدام من وهبهم الحليب، أي أمهاتهم، لكنهم لم يستعملوا كلمة أم أو أب. كيف يمكنهم ذلك، فهم لم يعرفوا أن هناك أو يمكن أن يكون هناك آباء. ولم تكن الغزلان آباءهم، على الرغم من حبهم لها. هل عرفوا كلمة حبّ، أو فكّروا فيها؟ لا أعتقد ذلك.

غالباً ما فكّروا، بإلحاح متزايد، وحبّ استطلاع، بالإناث، اللواتي كنَّ يعشن تماماً من دون تغيير، كما في السابق، وعلى مسافة ليست بعيدة جداً، فالمسافة التي كانت صعبة على الصبيان الصغار، باتت الآن شيئاً لا يذكر. أما بالنسبة إلى الإناث، فإن السير باتجاه تلال النسور كان مستحيلاً، لأنهن لم يفكرن في ذلك البتة. إن فكرة السير إلى هناك، وتسلق الجبل، ومشاهدة ما يدور على الجانب الآخر، لم تخطر ببالهن قط، إذ لم يعرفن أن هناك على الجانب الآخر من الجبل، الوادي المدهش الذي يعيش فيه المسوخ. ولم يخطر ببالهن أيضاً إثارة الأسئلة: فمن غاب عن العين غاب عن القلب، ولم يكن هناك مثال أوضح على ذلك.

لكن على الرغم من ذلك، كانت الشكوك والمخاوف تملأهن رعباً. فأعدادهن آخذة بالانحسار سريعاً، و لم تكن أعدادهن كبيرة أصلاً، وهو ما اهـــتم بـــه ذلـــك المنظم الداخلي الغريزي الذي يتمتعن به. كانت بعض الكهـــوف مملوءة إلى النصف، لكن سرعان ما غدا بعضها فارغاً. و لم تكن هـــناك إلاّ ســـتة كهـــوف مشغولة، وبدأت الفروق القديمة بين صائدات الـــسمك وجامعـــات أعـــشاب البحر، وغيرها تفقد ملامحها. وكانت المولودات الإناث يحظين بالرعاية والرقابة، وكن نفيسات، بينما كان المواليد الذكور يحظون بكراهية أكثر، لأن الأفضل عندهن لو كانوا وُلِدوا إناثاً.

كانـــت هناك فتاتان صغيرتان مستلقيتان نصفهما في الماء، ونصفهما الآخـــر علـــى اليابـــسة، فوق صخرة مفضلة، تراقبان مخلوقين بحريين يتزاوجان، فتنطلق مجموعة من البويضات. شعرت الفتاتان أنهما حصلتا علـــى معلـــومة - ربما من السمكة الكبيرة نفسها - فذهبتا إلى النساء المسنّات وأخبرتاهن بما شاهدن وبما يعتقدن أنها الحقيقة الآن.

غير أنهما وجدتا نظرة هادئة بطيئة من عيون لم تقلقها الأفكار، حتى لو عرفن القلق نفسه، وبغض النظر عن مدى إصرار الإناث الشابات على القـــول إن المـــسوخ قد تكون لهم فائدة ترجى، فإن ما من شيء يمكنه أن يقنع المسنّات، إن كن سمعن على نحو ملائم الذي كان يقال لهن.

في المرة التالية التي ولد فيها مسخ اختطفته هاتان الفتاتان من أمه، ووفرتا له الحماية من النسور، وتفحصتا ذلك الشيء القبيح الذي جعل مـــنه مسخاً، ووجدتا أن عضوه الذكوري لا يختلف عما شاهدتاه في الأسمـــاك. وعـــندما فركتاه، تصلّب، لكن لم تظهر منه أي بويضات. صـــرخ الطفل، فما كان من النسر، الرابض وراء إحدى الصخور، إلاّ أن حلّق عالياً، وضرب بجناحيه العظيمين وجهي الفتاتين، وخطف بكل رقة الطفل وحمله بعيداً. لكنه ترك من ورائه أسئلة وشكوكاً.

إذاً كانـــت الجماعـــتان تفكر كل واحدة منهما بالأخرى، على الرغم من أن الإناث لم يحلمن حتى بالسير أمام صخرة الموت والابتعاد صوب الجبل وتسلقه.

أمـــا بخصوص الأولاد الصغار، فكانوا يتجولون في كل يوم في أماكن قصية من ذلك الجزء من جزيرتهم، غير أن الخوف من الإناث دفعهـــم إلى الابتعاد عن تلك الصخور، والكهوف التي سبق لهم أن هـــربوا مـــنها. صـــحيح أن بعضهم ذهب إلى الجبل حيث توجد النـــسور، وحـــدّق إلى الساحل حيث يمكن مشاهدة طفح من بقع ملـــوثة صـــغيرة على الصخور السوداء؛ الإناث، إذ كن، كعادتهنّ، يستلقين نصفهن في الماء والنصف الثاني خارج الماء. لكن الأولاد لم يذهـــبوا إلى أســـفل ذلـــك الجزء من الجبل، لأنهم كانوا في خوف شديد.

ركـــض بعض هؤلاء الأولاد على امتداد التلال الصخرية المنتشرة وراء الـــساحل، حـــيث كان في وسعهم، إن واصلوا السير، مشاهدة الإناث، إلاّ أنهم لم يواصلوا، بل كانوا يتوقفون دائماً، عند مسافة قريبة تكفي لأن يروا منها ما تفعله الإناث. لكنهم وجدوهن لا يفعلن الشيء الكثير، سوى التكاسل والتثاؤب والسباحة قليلاً، ونفض رؤوسهن من الماء، لينـــزلن بعد ذلك للسباحة ثانية.

* * *

[الـــشعر الطـــويل من ابتكاري، استناداً إلى إشارة إلى الشعر الطويل منذ عصور تلت ذلك الزمان. لعل الإناث الأوليات كنّ ذوات أجـــساد ملـــساء كعجـــول البحـــر، لكنهن بدأن بتطويل شعورهنّ، التزاماً لأمر ما، لم ينتبهن له. مؤرخ]

* * *

قـــضت الإناث طوال اليوم، بل الأيام، والأيام العديدة، على هذا النحو لا يفعلن شيئاً، كما رآهن الأولاد، إلى أن كَلَّ هؤلاء من المراقبة، لهـــذا عـــادوا في بعـــض الأحيان إلى أماكنهم، يجذبهم على نحو عنيد جوعهم. وفي يوم ما، شاهدوا أُنثى صغيرة، تسير وحيدة قرب الأمواج على مسافة قريبة منهم. توقفت وأولت ظهرها مراقبيها، وأحنت رأسها ووضـــعته بين يديها، وطفقت تحدق إلى ما وراء الموج. إن وصف هذه الأنثـــى، الوحيدة - لم تكن الإناث راغبات في البقاء وحيدات - التي تتـــسكع على مهل، على امتداد الساحل، يُوحي أنها واحدة من أولئك الإناث الجديدات اللواتي يختمر فيهن تطور ما.

في ذلـــك الـــنهار، كان أربعة صبيان (أو مسوخ) فوق الصخور العالـــية. وكان قد دفعهم حافز إلى ذلك المكان، وشرعوا بالزحف إلى الأســـفل وراءهـــا، بكل هدوء، لا يعرفون حقاً ماذا يريدون. غير أن قـــربها، وجوعهم، تغلب على خوفهم منها، فركضوا إلى الأمام، وفي لحظـــة واحدة، جعلوا ذراعيها تمتدان إلى جانبيها، وأسرعوا بها عائدين إلى واديهم. أطلقت صيحات غاضبة قصيرة، صوتها يخنقه الهلع إذ لم تمرّ بحالة ذعر أو رعب من قبل، أو ربما لم يسبق لها أن صرخت أو زعقت. صـــدْمَتُها دفعَـــتْها إلى الرضوخ. صحيح أنها كانت أطول قامة، وأكبر حجماً، إلاّ أنها لم تكن أقوى من أربعة أولاد أشداء، مفتولي العضلات. اســـتمروا في الـــركض، وهم يصيحون صيحات النصر، هي صيحات خوف أيضاً. فها هي أُنثى أصبحت بحوزتهم، وكان كل ما تعلموه هو الخـــوف من الإناث. ركضوا بها مسافة لا بأس بها، من ذلك الجزء من الـــشاطئ حـــيث وجدوها، وعلى امتداد خط الشاطئ، صعوداً فوق الـــتلال الـــصخرية، حيث يجري النهر العظيم، قبل أن يصب فواراً في الـــبحار. اتجهـــوا إلى أعلى حافة النهر، وهم يركضون. بدأت تصرخ

صرخات خشنة بصوتها الذي لم تستخدمه من قبل، فما كان منهم إلاّ أن وضعوا حفنة من أعشاب البحر في فمها.

بعد أن أعياها الركض، وكادت تختنق بالأعشاب البحرية، تأوهت وشهقت، لكنهم كانوا قد وصلوا أخيراً إلى الوادي، حيث يعيش الذكور. كانوا على الجهة المقابلة من النهر، فعبروا سباحة معها من نقطة كان الموج فيها أقل عنفاً. غير أن تلك السباحة لم تكن أمراً صعباً بالنسبة لفتاة اعتادت أن تسبح وتلعب في الماء منذ ولادتها. ثم وجدت نفسها واقفة وسط مجموعة كبيرة من المسوخ، سبق أن رأتهم أطفالاً، مشوهين، أو في اللحظات القليلة الفاصلة بين الولادة والخطف من قبل النسور. كانوا بأعمار متباينة، كان بعضهم أطفالاً، وبعضهم الآخر تجاوزوا خريف العمر، وهؤلاء هم الذين أصيبوا بأكثر التشوهات عندما كانوا صغاراً. كانوا عراة كلهم، وعندما شاهدتهم على ذلك النحو بصقت الأعشاب من فمها، وصرخت، كانت صرخة حقيقية هذه المرة، كأنها كانت معتادة عليها طوال حياتها. غير أن أحد الصبيان الذين أسروها وضع الأعشاب في فمها ثانية، بينما أوثق آخر يديها بقطع من الأعشاب، على نحو أخرق وبطيء، لأن هذه هي المرة الأولى التي توثق فيها الأيدي، ولم يكن هناك في ما مضى أسير أو سجين.

الآن انطلقت الغرائز التي تراوحت بين غرائز حرة وطليقة، غير مدركة غالباً، وسط هذه الجموع من الذكور. وسرعان ما طرح أحد الذين أسروها الفتاة أرضاً واغتصبها، لينهض ويحل محله آخر.

استمرت عملية الاغتصاب الجماعي، وكانوا بذلك يطفئون ظمأهم، وبدوا غير قادرين على إشباع شهواتهم قط. وكان بعض الصبيان قد ذهبوا إلى الغابة لجلب بعض الثمار، وعندما رجعوا

وشـــاهدوا مـــا يحدث، أدركوا بسرعة طبيعة ما يجري، فانضموا إلى رفـــاقهم. أخـــيراً توقفت الفتاة عن محاولة التملص، وعن الرفس وعن الـــتأوه، وظلـــت ساكنة، ففهموا، لكن ليس على الفور، أنها توفيت، وأدركـــوا بعدئذ، أيضاً وليس على الفور، أنهم قتلوها. فتفرقوا، يحدّق كل واحد منهم إلى الآخر، وهم يشعرون بالعار، على الرغم من أنهم لا يعـــرفون ما هو ذلك الشعور، وتركوها في مكانها. كانت الليلة طويلة ومرعبة، فشعروا بالقرف مما حدث. وإذا كانت الأسئلة التي تعذبهم في بعـــض الحـــالات لـــسنوات طوال، وإحساسهم بالراحة والاسترخاء حـــصلت علـــى إجابـــة، فـــإنّ تهدئة شهوتهم، وإحساسهم بالراحة، والاسترخاء قد قضوا عليها، لكنهم لم يقضوا عليها عمداً.

تحـــت نـــور الصباح كانت الفتاة لا تزال مستلقية على العشب، قـــرب النهـــر؛ كانت قذرة، ملطخة، تفوح منها رائحة كريهة، فيما عيناها الواسعتان الفارغتان توجهان الاهتمام إليهم.

أرادوا نقلها إلى حيث يمكن للنسور أن تعثر عليها. لكن شيئاً ما حال دون ذلك.

أخيراً، حملوا جسدها القذر المتيبس إلى ضفة النهر، حيث يجري الماء سريعاً، ودفعوها فيه، وراقبوها وهي تنحدر مع التيار صوب البحر.

كانـــت هذه أول جريمة يرتكبها جنسنا (إنني أستثني هنا عرض الرضّـــع المقعـــدين حديثي الولادة)، وعلمهم ذلك الفعل الأشياء التي يقدرون عليها، وعرفوا كيف يمكن أن تكون طبيعتهم.

لم تكـــن هـــذه الجريمة مدونة في رواياتهم لتاريخهم، وحاولوا أن ينـــسوها، وفي نهاية المطاف أفلحوا في ذلك، شأنهم شأن الإناث اللّواتي تذكـــرن كيف عذبن الأطفال واضطهدنهم، فخففن من غلواء الرواية، ثم اخترن أن يصدقن أنهن لم يلحقن الأذى إلا بمسخ واحد فقط.

إنـــنا ما كنا لنعلم بهذه الجريمة، لو لم يصبح رجل عجوز محتضر مهووســـاً بذكرياتهم، بذلك اليوم الفظيع الذي شهد عملية الاغتصاب والقتل، منذ زمن بعيد - فقد كان طفلاً يومذاك - ولم يستطع أن يمنع نفـــسه من تكرار وترديد ما كان يعرفه. لم يكن سهلاً تجاهل ما كان يـــردّده، فحفظـــه بعض الصغار، الذين استمعوا إلى الرواية، وانتابهم الـــرعب، وشعروا بالحزن لما حدث؛ الحكاية التي لم يستطيعوا نسيانها، وعـــندما شاخوا راحوا يسردونها على الصغار. أعتقد أن هذه الحكاية تمـــثل بدايـــة الحَوْليّات الشفاهية الخاصة بالفتيان، وهي ذكرياتهم التي ظهرت أولاً إلى الوجود مصادفة، وأصبحت ذات قيمة، فحفظت. لقد احـــتفظت الإناث بسجل للأحداث التاريخية - ولا أستطيع هنا إرغام نفـــسي علـــى تدوين كل ذلك هنا - كما أن الذكور احتفظوا أيضاً بسجل لتلك الأحداث، غير أنني أدوّن هنا ما كان معروفاً هناك.

لاحظت الإناث أن هناك أُنثى واحدة مفقودة. فتساءلن وتضايقن بطـــريقتهن الكـــسولة الهادئـــة، وأشرن إلى غيابها، ونظرن إن كانت سقطت في إحدى المساحات المائية القريبة.

عندما هدأ حزن الفتيان، ظل هناك شك لم يهدأ. فعلى الرغم من أن الفتاة القتيلة لم تتمكن من التفوه بأي كلام متماسك، إذ علموا من الكلمـــات التي ردّدتها أن اللغة التي يتكلمون بها أفقر بكثير من لغتها، ووجـــدوا، بعـــد أن اضطروا إلى القلق بشأن السؤال، أن هناك سبباً، وأدركوا أخيراً أن ما كانوا يتفوهون به إنما تطور عن كلام الصغار من الأطفال الذين قاموا بأول بحث شجاع فوق جبل النسور. كانت لغتهم لغـــة أطفـــال، عالية الدرجة، تشبه لغة الأطفال. نعم، لديهم كلمات جديـــدة، لـــلأدوات والأواني التي كانوا قد ابتكروها، إلا أنهم جميعاً تحدثوا وكأنهم أطفال.

كـــيف السبيل يا ترى إلى أن يتعلموا ما هو أكثر وأفضل؟ كان رعـــبهم من الإناث، وخوفهم من أنفسهم، ومما ارتكبوه قد جعل من المـــستحيل علـــيهم العودة إلى الشاطئ ثانية، والعثور على أُنثى ثانية، والتعلم منها.

أين سيتعلمون؟

هـــناك أُنثى هي التي أقدمت على عمل ما. وعلينا أولاً أن نسأل عن سبب حدوث ذلك. بعد مضي زمن طويل، يستحيل قياس طوله، وعندما لم تكن هناك لدى أي أُنثى الرغبة في ترك ساحل الأمومة، فإن أُنثـــى واحدة تركته، إذ سارت صَوب الجبل، حيث تعرف أن النسور كانت قد أخذت المسوخ إلى هناك، وتسلقته، ومرت بأعشاش النسور، ووقفـــت هـــناك في الأعالي، وألقت نظرة إلى الأسفل ورأت... نحن نعرف ما رأت، لأن ذلك مدوّن.

رأت في أسفل الوادي مجموعة من المسوخ، تمارس نشاطاً لم تدرك كـــنهه، أو عند حافة النهر العظيم، ولم تكن قد شاهدت نهراً من قبل، بـــل رأت مجاري أنهار صغيرة، تنحدر من أسفل الجروف، اهتزت من شدة الهلع، وكادت تطلق ساقيها للريح، وتعود إلى شاطئها. لم تتمكن مـــن مكانهـــا مـــن رؤية ما كانت تفعله تلك المخلوقات، التي كانت أصواتها تصل إلى مسامعها، تتحدث مثلما تتحدث الإناث، لكن بنغمة طفولية عالية الوتيرة. ما سبب وجودها هناك على أي حال؟ لا نعرف. هـــناك شـــيء ما في محتوى الحياة ومادتها، جرت استثارته. لكن بأي شيء؟ على امتداد عصور - إننا نستخدم هذا التعبير المراوغ للزمن - لم يـــرغب أحد في التجوال إلى المكان الذي تستطيع منه أن تشاهد ما يجـــري مـــن تحت، تماماً مثل إحدى الإناث التي بدأت قبل زمن ليس بالطـــويل، ولـــسبب لا يدرين كنهه، بإنجاب هؤلاء المسوخ. وهكذا

بدأت أُنثى بفعل ما لم تفعله واحدة من بني جنسها من قبل. إذ تركت مكانها وهي منجذبة إلى شيء ما، ليس جزءاً من طبيعة الإناث المسنّات.

سارت مسافة أبعد، وهي تهبط سفح الجبل، ثم توقفت. ما هذه الأشياء المدببة الماثلة هناك؟ فكّرت أول الأمر أنها ربما مخلوقات حية، لكنها كانت ملاجئ من قصب أنشأها الفتيان، وكان ذلك القصب من النوع الذي ينمو بكثافة في المستنقع الذي يشكل بداية نهر، ليس ببعيد عن ذلك المكان. كان القصب شاحب اللون، وكان يلمع تحت أشعة الشمس، وشاهدت الفتيان يجلسون مسترخين عند مداخل تلك الملاجئ.

حثت نفسها على المضي إلى الأمام، لكن ببطء، غير أنها لم تكن تعرف ماذا تفعل كي تشير إلى أنها لا تقصد إلحاق أي أذى. هذه هي المخلوقات التي عذبتها وآذتها، وشوهتها الإناث. بل هي نفسها أدت دوراً في ذلك. لكنهم شاهدوها الآن، وأخذوا يتجمعون حولها، ويقفون أمامها وجها لوجه. كانت ترى وجوههم وقد اشرأبت إلى الأعلى محدقة، ملؤها الخوف. استمرت في هبوطها إلى الأسفل.

كان هناك نسران عظيمان يتربعان بعيداً عن الفتيان المحتشدين، وكانا طويلين جداً، بقدر طولها. كان كل منهما يشاكس سمكة ضخمة. وبينما كانت تراقب المشهد، خرج ولد من النهر ومعه سمكة، وضعها أمام النسرين، ولما رآها هرع إلى رفاقه.

لم يهددوها، إلاّ أنهم ابتسموا لها ابتسامة تنطوي على قلق، غير متيقنين مثلها تماماً. أما هي فوقفت أمامهم، لا تدري ما تفعل، بينما ظلوا ينظرون إليها.

كانت تحدق إلى الجزء الأمامي من أجسادهم، حيث تبرز أعضاؤهم. ولم يكن يبدو عليهم الذعر الآن. لقد شاهدت من قبل

مسوخاً صغيرة فيها تلك الانتفاخات البارزة على أجسادهم، وهي انتفاخات غير مألوفة بالنسبة لحجمها.

رأت أن بعض كبار السن كانوا مشوهين، بخلاف الآخرين، و لم تعرف، بدايةً، أن هؤلاء هم ضحايا الإناث، كبروا وظلوا مشوهين.

كانوا قد جذبوا جذع شجرة، أو ربما تراه جذعاً سقط، فجلست عليه بعد أن تغلب عليها التعب، فالمسافة التي قطعتها طويلة جداً على أُنثى من الإناث كي تقطعها. وفيما هي جالسة، تقدموا نحوها، وتجمعوا حولها، يحدقون إليها، والى وسطها الذي كان عارياً و لم تكن هناك أي دماء تنساب منه. كانت تستطيع مشاهدة كل ما يشير إلى اختلافاتهم عنها. أما هم فكانوا يشاهدون القليل الذي يجمعهم بها.

جلس أحد البالغين قربها فوق جذع الشجرة، يحدق دوماً إلى وجهها، ونهديها، والى وسطها.

يمكن للآباء الذين يهتمون اهتماماً كافياً بتطور أولادهم أن يصفوا ما كان يحدث الآن. لقد شاهدوا كل شيء.

وقف الطفلان الصغيران عاريين، إمّا لأن استحمامهما بات وشيكاً، أو لتغيير ثيابهما، ينظر أحدهما إلى الآخر. ليست هذه هي المرة الأولى التي يرى فيها أخ وأخته نفسيهما عاريين. لكن لسبب ما، انتبه كل واحد منهما للاختلافات القائمة بينهما.

سألت الفتاة بشيء من الكدر:

- لماذا تملك ذلك الشيء؟

لكن علينا أن نتخيل أن لهجتهما كانت تنطوي على ما يشير إلى أي شيء بعيد في البلوغ المستقبلي.

يعلن الطفل:

- لأنني صبـــي.

لكن ما يقوله يشير إلى سلسلة من المواقف، والحركات التي تبدو مـــرتبطة بلعبة من الألعاب. وكان يعقد حاجبيه طوال الوقت على نحو عدائي، لا باتجاه أخته، بل ربما باتجاه عدو متخيل من الذكور.

عندما شاهدت الفتاة الصغيرة هذه الإنجازات، وهي التي لا يمكن أن تتحقق لها، عقدت حاجبيها، ونظرت إلى أسفل وسطها وقالت:

- إنني أجمل منك.

غـــير أن الفـــتى عقد حاجبيه، ونظر إلى ذلك الجزء من جسدها الـــذي كانـــت تنظر إليه، والذي لم يكن في وسع أحد أن يقول إنه يشكل تهديداً، ثم أخذ يداعب جسده.

قالت الفتاة الصغيرة:

- إنني أحب جسدي أكثر مما أحبك.

...

هناك فتاتان من العبيد في الحجرة تعملان عمل المربيات، تراقبان هذه المـــسرحية، وتبتـــسمان ابتسامة دنيوية تنطوي على معرفة، الأولى خاصة بـــزوج، والثانية خاصّة بحبيب. وبينما الفتى يمارس لعبته مع الفتاة، تبادلت هاتـــان العبدتان ما يمكن أن تتوقعه من ابتسامة ذكر، وأبدت كلتاهما رغبة في ستر الفتاة التي كانت تملك غشاء بكارة لا بد من حمايته.

قالت إحداهما وهي تؤدي طقساً يقترب من المسرحية:

- ستغضب أمك لو رأتك.

لم يحـــاولا إبعاد الفتاة عن الفتى، غير أن الفتى جذب شعر الفتاة، وقـــبل وجنـــتها وهـــو خجول. أما الفتاة، فقد عانقته، فيما ابتسمت العبدتان، ابتسامات مناسبة تعبر عن رقة ما تشاهدانه.

كانت الفتاة في الخامسة، وكان الفتى أصغر منها قليلاً. ولم يكن من شأن الأولاد إنكار هذا العمل مرة أخرى في السنة المقبلة على سبيل المثال.

ستنضوي الفتاة في ألعاب الأمومة والتغذية، في حين أنه عضو في جماعة المحاربين؛ جندي من الجنود.

* * *

لعلكم تعتقدون أنني أكتب عن هذه المشاهد بثقة أكبر مما ينبغي. غير أنني أشعر بثقة تجاهها، أكبر مما أشعر تجاه غيرها من المشاهد الكثيرة التي أحاول وصفها، ولا بد لي الآن من شرح سبب ذلك، على نحو يبدو ربما انحرافاً، أو عديم الصلة بالموضوع.

لقد تزوجت وأنا صغير السن فتاة وافق عليها أبواي، وأصبح لدينا طفلان؛ صبيان. كنت رجلاً طموحاً، أخطط كي أصبح عضواً في مجلس الشيوخ، فاشتغلت بجدٍّ، وأسست علاقات مناسبة، ولم يكن لدي سوى وقت قليل أقضيه مع زوجتي، ووقت أقل أقضيه مع ولديَّ. كانت زوجتي أماً رائعة. وحمل الثلاثة تجاهي احتراماً بعيداً. فعلت كل ما في وسعي أن أفعله لهم، وسهلت السبيل لدخولهما الجيش، فأبليا بلاءً حسناً. إلاّ أنهما قُتلا في أثناء معركة ضد القبائل الألمانية. ولدى وفاتهما شعرت بالأسى لأنني لم أعرف هذين الشابين اللذين أثنى عليهما الجميع، إلاّ معرفة بسيطة. أظن أنه لشيء مألوف على إنسان متزوج زيجة ثانية أن يشعر بالندم لكل ما كان يحذفه من زواجه الأول. فكّرت طويلاً في ولديَّ، في حين أن ذلك لن ينفعهما بأي شيء. توفيت زوجتي الأولى، فعشت وحيداً لسنوات طوال. مرضت، واستغرق شفائي وقتاً طويلاً. جاء

أصـــدقائي لرؤيتي، ونصحوني أن أتزوج مرة أخرى، فكّرت في زوجتي الأولى، وأدركت أنه كان بالإمكان أن يحبّ أحدنا الآخر، لو كان لدي الوقت لذلك.

في أثناء فترة نقاهتي، جاءت فتاة تدعى جوليا لرعايتي، وهي مـــن أحد فروع الأسرة، كنت أعرف ماذا سيحدث. فقد تمنت أمها أن يفعل قريبها الثري *شيئاً ما* من أجلها، من أجل أطفالها (لكـــنّ هناك عدداً كبيراً من الأطفال). ولاحظت أن الرجل إذا ما اهتمّ بفرد واحد من أفراد عائلة كبيرة، فإن الوقت لن يطول بـــه حتـــى يهتمّ بالقبيلة كلها. كانت جوليا فتاة بهيجة، جميلة، مجاملة، ولم تتكلم عن شقيقاتها وأشقائها المعوزين. فرحت بها، وببساطتها الحقيقية، وبالملاحظات الذكية التي كانت تبديها فتاة ريفـــية صغيرة وذكية، كانت تراقب كل شيء يمر من أمامها، كي تقلد أساليب النخبة. إنني متأكد من أنني أستطيع القول بكل صدق إنها هوتني، على الرغم من أنني كنت مدركاً على الدوام – لهـــذا بقيت حذراً دوماً – أنه على الرجل العجوز ألاّ يتوقع الـــشيء الكثير من امرأة جميلة عمرها لا يتجاوز ثلث عمره. وفجـــأة بدأ يزورني أقربائي الشبان، وشبان آخرون، في بيتي، وكانـــوا ينظرون إلي وصيًّا، وفكّرت أن الوقت لن يطول حتى تتزوج أحدهم، مما جعلني أشعر بألم. وهذا سببه – يا للمفارقة – أنّني فكّرت أكثر مما ينبغي في زوجتي الأولى وفي الأشياء التـــي افـــتقدتها: الـــولدان، الشابان المدهشان اللذان لم أحس بطفولتيهما.

طلـــبت من جوليا أن تتزوجني، وقلت إننا يجب أن نتفق على صفقة وهي أن تنجب لي طفلين اثنين، ولن أطلب منها بعد ذلك أي شـــيء، وســـأوفر لها وللطفلين عيشة رخية. فوافقت، وإن كانـــت متـــردّدة، لأنهـــا كانت تعلم أنّ كثيراً من الشبان كانوا

يـــرغبون فيها، إلاّ أنهم لم يكونوا أغنياء مثلي. كما أنها كانت تهوانـــي بصفتي صديقاً، أو ربما بصفتي معلماً. أخبرتني أنها تـــستمتع بـــالكلام معـــي وبالإصغاء إليَّ لأنني أعرف الشيء الكثير. أما هي فقد كانت جاهلة تماماً.

حـــدث الآن شـــيء غيـــر متوقع. فقد كنت واثقاً أن هذه الفتاة الطرية المكتنـــزة (مثل طائر حَجَل صغير)، ستنجب الأطفال بكل سهولة، غير أن حملها الأول كان صعباً، وجاءت الولادة أسوأ. وأخبرتني أن سبب ذلك يرجع إلى أنها أصيبت بأمراض كثيـــرة فـــي طفولتها، ولم يكن لدى أسرتها ما تأكله في بعض الأحـــيان. ولـــو طلـــبت مني أن أتخلى عن الجزء الثاني من الـــصفقة – أي الطفـــل الثاني – فإنني كنت على استعداد كي أغفـــر لهـــا، فأنـــا لم أفرح لرؤيتها وهي منـــزعجة، ولرؤية الـــولادة الصعبة التالية. غير أنها كانت فتاة نـــزيهة، وقررت أن تمـــضي قدماً في مشروع الطفل الثاني، على الرغم من أن أوقاتها كانت صعبة مع الطفل الأول.

مـــا إن ولـــد الطفلان حتى سُلّما إلى إحدى العاملات في جناح الأطفـــال لرعايتهما؛ ولا أظن أنها فكّرت فيهما بعد ذلك أبداً. ولم يخطر ببالي أن أجعل الصفقة تنصّ على: "أعطيني طفلين وكونـــي أمّـــاً لهمـــا". لكـــن عندما أثرت موضوع لا مبالاتها بالطفلـــين، ردّت: "إنه لأمر مزعج أن يكون المرء طفلاً لكنّه يهـــتم بالأطفال". أدركت أنها كانت أكبر أخواتها، وكانت أمها مريـــضة، ومـــنهكة القوى، وأنها يجب أن تصبح أمّاً بمساعدة عـــبدة واحـــدة غير مناسبة، كانت قد هربت من ضيعة كبيرة، كان العبيد فيها يعاملون معاملة سيئة. قلّما كانت مساعدة جوليا تـــتكلم لغتنا؛ فقد كانت إغريقية. وقد أقسمت جوليا اليمين إنّها عـــند بلـــوغها سن النضج، سترفض الزواج من أي رجل لا

يستطيع أن يؤمن لها الخادمات. إنه لقسم عظيم، خاصة إن كنت فقيراً، ومن بلدة صغيرة. غير أن ذلك يفسر لنا السبب الذي دفعها إلى أن توافق أمها على المجيء وعلى عرض خدماتها عليَّ.

أوضحت سبب تأخرها في الموافقة على *عقد الصفقة* معي، ولم أستطع أن أطلب منها أن تفعل أي شيء أكثر صعوبة من أن يكون لديها طفل، فضلاً عن طفلين.

قالت أيضاً إنها لا تملك مشاعر الأمومة، وإنها لم تملكها قط. وسألت أمها عن السبب الذي يجعلها تأمرها دائماً بإطعام الأطفال، وغسلهم، فيما لا تأمر أخوتها بذلك. غير أن أمها أجابت بكل بساطة: "إن هذه هي سنّة الحياة". ولا يوجد في المدونات ما يشير إلى رأي العبدة الإغريقية في ذلك الموضوع كله، على الرغم من عدم وجود من يهتمّ بها.

ساد الاعتقاد أن ملاحظات جوليا المكبوتة كانت الأكثر جرأة والأشد أصالة، غير أنها لم تفهم السبب الذي دفع الناس إلى الضحك من تلك الملاحظات فيما كالوا المديح لها. بدايةً، أنا متأكد من أنها لم تكن ترمي إلى إثارة صدمة، أو دهشة، على الرغم من أنها كانت قد اكتسبت شهرة بسبب فطنتها وجرأتها. وسرعان ما انضمت إلى حلقات كانت النغمة السائدة فيها نغمة ساخرة، ملّت الوجود. لكنها بدأت تتملق كي تنال حظوة. فأصبح كل ما هو جديد وطبيعي أسلوباً عندها، وأصبحت تلازم أناساً لم أشعر نحوهم بمودة، كما لم يبقَ فيها الشيء الكثير من تلك الفتاة المنحدرة من بلدة صغيرة، في نظرتها إلى الحياة.

قلت لها إن جيلها يبدو في نظر أبناء جيلي، أنانياً، منغمساً في الذات، يفتقر إلى الأخلاق، مقارنة بنساء مثل أمي، كنَّ

عفـيفات، وعُرفن بالتقوى وقوة الشخصية. بدت جوليا مهتمة بقيودي القاسية، لكن دونما أي علامة تدل على أنها هي المعنية بهـا، كأننـي قلـت لهـا: "أتدرين أن هناك بعض القبائل في بـريطانيا يـدهن أبناؤها أجسادهم باللون الأزرق؟"؛ وكان في وسـعها أن تعلـق: "أحب ذلك"، فيما تغشى غمامة وجهها. إلاّ أنهـا كانـت تعلـم أننـي كنت أقول الصدق، لهذا قررت أن تصدقني. "أزرق، ماذا؟ إذاً، لا بد أنهم يبدون مضحكين". كانت تعابيـرها المميـزة صريحة ومفتوحة، وابتسمت ابتسامة تدل على تقديرها لهذا العالم الجديد الشجاع. ولما أصبحت بعد ذلك معـروفة بـسوء سمعتها، وانغماسها في ذاتها، شأنها شأن كل نساء حلقتها، فإنني أستطيع أن أتخيلها، بوجهها العفيف ونظرة الاهتمام بكل شيء، وهي تسمع من صديق متواطئ معها، في حفلات العربدة التي لا بد أنها تحاول أن تجربها على اختلاف أنواعها، يقول لها: "أوه، حقاً؟ الناس يفعلون هذا الشيء؟ حسناً تصوري ذلك، ولنجرب".

لـو أن جولـيا لم تذهب قط قرب جناح التمريض، فإنني قلما أتمكـن من مغادرته. فأنا لم أكن أكثر انخداعاً، ولا حتى بشأن كبير من شؤون الدولة.

حتى عندما كان الأطفال رضَّعاً، وجدت الكثير مما يبعث على الدهشة، وعندما أصبح عددهم ثلاثة، أو أربعة أو حتّى خمسة، كان كل يوم ينطوي على كشف. لم أتدخل بالإدارة التي تتولاها الممرضات، ولم أؤدِ أي دور ما لم يأتِ صغير ما طلباً لعناق أو لأن ألاحظه. سمعت إحدى البنات تقول لأخرى: "ليس لديهم أم، لكن جدهم يعوّضهم عن غيابها".

بيـنما كنت أندهش يومياً بما ألاحظه، أُعطيت لي هذه الرزمة الكبيـرة من تاريخ الإناث والمسوخ، من أول ولادة للذكر من

الأنثى، وقد أعطاني إياها باحث اقترح أنني أستطيع أن أعالج هذا الموضوع أو ذاك؛ فأنا عندي مؤلفات مطبوعة ومقروءة، لكنها لم تكن تحمل اسمي الحقيقي، وهو أمر قد يثير دهشتكم. هـل سمعتم؟ أولاً: المادة، الصحائف العتيقة، وأجزاء من تلك الـصحائف، ومقاطـع من أوراق مفككة وغير مرتبة، مدونة بكـتابات قديمـة، هي الأوعية الأولى التي ضمَّت نقل أسلوب التواريخ البدائية من *الفم إلى الأذن*. كانت رزمة ضخمة، وفي حـين كانـت تحـتوي على قدر من التنظيم فيها، فإنه لا يهم أسـلوب ترتيبـي لها. في كل مرة التقطتها لأتأمّل موقعي في الـرواية، شعرت بالذعر، لا بسبب حجم المهمة، بل لأن هذه الرواية كانت بعيدة جداً عني، فلا أعرف كيف أشرحها.

ثـم راقـبت هـذا المشهد في الحضانة. كانت الطفلة ليديا في الرابعة من عمرها، أما الصبـي فأصغر سناً منها، ربما كان فـي الثانية ولا بد أن ليديا لاحظت مئة مرة ذلك النتوء البارز في مقدمة جسد شقيقها تيتوس. لكن في ذلك اليوم، كانت تحملق فيه وتقول:

– ما هذا؟

كـان وجههـا ينمّ عن صدمة، عن انخداع، وعن حسد، وعن نفـور. تملّكها شعور قوي ومتناقض. راقبت العبدات، وأدركن أن تلك اللحظة بالغة الخطورة والأهمية.

وهـنا بدأ تيتوس يداعب ذلك النتوء بينما ينظر إليها نظرة تنم عـن كبـرياء، وأنشد: هو ملكي. هو ملكي. ثم أضاف: وماذا تملكين أنت، إنك لا تملكين أي شيء.

وقفـت ليديا تنظر إلى ذلك الجزء الأملس من مقدمة جسدها، وسألت العبدات، وسألتني، وسألت شقيقها:

– لماذا؟ لماذا أنت تملك ذاك، ولا أملكه أنا؟

فقال السيد الصغير:

– لأنك فتاة. أنا صبـــي وأنت صبية.

قالت:

– إذاً، لن أدعك تنظر إليَّ.

ثم استدارت، مخفية نفسها.

وهنا بدأ ينشد مرة أخرى:

–لا يهمني، لماذا أهتم؟ أنت سخيفة.

صاحت:

– لست سخيفة.

ثم هرعت صوب العبدات، وسألت:

– لماذا، لماذا، لماذا؟

وهنا أخذت إحداهن تدفعها برفق بعيداً، وهي بين ذراعيها.

أجهشت الطفلة بالبكاء وهي تقول:

– هذا ليس عدلاً.

غير أن بقية العبدات قلن لها:

– لكنك لو امتلكت ما يمتلكه لما عرفت ما تصنعين به.

أثـــارت هـــذه الجملـــة ضحكتي (لكنني لم أكن ذلك النمط من السادة. ربما كانت تتمنى أن أكونه).

في تلك اللحظة، أدركت أنني سأحاول على الأقل القيام بتلك المهمـــة، وهـــي تاريخي عن ذلك الزمان البعيد الموغل في القـــدم. ثمة مشاهد فكّرت فيها، لكن بعد هذه العصور كلّها، كـــيف فُهم معنى وجود الإناث والذكور معاً في ذلك الوادي فـــيما تـــراقب النـــسور من فوق، لا تعلم شيئاً – فيما نحن الـــرومان نعرف الشيء الكثير – عن السبب الذي جعل كل الفتـــيات يكنّ على هذه الصورة، والفتيان على تلك الصورة، ناهيك عن معنى ذلك كله؟

كانـــت الدوافع غريزية، جبارة، ونحن نعلم مدى قوتها، إذ لم يتغيـــر شيء منها منذئذٍ، لكنني دائماً ما أعود إلى فكرة واحدة هـــي أن الأولاد كانوا متعطشين لشيء ما، يريدون شيئاً ما – لكـــنهم لـــم يدركـــوا مـــا تريده أعضاؤهم – هم بحاجة إليه، يـــرغمون الآخـــرين ممـــن هم على شاكلتهم أن يريدوا، وأن يحتاجوا.

أمـــا بالنسبة إلى الفتيات، فهذه الأعضاء التي لم يعرفن بها قد دفعـــتهنّ إلـــى الجهة الأخرى من الجبل، صوب الأولاد. حتى عندما عرفن أن ذلك التزاوج يعني إنجاباً في ما بعد، فإنهن لم يعرفن السبب، أو لم يعرفن السبب لزمن طويل.

بـــسبب ملاحظاتـــي في جناح الحضانة، قررت أن أدرس هذا الـــتاريخ، على الرغم مما تكتنفه من صعوبات. إنني واثق من أن بعـــض العـــبارات التي تُبودِلت بين الذكور والإناث ما من شـــأنهنّ أن يغيّـــرن كثيـــراً، على الرغم من العصور الزمنية الطـــويلة. فالمـــشهد الذي سبق لي أن رأيته في الحضانة أعيد تمثيله، أو تمثيل ما يشبهه. لا بد من أنه أعيد ثانية.

الآن ننتقل إلى ذلك المشهد الذي رأيته عندما استيقظ الصبـــي تيـــتوس صباحاً ليجد عضوه منتصباً، فنهض من مكانه، محدقاً إلى أسفل، وصاح: إنه لي! لي! لي. لي. لي...

أعـــتقد أن ما من تغيير كبير طرأ، لكن لو تمكن أولئك الناس القدامـــى مـــن العودة والملاحظة والرؤية، ووجدوا أن الشيء الكثير لم يتغير، عندئذٍ لن يفهموا أشياء أخرى أبداً.

فهـــم لن يفهموا قصتي عن زواجي، وعن جوليا، وعن أسرتي الأولـــى وأسرتي الثانية. الشيخ العجوز وزوجته الشابة؟ لا، لم لا؟ ســـبب بسيط جداً: هم لم يعيشوا زمناً طويلاً. فقد كان ذلك الزمن زماناً صعباً، وخطيراً، كما أنّ النساء *المسنّات* والرجال

المسنين ما كانوا كبار السن تماماً. إننا نسمع عن *أنثى عجوز*، لكـــن ماذا نرى؟ امرأة عجوز محنية الظهر، متغضنة البشرة ورماديـــة الشعر؟ لا! لا يوجد في أي من السجلات التي تحت يدي وصف لشخص عجوز.

مـــا من شخص التقيته، أو سمعت به لا يفهم على الفور معنى *الـــشيخ العجوز وزوجته الشابة*. ربما يبتسمون أو يقطبون، أو ينظـــرون نظرة تنطوي على إدانة، لكنهم سيدركون ما ينطوي عليه هذا التعبير. وهكذا أبدأ هذا التاريخ، هذا التاريخ الراهن، حتى عندما أكون يومياً في الحضانة، أراقب الأطفال، وعندما تكـــون جولـــيا خارج المكان تقضي معظم وقتها مع صاحباتها الجديدات.

لم تكذب عليَّ قط، إلاّ غفلاً. فقد كنت أفترض أن لديها عشيقاً، وشـــجعتني هي على الاعتقاد بذلك الافتراض. ما حاجتي إلى معلومات أخرى، فيما أمتلك بين يدي مادة عن الخدمات السرية فـــي رومـــا؟ لقد أصبحت الآن صديقة حميمة لبعض الأوساط ذات المكانـــة العالية. فالحفلات التي لا يمكن وصفها إلا بأنها حفـــلات مجون، كانت تتواصل كل ليلة. وكانت تصادق نساء ســـيئات السمعة، وتصادق نساء أخريات لم يعشن طويلاً حتى عهد الإمبراطور التالي.

قلت لها عندما كانت جالسة هناك بعد حفلة كبيرة تراقبني كأنها كانت تتوقع مني أن أُؤنبها:

– أنت تحلقين أعلى مما ينبغي يا جوليا.

انتظـــرت كـــي تدافـــع عن نفسها، لكنها لم تتكلم. لعلها كانت مضطربة. أضفتُ مبتسماً كي أبدو وكأنني أصدر حكماً:

– ما طار طير وارتفع إلاّ كما طار وقع. احترسي يا جوليا.

فاحترست، لأنها بقيت على قيد الحياة.

ماذا بشأن الطفلين الرائعين اللذين أستطيع أن أزعم القول إنهما كانا أفضل نِعَم حياتي؟

الفـتاة لـيديا تقضي وقتاً طويلاً مع أمها. كيف لم تستطع أن تعجـب بالمرأة الأنيقة بالغة الجمال، التي تطورت وأصبحت جولـيا؟ إن ليديا تحضر الحفلات مع أمها، ولا علم لي بمدى بؤسـها. وأعلـنت أنها تعتزم إقامة زفاف عظيم. فالفتى مفعم بالحيوية، وشجاع، ويعرف ألعاباً كثيرة، له مفاخر لا تحصى، وطاقة تحمّل لا مثيل لها، وكل ما نتوقعه من صبـي روماني يقدم أفضل ما لديه. كان يريد الالتحاق بالجيش، وكان يعتقد أن في وسعه الالتحاق بالحرس الإمبراطوري. لِمَ لا؟ فالحراس هم شبان وسيمون مثله.

فكّرت أنه ربما يقول قائل عني: "لقد وهب ثلاثة من أولاده كي يقتلوا من أجل الإمبراطورية. وكان رومانياً حقيقياً". لكن ربما لن يتذكر أحد أنني فكّرت ذات مرة أنني أحببت نفسي بوصفي مؤرخاً جاداً.

* * *

وقف الآخرون حول المكان يحدّقون. وشاهدت أنهم كانوا يميلون ويحدّقـون، ويهـدأون، وتكبح جماحَهُم معرفَتُهم بمدى الأذى الذي ألحقـوه بالفـتاة الأخرى. كانت تريد الخروج لتفعل ما هو طبيعي في رأيها، ألا وهو النـزول إلى الماء، والضياع فيه. نهضت، وهي مدركة طوال الوقت، أن ما تفعله يثير الأولاد، وذهبت إلى ضفّة النهر، حيث كانـوا قـد صنعوا خليجاً صغيراً، كان الماء فيه ضحلاً. جثمت فيه، وبدأت ترش الماء، على الرغم من أن هذا الماء البارد لم يكن شبيهاً بماء البحر البلسمي الذي اعتادته. عندما نهضت من الماء وواجهتهم، بعد أن احتـشدوا وراءها، شاهدت واحدة من حاويات الصدف الكبيرة التي

صنعوها. التقطت واحدة، فأخبروها باسمها. كانوا قد صنعوا سكاكين من الصدف الحاد، فتعلمت تلك الكلمة أيضاً. استمروا على وضعهم وهم يرددون جملاً وكلمات، على نحو طفولي، فيما ردّت عليهم، واستنسخوا ما كانت تقوله صوتاً لا معنىً.

في أثناء ذلك، كان النسران قد فرغا من أكل وجبتيهما، وحلّقا بذينك الجناحين الكبيرين، وعادا إلى الجبل. كانت الشمس تميل إلى المغيب. كانت خائفة، فهي وحيدة في هذا المكان الغريب برفقة هؤلاء الغرباء. كانت كلمة "أناس" تستعملها الإناث في ما بينهن، لكن لا بد أن يكون هؤلاء أناساً أيضاً، لأن كل واحد منهم ولد من رحم. لعلها هي نفسها أنجبت واحداً من أولئك المسوخ الذين يحدّقون إليها. كانت تعرف أنها أنجبت مسخاً، واختطف من بين يديها، ووضع في العراء كي يموت خارجاً، بعد أن أخذته الطيور العملاقة. إلا أنهم لم يموتوا، لم يمت أحد منهم، ها هم الآن هنا جميعاً، يشبهون الإناث، ما خلا تلك الصدور المنبسطة التي تظهر فيها الحلمات، التي لا فائدة منها، والأعضاء الذكورية.

كان هناك ظل يزحف نحوهم، قادم من الجبل. باتت وجلة الآن، في حين أنها لم تخف من قبل. كانوا لا يزالون يحتشدون حولها، وكانت رغبتهم فيها وجوعهم إليها واضحين. لكن مثلما دفعتها رغبة إلى الحضور إلى هذا المكان، فإنها اضطرت إلى الانصراف... اضطرت، لكنهم ساروا جميعاً وراءها. اتجهت نحو الجبل، من دون أن تركض، لأن الركض ليس من عادة الإناث. غير أن سيرها كان حثيثاً، مدفوعاً بالخوف. الخوف ممن؟ المسوخ قريبون منها؟ الليل قريب؟ وصلت إلى قاعدة الجبل عند هبوط الظلام، ثم حل ظلام دامس، لا أثر فيه للقمر. وجدت ما كانت بحاجة إليه. كهف. فلجأت إليه. لم تنم. كانت الأفكار تحتشد في ذهنها، كلها أفكار جديدة. وفي الصباح الباكر، وتحت ضوء الفجر، غادرت

الكهـــف، وألقت نظرة إلى أسفل الوادي، فلم تشاهد أحداً. كانوا داخل الملاجئ المصنوعة من قصب النهر اللامع.

ارتقـــت الجبل بأسرع ما تستطيع. لم تكن هذه الفتاة قد سارت أكثر من بضع خطوات في حياتها. ثم قصدت القمة، واجتازت النسور العظيمة التي كانت تغط في نوم عميق فوق صخورها الطويلة. اتجهت الآن إلى الجانـــب الآخر، وهبطت حتى وصلت الشاطئ، حيث كانت النّـــساء موجـــودات، وكنّ مستلقيات كعادتهن دوماً، ينشدن قليلاً، وينشرن شعورهنّ الطويلة. و لم يلحظن أنها كانت خارج المكان.

كانـــت الإنـــاث المسنّات فوق صخرة مستوية ضخمة. ذلك هو مكانهن، وشاهدت، وكأنها المرّة الأولى، تلك الكتل من الأجساد، والنهود الـــضخمة المتدلـــية، والوجوه الكبيرة المتدلية، والعيون التي بدت وكأنها لا تـــرى شـــيئاً. أما الأجساد، فكان نصفها في الموج الدافئ ونصفها الآخر خارجه. شاهدت ذلك كله، غير أنها كرهت ما شاهدت.

لا بـــد لها من أن تخبرهن بما حدث، غير أن الشيء المهم لم يكن في عدم الإصغاء إليها، بل إنهن لم يستطعن استيعاب ما قالته.

ففـــوق ذلك الجبل تعيش مسوخ حية كنَّ قد تركنهم هناك كي يموتـــوا؛ تلـــك هي أول الحقائق، وكان في استطاعتها ألاّ تتكلم قط. وكانت الإناث الصغيرات يشبهن الإناث المسنّات في عدم الاستيعاب، باســـتثناء واحـــدة، حاولت أن تخبر الإناث المسنّات بموضوع أعضاء المسوخ الذكرية، فاستمعن إليها، ورغبن في معرفة كل شيء. أصبحت هاتـــان الفتاتان لا تفترقان الآن، تتحدثان وتفكّران. وفي الوقت المحدد، ولدت أنثى. فعلمت هي وصديقتها أن تلك الطفلة مختلفة، فبحثتا عمّا هـــو مخـــتلف، لكـــنهما لم تعثـــرا على شيء. إلاّ أن الطفلة كانت منـــزعجة، باكية، وزحفت وسبحت، ثم بدأت المشي في وقت مبكر.

عـــرفت هاتـــان الفتاتان أن أول طفلة تنجبها أُنثى، من أب من المـــسوخ، كانت مختلفة في أعماق طبعها. غير أن قول مثل هذا الكلام يطـــرح ســـؤالاً. أليس كذلك؟ كيف عرفتا؟ ما الشيء المختلف فيها والذي جعلهما تعرفان؟ لقد حدث شيء ما لهاتين الاثنتين، لكنهما لم تعرفا ما هو، بل إن كل ما عرفتاه هو أنهما عندما تحدثتا معاً عن الطفلة الجديدة، وعن المسوخ الكائنة فوق الجبل، كانتا تتحدثان بلغة وبأفكار لم تـــستطيعا مـــشاركة أي واحدة من الشاطئ فيها، كانت الفتاة التي ذهـــبت إلى أعلـــى الجبل لأنها اضطرت إلى ذلك بدافع طبيعي داخلي جديـــد، كانـــت واحدة من حاميات الماء. وأدركت أن قطرات الماء المنحدرة من أعلى الجروف كانت نظيفة، وموجهة إلى بركة صخرية، صنعت لذلك الغرض. كانت معروفة باسم الماس. لكن الإناث المسنّات استدعينها ذات يوم للقيام بمهمة، وقالت لهن من دون تفكير أو تخطيط: "اسمـــي مـــيري"، وهو الاسم الذي يطلقنه على نصف القمر، قبل أن يـــصبح بدراً بالتمام. أما صديقتها، الفتاة الأخرى، التي كانت صائدة سمـــك، ولهذا، فإن اسمها هو سمكة، فقد قالت: "واسمي أستري"، وهو الاسم الذي يطلق على أشد النجوم لمعاناً في المساء.

بـــدت النساء المسنّات منـــزعجات، إن كنّ قد سمعن حقاً رواية الفتاتين. فطالما كانت الإناث الصغيرات يوليهن اهتمامهن، ويطعمنهن، ففـــي وسعهن أن يطلقن على أنفسهن ما يشأن من الأسماء، وكان هذا هو الشعور الذي ارتابت الفتاتان منه.

كـــان هـــذا النمط من التفكير النقدي بخصوص النساء المسنّات جديداً: إذاً، هناك الكثير من الأفكار الخطيرة التي تدور في رأسيهما.

فكّر سكان الوادي الجدد في ميري. لم تكن لديهم ذكريات عن أول أُنثـــى قـــتلوها، إلا أنهـــم تذكروا ميري بشوق. في بعض الأحيان كانوا

يتـــسللون زحفـــا على امتداد التلال الصخرية المطلة على الشاطئ القديم ليختلـــسوا نظـــرة إلى الإناث، إلاّ أنهم كانوا يخشون أن يكتشفن أمرهم. كانـــت كل أفكارهم عن الإناث مبهمة ومضطربة. فالإناث يملكن موهبة إنجاب أفراد جدد. أما هم، الأهالي الجدد، فلم يكن في وسعهم ذلك.

ثم ازداد ارتـــباكهم أكثر فأكثر بسبب كلامهم. فقد كان كلام الإناث أفضل وأوضح. حاولوا أن يتذكروا كلمات سبق أن استعملتها مـــيري، وكـــيف كانت تربطها بعضها ببعض. لكن معرفتهم كانت قاصرة، كانوا لا يعرفون إلا النـــزر اليسير.

لعلها تحضر ثانية؟

في هذه الأثناء لم تعد النسور تأتيهم بأطفال جدد، وكان السبب هو عدم حدوث أي ولادة جديدة.

لكـــن أستري أنجبت طفلاً مسخاً، فقررت هي وميري، من دون نقـــاش أو تخطيط أن تأخذاه بنفسيهما إلى أعلى الجبل. كانت النسور تنتظـــر، كعادتها، فوق صخرة الموت، لكن أستري لفت المولود الجديد بأعشاب البحر بينما تركت ميري طفلتها، الأُنثى، المولدة حديثاً تحت رعاية الأُخريات.

.....

.....

.....

.....

بعـــد أن استراحتا، أصبحت أستري على استعداد لتسلق الجبل، فـــصعدت الاثنـــتان إلى الأعلى، فيما ظل النسر يحوم حولهما. وهناك وضـــعت ميري ذراعها حول أستري، لأنها كانت تدرك الصدمة التي ستصاب بها عند رؤيتها الوادي المأهول بالسكان للمرّة الأولى.

كـــان الوقت قد تجاوز منتصف الظهيرة. وكانت الأكواخ العالية المائلـــة والمشيدة بالقصب ترسل ظلالاً كثيفة فوق العشب، حيث كان الأولاد يؤدون واجبات مختلفة. ولما رأى أحدهم الفتاتين، صرخ، فهرع الجمـــيع إلى حـــيث يمكـــنهم مشاهدتهما وهما تنحدران أسفل الجبل. استمرت الفتاتان بالهبوط، وسط صخور حادة، بينما كان النسر يحلّق فوق رأسيهما.

عندما وصلتا الأرض المستوية، تقدم الأولاد محتشدين إلى الأمام، وحـــسبما تذكـــرت ميري، كان جوعهم يشع من بين أعينهم، كأنهم يتوسلون. تشبثت أستري بالطفل بقوة، وحاولت أن تبتسم وهي تسير إلى الأمـــام، على الرغم من أنها كانت ترتجف، وتمسك بقوة بتلابيب مـــيري. أصـــبح الأولاد الآن يحـــيطون بها، فيما شرع الطفل الصغير بالـــبكاء، داخـــل لفائـــف الأعشاب. رمت أستري الأعشاب جانباً، ورفعت الطفل أمامهم كي يروه. هذا هو السبب الذي جعلها تأتي هي ومـــيري، برفقة الطفل، لكنها إذ توشك الآن على توديعه، شعرت أنها ثكلـــى، وحيدة. لم تتذكر أنها شعرت بمثل هذا الشعور من قبل، على الـــرغم من أنها أنجبت، في ما مضى، مسخاً. وُضع فوق الصخرة. ربما يكون أحد هؤلاء الصبيان الواقفين أمامها هو ذلك الطفل الذي تركته. وهـــنا تقـــدم أحـــد الصبيان ليأخذ الطفل، فتركته أستري بين يديه، وراحت تجهش بالبكاء.

* * *

[إن مـــؤرخ هذه الأحداث تسمح بانسياب دموع أستري، على الـــرغم من أن أي دمعة لم تدون في أي من الوثائق الموجودة عندنا]

* * *

بـــدأ الحليب ينساب من ثدييها، لأن الطفل كان يبكي، فما كان منها إلاّ أن غطتهما بذراعيها، وهي تشعر للمرة الأولى أنها مضطرة إلى سترهما.

ذهب الصبـــي الذي حمل الطفل نحو طرف الغابة، وصفّر. كان الطفل يبكي بصوت عالٍ في هذه اللحظات. وعلى الفور ظهرت غزالة تهـــزّ ذنبها، ووقفت تنظر إليهما من وراء الأشجار. تقدم الصبـــي إلى الأمام، حاملاً الطفل، ثم وضعه على الأرض. جاءت الغزالة، واستلقت إلى جانـــب الطفـــل، وبدأت تلعقه بلسانها. لم يعرف ما يفعل للوهلة الأولى، لكن أستري بكت بكاءً مريراً وهي تشاهد حنان الغزالة. جثم الـــصبـــي قرب الغزالة والطفل، ودفع وجه الطفل قريباً من حلماتها. لكـــن الطفل ظل يبكي، إلا أنه هدأ بعد قليل، إذ شرع يرضع الحليب بينما الغزالة تواصل لعقه. كانت اليدان الصغيرتان تتشبثان بفرو الغزالة، مما دفع بأستري إلى الانحناء فوق جذع الشجرة العظيم، واضعة رأسها بين كفيها. جلست ميري إلى جانبها، وأمسكت بها. استمر الطفل في الرضـــاعة وشـــعر بالحبور، وهو يلوّح بذراعيه الصغيرتين، كما بدت الغزالة مسرورة بدورها. ثم نهضت، بعد ذلك، تاركة الطفل، وتوجهت إلى مكان قريب لتأكل الحشائش.

جلس الصبـــي الذي اهتم بحاجة الطفل بالقرب من أستري، فوق جذع الشجرة، وطوقه بذراعه على نحو أخرق. لوحظ أن هذه الكياسة مـــع الطفـــل، لم تتكرر عندما حاول أن يحضن أستري. ولما شاهدت مـــيري أستري ثابتة الجنان، نهضت، ولمست كتف أحد الصبيان كي يلتفت إليها. ومارست الحب وإياه وقوفاً. حتّى إنّها أقامت علاقة حبّ طـــوال الأصـــيل والمساء مع الصبيان جميعاً. إنني أعتقد هنا، أن تلك العلاقـــة لم تكـــن سوى علاقة سريعة تشبه عملية تزاوج الطيور التي

نـــشاهدها كلنا عندما نخرج إلى مزارعنا وضياعنا، عندما تشتد حرارة الطقس.

كانـــت أســـتري منـــشغلة بالمراقبة، وقد وضعت ذراعيها فوق صدرها. غير أنها هزَّت رأسها رافضة عندما أشار إليها أحد الصبيان أن تفعل ما تفعله ميري، لأنها كانت لا تزال تنـــزف دماً بسبب الولادة، وسرعان ما توجهت إلى النهر لترى إن كانت هناك أي أعشاب بحرية تـــستطيع استعمالها. نعم، هناك أعشاب. لا شيء يشبه أعشاب البحر التي تلجأ إليها الإناث. صنعت منها كمَّادة، فيما الصبيان يراقبونها، ولما شاهد هؤلاء الدماء تنساب منها فهموا السبب.

أرضعت الغزالة الطفل مرة أخرى، ثم دخلت الغابة، بينما كان الطفـــل يبكي. يبكي من أجل أمه. فهمت أستري، ولم تعرف إن كانت تبكي لأجل نفسها، أم لأجل كل الأطفال الصغار الموجودين حـــولها والـــذين تـــركوا من دون أمهات أو حتى من دون حليب الأمهات.

عـــند المـــساء، حلّق النسر الكبير الذي كان يراقب كل ما كان يجري أمامه بعينين صفراوين، وعاد إلى عشه فوق قمة الجبل.

كانـــت لـــيلة هادئة، دافئة، أكلت الفتاتان فيها من سمك النهر، وشربتا الماء من صدفات كبيرة، ثم استلقتا قرب جذع الشجرة، وبدأتا تراقبان، في حين عاد الأولاد (الذين كان بعضهم مشوهاً تشوهاً كبيراً، وإن لم تـــتمكن الفـــتاتان من التأكد من ذلك) إلى ملاجئهم المشيدة بالقـــصب لقـــضاء الليل الذي تألق بنور القمر. دبّ الخوف في نفسي الفتاتين، على الرغم من أن ميري كانت قد شاهدت هذه الملاجئ من قـــبل. نامـــتا، قريبتين بعضهما من بعض. وفي الليل، جاء صبيان من الملاجـــئ ليروا إن كانت الفتاتان لا تزالان نائمتين. وبسبب حذرهم،

وتطلعهـــم إلى الأشـــجار، والنظر إلى ما حولهم، أدركت الفتاتان أن الملاجئ كانت مشيدة لغرض ما.

والغزالة؟ والطفل؟ كانا هناك متواريين وراء الأدغال. لكن إذا ما هـــبط حيوان مفترس من فوق الأشجار، فإن الأمل بالنجاة ضئيل أمام هذين المخلوقين.

عندما استيقظت الفتاتان كان الجميع خارج الملاجئ، بينما أشعة الـــشمس تغمـــرها. أما الطفل فكان يستلقي بالقرب من الغزالة التي كانت مستلقية بدورها، تتأهب لإرضاعه. مرة أخرى، جيء بالسمك والماء إلى الفتاتين، مع بعض الفاكهة من الغابة؛ وهما نادراً ما تذوقتاها من قبل.

لدينا تفاصيل عن زيارة الفتاتين ميري وأستري تستند إلى مدونات الذكور – أي مدوناتنا – والى السجلات التاريخية للإناث. ولا تتطابق هذه التفاصيل إذ يصر كل جانب على أن الأولاد كانوا يريدون دروساً ليتعلموا التكلم. وعندما استمعوا إلى الإناث عرفوا مدى ارتباكهم.

كـــان كل طرف يتعلّم على نحو سريع من الطرف الآخر، خاصة وأنهـــم كلما أرادوا التعلّم أكثر، ازداد إدراكهم أن هناك الشيء الكثير المتروك لهم كي يتعلّموه.

نظرت الفتاتان إلى داخل الملاجئ، فوجدتا ركاماً من قاذورات تـــضم عظامـــاً، وقشور فاكهة، وكمادات مصنوعة من الحشائش مـــرمية. فقطعـــتا أغـــصاناً من الأشجار للكنس. كان هذا العمل مدهـــشاً، لأن الأشـــجار لم تكن نامية قرب ساحل الإناث. جمعتا النفايات في كومة، وأضافتا إليها العظام، وبقايا من لحم من المكان الـــذي قـــدّمت فيه السمكة إلى النسور. ثم جاءتا بهذه الكومة إلى حافة النهر، ودفعتا بها مع التيار.

اصـــطاد الأولاد سمكـــة، وقطّعـــوها بسكاكين مصنوعة من الـــصدف، وبحـــثوا عن فاكهة الأشجار، واطمأنوا إلى أن الفتاتين والطفـــل الرضيع، إذا ما بكى، سيحصلون كلهم على طعام. كما أحضروا حشائش طازجة للغزالة، وداعبوها، وداعبوا الطفل الرضيع أيضاً.

راقبت الفتاتان كل شيء، تماماً مثلما كان الصبيان يراقبونهما. ثم انهمكـــوا في الجماع، كأن الفتاتين جاءتا لهذا الأمر. وجامعوا أستري أيضاً بعد أن توقف نـــزيف الولادة.

جلـــست أستري وميري عند جذع الشجرة، والصبيان حولهما، وتكلموا جميعاً كلاماً بطيئاً، سهل السماع والترداد.

بـــدا واضـــحاً أن اللغـــتين تتطوران، لغة يتمّ تعلّمها من الفتاتين القادمـــتين حديثاً، ولغة تتعلّمها الفتاتان، هي لغة عالية، طفولية، وهي اللغـــة التي تكلمت بها أول مجموعة من الصبيان. تكلموا مثلما يتكلم الأطفال، وقليلاً أيضاً. ولم يرق لكل طرف ما كان يسمعه من الطرف الآخـــر. اضـــطرت ميري وأستري إلى أن تكونا في ذلك المكان لتعليم الـــصبيان اللغة، لتعليمهم كيف يحافظون على نظافة مساكنهم، وكيف يجامعون عندما يشعرون بالرغبة.

لا تخبرنا هذه المدونات كثيراً عن هذا الجماع المتواصل، بل كل ما هناك هو كيف يحاول الشبان الذكور الاقتراب من الفتاتين، ويبدأ العـــناق والمداعـــبة، بل يلعقانهما أيضاً، مثلما كانت الغزالة تلعق الأطفـــال؛ وهـــي تجربتهم عن حبّ الأم. فكلهم كانوا قد لعقتهم الغزلان الرقيقة، ولم يحب أيّاً منهم أي أم. كانوا متعطشين للمسة، لمعاملـــة رقـــيقة. أما الفتاتان اللتان لم تمرا على شاطئهما بمثل هذه التجربة، فقد دهشتا وفرحتا.

فـــضلاً عن هذه المشاهد... نعم، لنسمها مشاهد الحبّ، كان هـــناك الذكـــور الأوائـــل الذين لقوا الكثير من الأذى على أيدي الإنـــاث. لهذا كانوا يشعرون بالرهبة من الإناث، وحاولوا الابتعاد عـــنهن. كمـــا شعرت الفتاتان بالخوف منهم بسبب المشاعر التي اخـــتلجت في أعماقهما. عار؟ كل ما كانت تعرفانه، هو أن تلك النظـــرات المـــتقدة القاتمـــة، التي ينظر بها أولئك الذكور المشوهة أجـــسادهم، الذين قد يكونون أبناءهن، جعلتهما تشعران وكأنهما مريضتان.

في صـــباح يوم من الأيام، رحلت الفتاتان بكل بساطة. فالضغط الداخلـــي الـــذي دفعهما إلى الحضور إلى هذا المكان هو نفسه الذي أبعدهما وعاد بهما إلى الجبل، ثم إلى الشاطئ الخاص بهما.

زمـــن الحمـــل أتى وولى، على الرغم من أنهما لم تملكا أي فكرة عنه. هذا ما نراه دوماً في مدوناتنا؛ مدونات الذكور، لا الإناث. لكننا عندما نتفوه بأشياء مثل: "لا تعرفان، أو موغلتان في البدائية، وجاهلتان أكثـــر مما ينبغي". وعبارات الطرد المختلفة، حسناً، إنني أسأل: "أنّى لنا أن نعرف ما كنتما تعرفان؟ كيف؟".

إذاً، حـــدث ذلـــك كله منذ زمن طويل، حتى لو لم نعرف المدة تحديـــداً. "عـــصور"؛ ربمـــا ذلك صحيح. منذ عصور سحيقة، هؤلاء البدائـــيون، أسلافنا، الذين لا تزال أفكارهم تعيش فينا - كانت لدينا أفكـــارهم المروية أولاً، والآن المدونة - منذ عصور، عصور سحيقة، فعلـــوا هذا الشيء وذاك الشيء، من دون معرفة السبب. ولهذا نود أن نفكّر الآن.

لدينا رغبة في وصف غيرنا من المخلوقات بأنها غبية، أو لا تفكر على الأقل.

لم ترحل الفتاتان من دون ملاحظة أحد. فالصبيان حدّقوا إليهما، ولـــو أنهما نظرتا إلى الوراء لوجدتا الوجوه يعلوها الشوق، تشي لهما بكل شيء.

ثم هرع الصبيان إلى قمة الجبل، وراقبوا كيف انحدرت الفتاتان إلى الجانب الآخر من الجبل، بعد أن اجتازتا صخرة الموت، لتصلا أخيراً إلى شاطئهما.

لقد توارتا عن الأنظار!

متى ستأتيان مرة أخرى؟ متى؟ آه، متى؟

وقفت المرأتان الشابتان على قمة صخرة تسلقتاها كي تتمكنا من إلقاء نظرة إلى شاطئهما... بيتهما... أهلهما. إنهما أُنثيان. حسناً، هذا أكـــيد. لكـــن على الرغم من أنهما كانتا في الوادي برفقة أناس أطلقتا علـــيهم اســـم مسوخ، فإن عقليهما لا بد أن يكونا مليئين بالتشابه، بالاخـــتلاف - المثـــيل، والآخـــر - مليئين بالتعارضات. هل فكّرتا بنفـــسيهما علـــى أنهمـــا أُنثيان، وليستا ذكرين؟ أُنثيان شابتان، ليستا كـــبيرتين ســـناً، ليستا امرأتين مسنتين. هما من أولئك الفتيات اللواتي يحـــدقن إليهن، وقد اضطرتا إلى هذا الفعل لسبب - ولتحدٍّ على وجه الـــتحديد - هـــو أن عقليهما يمتلئان بالتناقضات. فلولا الذكور، أو المـــسوخ، لمـــا كانت هناك أي ضرورة كي تفكّرا أنهما أُنثيان؛ لولا النقـــيض، لا حاجة إلى الادعاء بما هما عليه. عندما ولد أول طفل ذكر مسخ، ولد الذكر والأنثى أيضاً، لأن قبل ذلك كله كان هناك أناس.

وقفت المرأتان الشابتان فوق صخرتهما، ونظرتا إلى شاطئ البحر الذي استرخت عنده قريباتهما. لكن في هاتين العينين (اللتين سأجعلهما زرقاوين بسبب لون السماء الأزرق، والبحار الزرقاء المحيطة بهما) اللتين كانـــتا، يوماً ما، توحيان بالهدوء، ولا تنشغلان بالتفكير، هناك ظلال،

تحديـــداً، ظلال شبّان من الذكور، تخلتا عنهم (ربما هم أولادهن، لكن مـــن يدري؟). شبّان من الذكور، وهم أناس بالتأكيد، يشبهون الأناس اللّواتي تنظران إليهنّ. وإلاّ كيف تسترخي هذه الأجساد فوق الصخور، إن كان الذكور *المسوخ* أنجبتهم الأناس في هذا المكان؟

مسوخ... فكّرت هاتان الفتاتان ذات يوم على ذلك النحو، لأنه لا يوجد شيء آخر تفكّران فيه.

وقفـــتا تنظـــران، تقارنان ما شاهدتاه بذلك العنفوان، وتلك الحركة الدائبة في الوادي من وراء الجبل كم هو هادئ وبطيء ذلك المـــشهد من تحتهما. هناك مكان واحد يتصف بالحركة والضوضاء، فيبدو كأنه يحتج. وتلك الطفلة الصغيرة التي ولدتها ميري قبل وقت لـــيس بالبعيد... ها هي هنا فكرة أخرى جديدة. منذ متى ولدت تلك الطفلة الصغيرة التي تعيش هناك، التي لا يمكن أن ترتاب منها، التي هي نصف مسخ، حتى لو كانت أُنثى. ما الحاجة التي تستوجب تحديـــد الزمان؟ إنه زمن بعيد عندما فعلنا هذا آنذاك... عندما... لكـــن كل واحد يعرف أوقات القمر الذي يكون في بعض الأحيان كـــبيراً ومـــدوراً، أو مثل شريحة من ظفر إصبع شاحب، متوسّط الحجم. كان كل واحد يعرف عن التطابق بين الطوفان الأحمر الذي كـــان ينـــسجم والطوفان الأحمر النازف من الأُنثى، وعن القمر في حالة البدر وهو مضيء وقريب. لكن متى ولد ذلك الطفل الصغير؟ لكـــن، مـــن الواضـــح وجود تطابق بينه وبين علاقته بالمسوخ (أو الأهالي) الموجودين في الوادي.

مشهد عن نوم بطيء فيه طفلة منـــزعجة، هي طفلة ميري، وفي وســـعهما أن يـــشاهدا أن المراقبة التي تحمل الطفلة كانت قلقة، نافدة الـــصبر. الأطفـــال لا يشكون ولا ينـــزعجون، ولا يصبحون مصدر

ضـــيق، أو يضربون. مَن ذا الذي تصرف على ذلك النحو، بكل تلك الحيوية والحركة، إن لم يكن طفلاً ذكراً؟

كانـــت مراقبة الطفلة تجلس فوق صخرة عند حافة الموج، وسهل جـــداً تـــرك ذلك المخلوق الصغير ينـــزلق إلى موجة فيضيع فيها. من سيلاحظ ذلك؟ لو لاحظ أي شخص ذلك فإن الحركة من أجل إنقاذه ســـتكون بطيئة وكسولة. الكسل والكلل. حل شعور جديد في ذهني هاتين الأنثيين، لأنهما أُنثيان، سواء أعرفتا ذلك أم لم تعرفانه، أو شعرتا بعدم وجود أي حاجة للتفكير فيه. إنه شعور بالغثيان. لا، ليس شعوراً جديـــداً، لأن الغثيان هو الشعور الذي كانتا تشعران به عندما شاهدتا مـــسخاً حـــديث الـــولادة، بأعضائه القبيحة. لا، ليس الغثيان شعوراً جديداً. لكن الإحساس به عند النظر إلى أولئك الإناث المسنّات، النساء المسنّات، نعم، ذلك هو شعور جديد.

أمام الفتاتين تماماً، ثمة صخرة كبيرة، مسطحة ومريحة، كانت تجلـــس علـــيها الإناث المسنّات مسترخيات، لهن فيها حقّ، بسبب اســـتعمالهن لها منذ زمن طويل. كانت الإناث من ذوات الأجساد الـــضخمة، المتـــرهلة، التي تكسوها طبقات من الشحم، مستلقيات هناك، منفرجات السيقان، يكشفن عن عورات قبيحة، أوه، قبيحة جداً، وهو ما دار في ذهن الفتاتين اللتين اقشعر بدنهما لمرأى عورات المسوخ.

مرَّ في ذهن الفتاتين أن مظهر النساء العام يشبه البزاقات الرخوية البحرية الموجودة في البحر الآن. بدا الأمر، وكأن الماء اختار أن يكون محاطـــاً بجلـــود مـــن ماء هلامي، بأشكال ضخمة مترهلة، لا يوحي مظهرها بأي شكل، طالما أنها تتغير، وأنها مع كل موجة، وداخل هذه الأكـــياس مـــن الجلد الشفاف، لم يكن هناك أكثر من خطوط عامة

واهـــية، مـــن الأعـــضاء والكتل. الإناث المسنّات كن مستلقيات، مستسلمات للنعاس على الصخور الدافئة، فيما راودت هاتين الفتاتين الآن فكـــرة، لعلها تراودهما للمرّة الأولى في ذلك الزمن الطويل الذي يمتد عصوراً. إنني لا أريد أن أكون مثلهن. تلك الفكرة التي أحدثت ثـــورات، وحروباً، وفكّكت الأسر، أو جعلت من يحمل تلك الفكرة يـــصاب بالجنون أو دفعته لحياة جديدة مفعمة بالنشاط... لا أريد أن أصـــبح مثلهن. لا. كانت ميري وأستري قد اقشعر بدنهما فظاعة من المنظر الذي رأته كل منهما، وفظاعة ما يمكن أن يؤول إليه أمرهما. في أثـــناء هذا كله، ظل البحر متراخياً، متكاسلاً، يلفظ حروف الصفير، و لم يهـــدأ، ولا يـــستطيع أن يهـــدأ، إلا إذا ضرب نفسه وتحول إلى عاصـــفة. سمعـــتا صوت البحر الساكن الجميل، الذي ظل عالقاً في آذانهمـــا طـــوال حياتهما، لكن فوق ذلك الجبل حيث سواحل البحر بعيدة لا يسمع لها أي صوت. كان دوي الريح في الأشجار، نعم، أو صياح النسور، سباحة سمكة كبيرة في النهر، وهي تندفع مسرعة، لكن لا شـــيء يشبه هذا الهدوء المثير للأعصاب، الخامد، الهامس... حاول الطفـــل أن يقف بين ذراعي مراقبته، إلاّ أنه لم يبلغ من العمر بعد ما يمكـــنه مـــن الوقوف... أي فكرة هذه؟ أطفال يرضعون، ويتبرزون، ويكبرون، ويزحفون، ولا بد من مراقبتهم، وإلاّ زحفوا نحو الموج... في الحقـــيقة، لقـــد زحـــف بعـــضهم، بل اضطر بعضهم إلى ذلك اضطراراً... ثم ساروا، وركضوا، وتحولوا إلى إناث أصغر من الإناث الكـــبيرات، لكـــنهن شبيهات بهن. غير أنهن لم يكابدن و لم يحاولن الوقوف في سنة مبكرة جداً.

مـــدت ميري يديها إلى الطفلة في اللحظة التي كانت فيها المراقبة قصيرة الأناة، توشك أن ترميها فيها على ظهر موجة.

قالـــت المراقبة: "نعم، خذيها. خذيها بعيداً. أي طفلة هذه؟" ثم ابـــتعدت، لتظهـــر اســـتياءها أمام غيرها من بنات جنسها؛ أي أصغر الإناث اللواتي لم يعدن أطفالاً.

كانـــت الطفلة بين ذراعي ميري مليئة البنية، وحملتها بصعوبة. لما كانت ميري حُبلى، فهي تملك الحليب. المألوف أن تكون أثداء الإناث مليـــئة بالحلـــيب، فهن يرضعن أي طفل موجود في الجوار، بحاجة إلى الرضاعة، إذ لم تكن آنذاك مشاعر مثل: "هذه لي"، أو "ليس لي" وسط أولئك الناس القدامى. إن قوة التملك، حسناً، لا بد أن تأتي من مكان ما، طالما أن وجودها واضح، وأنها موجودة معنا دوماً حسب ما نعلم. دومـــاً؟ أولـــئك الناس الذين عاشوا قبل عصور طويلة، الناس الأوائل، الإنـــاث، لم يفكـــرن، أو لم يفكرن كثيراً، في أمور من مثل "لي" أو "لك". هذا هو رأيي.

جلست الفتاتان وسط بنات جنسهما، وسط الأقرباء، كعادتهما دوماً، فيما نظرت الأُخريات إليهما، بما فيهن الإناث المسنّات، اللواتي كـــن مـــستلقيات كحـــيوانات بحرية رخوية ضلّت طريقها. وكانت نظراتهن المسددة صوب الفتاتين، نظرات عدائية.

ذهـــبت الفتاتان في تلك الليلة إلى أحد الكهوف الفارغة، كأنهما ناقـــشتا الأمر وخططتا له. لم يكن في وسعهما مشاركة الأُخريات في كهـــوفهن، ولم يكن هناك سبب يدعو إلى ذلك. فالكهوف الفارغة لا تعد ولا تحصى، والناس الذين يحتمل أن يكونوا ساكنين فيها، كانوا في الوادي وراء الجبل. كان هذا الكهف على حافة جرف، ويطل إطلالة مباشـــرة علـــى الشاطئ. ويمكن من فتحته مشاهدة فتحات الكهوف الأخـــرى. في وسعهما الدفاع عن نفسيهما دفاعاً جيداً في هذا المكان. يا لها من فكرة حزينة، خاصة أنهما لم تفكرا مسبقاً بمثل هذا الأمر.

امـــرأتان شـــابتان، كلـــتاهما حبليان، وطفلة ميري الأولى التي اســـتعادتها من المراقبة، وهي تعدّ أول طفل من الجنس الجديد، كانت توشك أن تُترك كي تنجرف بعيداً على ظهر موجة كبيرة.

عـــندما انـــتفخت المرأتان انتفاخاً شديداً بسبب الحمل الجديد، توجهـــتا إلى النساء المسنّات، الإناث، وقالتا لهن إن الطفلين الجديدين ســـيكونان، عند ولادتهما، شبه مسخين، تماماً مثل طفلة ميري الأولى التي أسمتها: "الطفل الجديد". غير أن العيون المسنّة الماكرة حدّقت إليهما وحملقت فيهما، وبدت الوجوه، المسنّة أيضاً، تعبس امتعاضاً، لكنهن لم يتفوهن بشيء.

كان الشيء الذي حدث بعد ذلك مفاجئاً وعنيفاً. فقد أنجبت اثنـــتان من الإناث الشابات ولدين مسخين في الوقت نفسه. كانتا فـــوق الصخور القريبة من البحر. وصاحت بهما النساء المسنّات أن تـــرميا الطفلـــين الجديـــدين في البحر. لكن أستري وميري كانتا موجودتين في الجوار، تماماً في الوقت نفسه الذي تخلصت فيه أمهما مـــنهما، وهمـــا تـــصرخان صـــرخات تنم عن نفور وخوف من رضيعيهما. أمسكت ميري، وكانت تحمل "الطفل الجديد" بإحدى الذراعين، وبالطفل المسخ حديث الولادة بالذراع الثانية. أما أستري فقد اختطفت الطفل الثاني، وهرعت الاثنتان، بأسرع ما تستطيعان - تذكـــروا أن ذلك الركض لم يكن معروفاً عندهما - إلى صخرة المـــوت. كان هناك نسران يحلقان هابطين من أعلى الجبل. جاءت بعض الإناث الشابات من الساحل، واحتشدن لمراقبة النسرين عندما يلتقطان المسخين الجديدين.

وقفت أستري وميري عند حافة صخرة الموت، هادئتين، رابطتي الجأش، على الرغم من أنهما كانتا في وضع خطر.

ثم بـــدأت الفـــتاتان تخبران الإناث الشابات بقصة المسوخ الذين يعيشون في ذلك المكان، وراء الجبل. وقالت ميري وأستري إن أولئك الأنـــاس بـــشر مثلـــنا، لكنهم يتكلمون ببطء لأن هذه الأفكار صعبة وعسيرة الفهم. هم بشر، باستثناء أن لديهم في مقدمة أجسادهم أعضاء تـــصنع الموالـــيد الجدد، وهذا هو الهدف منها. هكذا تكلمت ميري، وهكذا تكلمت أستري، وهما واقفتان في ذلك المكان، أمام الأُخريات، يواجهن نظراتهن العدائية، ووجوههن المتوعدة.

أمـــضت الاثنـــتان وقتهما في المدخل المؤدي إلى كهفهما العظيم ذلـــك الكهف جيّد التهوئة، بأرضيته الرملية النظيفة، وجدرانه المتألقة بـــصخور بلورية تنتشر في المنطقة. ويمتلئ الكهف بضوء الشمس عند غـــروبها، لأن تلك الكهوف كانت تتجه غرباً؛ وهي كلمة أو فكرة، غـــير معـــروفة عند أولئك الناس - عندنا نحن - منذ... حسناً... في وسعي أن أقول منذ آلاف السنين، وما من أحد سيناقضني.

كانـــتا في ذلك المكان، بدلاً من أن تكونا داخل الكهف البارد، لأن في وســـعهما مشاهدة ما يجري في الأسفل، على الشاطئ، شاطئهما. لقد كان الساحل ساحلهما، لكنهما الآن تشعران بالوجل. فالفتاتان، وكلتاهما حبلـــيان، ومعهما الطفلة الرّضيعة؛ "الطفل الجديد"، يمكن لكل شخص أن يشاهدهم إذا ما اختار النظر إلى الأعلى، وكانت النظرات عدائية. وكانت الفـــتاتان تـــدركان أن تلـــك الإناث اللواتي يعشن في الأسفل، قريباتهن، يـــشبِهْنَهُنَّ، ومن جنسهن، وأنهن كن كسولات، فلا يراقبن مراقبة منتظمة ما يثير خشيتهن، أي: ميري وأستري. كان كسل أخواتهن يعني أن ميري وأســـتري بمـــأمن مـــنهن. الأخوات: إن الإناث لسن مجرد قريبات، بل أخـــوات. يمكن أن تكون لكم أخوات، من دون الأُخوان، على الرغم من أن كلمة *أخوات* تنطوي على معنى ما يدل على العكس.

يـــا له من مشهد كسول، هناك على تلك الصخور. فالإناث قد يـــستلقين ناعـــسات من بداية مدٍّ عالٍ إلى أن يرش المدّ التالي أقدامهن بالمـــاء الـــبارد. ثم يتـــثاءبن، وينـــزلقن إلى الأمواج، ويسبحن قليلاً، ليرجعن بعد ذلك إلى الصخور حيث يسترخين.

كانـــت مـــن فوقهن جميعاً فتحة الكهف، حيث كانت الأختان العنـــيدتان، أستري وميري، تجلسان تدلّلان الرضيعة، "الطفل الجديد". احتضنتا هذا الطفل وهدَّأتاه، أكثر مما تفعل أي واحدة منهما ذلك مع أي طفل آخر. لكن الأطفال الصغار، الذين ولدوا سابقاً، لم يبكوا و لم يتـــضايقوا، على عكس هذا الطفل. حاولتا إسكاته، لأنهما لم ترغبا في شدّ اهتمام أخواتهن الموجودات في الأسفل. إلاّ أن الطفل واصل البكاء، وكان صوته يضرب على تلك الأعصاب المستكينة الهادئة التي لم تشعر من قبل بالانـــزعاج أو القلق.

مـــا هـــذه الأُنثـــى الجديدة التي تحوي في أعماقها مادة الذكور؟ فالأطفـــال لا يبكون إلا إذا كانوا جائعين، أو يريدون أن يوضعوا بين الموج، أو السماح لهم بالسباحة قليلاً، هؤلاء الناس يستطيعون السباحة حـــتى قبل أن يتعلموا المشي، لذلك فهم يرتاحون في الماء. الأطفال لم يـــبكوا عادةً. لكن في وسع هذه الطفلة أن تجهش بالبكاء، وأن تولول أيـــضاً، كأن قلبها الصغير انفطر. هل كانت هي، هذا النموذج الجديد مـــن الإناث، شخصاً جديداً، تدرك مدى غرابة طبيعتها الجديدة؟ كان البكاء أشبه بغمّ كبير. لكن هؤلاء الناس لم يعرفوا الغم في ما مضى، إذ لم يحبّ أحدهم الآخر حبّاً عنيفاً شاملاً، و لم يقولوا: "لا أريد إلاّ إياها، تلك". و لم يرغبوا في سماع من يقول: "لا أريد إلاّ تلك".

ولـــولا *تلك فقط*، ولولا الرغبة والشوق إلى الآخر، والى الآخر وحده، لما ظهر نوع من الغمّ.

غـــير أن هذه الطفلة بدت منبوذة، تفتقر إلى شيء ما. وشعرت الفتاتان بعاطفة جديدة تجاه "الطفل الجديد"، بسبب بكائه.

الأفكار، والعواطف، والكلمات، والآراء التي تعشعش في عقولنا، نحـــن أبناء الجنس البشري، على نحو مريح، وعلى الأقل بلا أي جهد، بـــدأت تقدم نفسها الآن إلى هاتين الأنثيين الشابتين، فأصبحتا قلقتين ومضطربتين، وهما تجلسان عند فتحة كهفهما.

عما قريب سيصبح هؤلاء الثلاثة، المرأتان وطفلتهما، خمسة أفراد بعـــد أن يولد طفلان آخران. وهم شيء جديد في عالمنا، شيء جديد، لكـــن يمكـــن أن يغيبوا عن الوجود بسقوط صخرة، أو بعدو يزحف إلـــيهم... عدو؟ ما معنى هذا؟ العدو هو من يريد إلحاق الأذى بكم. كانـــت الإنـــاث في الأسفل، اللواتي يغالبن النعاس فوق صخورهن، وبخاصة المسنّات منهن، هنّ العدوّات.

كانت الفتاتان تذهبان إلى الجزء الخلفي من الكهف الطويل ليلاً، تحـــت جنح الظلام، عندما يكون القمر غائباً، وتتخذان موقعيهما وراء طبقات بارزة من الصخور، كل ليلة وراء صخرة مختلفة، إذ يسهل على شـــخص ما إن يأتي زاحفاً، لا يراه أحد، ولا تبرز له أي انعكاسات في مدخل الكهف بفعل النجوم. ثم ماذا؟... هل تأخذان حجارة و...

هذه الأفكار الجديدة لم تكن موضع تفكير.

فكّـــرت الاثنتان طويلاً بخصوص الآخرين الموجودين في الوادي فهم آباء "الطفل الجديد"، والطفلين اللذين لم يولدا بعد، والمسخ الصغير الـــذي أخذتـــه أستري إلى الوادي. آباء... كلمة لم يكن أحد يحتاج إلـــيها، إلاّ أنهـــا تتردّد مقابل صوت الأمهات. لو لم تكن هذه الإناث أمهـــات، فمـــا هنَّ إذاً؟ إنهن أمهات الإناث والمسوخ، أمهاتنا كلنا، أمهاتنا القدامى.

خـــذوا فـــتىً صـــغيراً، وفتاة صغيرة، وغطوا الجزء الأوسط من جسديهما، عندئذ لن يتمكن أحد من أن يجد الفرق بينهما، لكن الفتاة ستصبح أمّاً، والفتى أباً. يا لها من أمّ تلك التي عرفوها، فالإناث لديهن قـــدرة يفتقر إليها الآخرون، فهن يستطعن تكوين أناس جدد. إذاً، ما الأب؟ يمكـــن القول لأي فتاة شابة تريد أن تستمع، أو حتى لأي امرأة مسنة، إن هذه الأنواع الجديدة من الأناس تكوّن الأطفال الجدد، إلاّ أنه يـــصعب القـــول ما الشيء الذي يضيفه الآباء إلى المزيج، وهو الشيء الموجـــود هناك، بين ذراعي الفتاتين، قريباً من جسديهما، طفلة ميري، "الطفل الجديد".

قـــد نفكّر أن الفتاتين تخططان لأخذ "الطفل الجديد"، والانطلاق بـــه إلى مـــا وراء الجبال، باتجاه الوادي؛ وهي مسافة قصيرة، على كل حـــال، إلاّ أنهما لم تفعلا ذلك. كان الصمت هو الدافع الغريب. فما وراء الجـــبل ثمـــة أخوة، إن كانت الإناث في الأسفل أخوات. وهناك آبـــاء. لم يكـــن هناك رجال مسنون وسط الصبيان، لا يوجد ذكور مسنون. حسناً، ذلك سهل تماماً، إذ لم يكن هناك وقت كاف لتكوين رجـــال مسنين في الوادي. شبان - مسنون. أمر سهل. أنا - الإناث، هم - الأناس الذين أطلق عليهم يوماً ما اسم الوحوش.

أطلـــق مجـــيء هؤلاء الأناس الجدد مقارنات في الأذهان، ولكل فكرة، فكرة أخرى.

أمـــا الآخرون الموجودون في الوادي، فقد تلهفوا إلى الفتيات. وتوقعوا حضورهن سيراً على الأقدام من الجبل في أي يوم. شيدت نقـــاط مراقبة للترحيب بهن إذا ما حضرن. وكانت هنالك النسور أيضاً التي تلاحظ كل شيء. في بعض الأحيان كان الصبيان يزحفون على امتداد التلال الصخرية، كي يتمكنوا من رؤية الساحل. كانوا

يـــريدون مـــشاهدة مـــيري وأستري، إلاّ أنهم لم يعرفوا أي إناث أخريات.

لم يعـــرف الذكور أن رغبتهم الجائعة، وحاجاتهم، كانت صوت أعضائهم الموجودة في مقدمة أجسادهم، لكنهم شعروا وكأن أنفسهم كلـــها هـــي التي كانت ترغب وتريد. قاتلوا بعضهم من دون سبب وجـــيه، واخترعوا ألعاباً، تنافسوا فيها منافسة خطرة في بعض الأحيان. ولّمـــا وجـــد أحدهم أن ثمّة ما يُعيق لعبه، أخذ بعضاً من ريش النسور وغطى به عورته. بدأوا كلهم يتنافسون في صنع أجمل المآزر، وسرعان ما وضعوا تلك المآزر المزينة على أجسادهم، وكانوا عباقرة في التفكير بصنع مآزر جديدة.

ثم حدث شيء غير متوقع؛ توفي اثنان من أكبر المسنين. أي اثنان من أول الذكور المسوخ الذين شوهتهم الإناث تشويهاً فظيعاً. وكانوا قـــد شاهدوا وصول أطفال صغار مثلهم، غير مشوهين، وغير مصابين بـــأذى، حملـــتهم النسور، ثم جاء آخرون منهم برفقة الفتيات. عقدوا المقارنـــات، وعلمـــوا أنهم غير مكتملين، دميمي الخلقة، وكذلك علم الآخـــرون، وأبعد موتهما مصدراً من مصادر المرارة والقلق ولم يدركوا إلا بعـــد أن ابـــتعد، أن ابتعاده كان الأفضل. كما ذهب معهما شيء آخـــر، ألا وهـــي لغة الأطفال التي أتيا بها، وعلّماها للأطفال الأولين. للكلام أسلوبان، الأول طفولي، والثاني هو اللغة التي تعلّموها من فتيات زائرات. وبذهاب هذين الاثنين، لم يبقَ الشيء الكثير من كلام الرضّع. وتكلّموا في ما بينهم باللغة التي تتكلّم بها ميري وأستري. كانا فخورين لأنهما تركا وراءهما ثرثرة طفولية.

شعرت الفتيات أنهن مهددات. نعم، لقد أحضرت النسور إليهن المسخين الصغيرين الجديدين، وكانا قد كبرا في رعاية الغزالة، لكن...

ماذا سيفعلن إن مات عدد أكبر منهم؟ كنَّ في وضع غاية في الإحراج. ففـــي بعض الأحيان كانت الحيوانات تُغير خارج الغابة، وفي أكثر من مرة اختطفت أحد الصبيان. وفي أوقات مختلفة انجرف صبيان مع النهر. كان عددهم قليلاً جداً. ذلك هو وضعهم. إذا كان ممكناً موت اثنين، دونمـــا ســـبب - إذ لا يزال أمامهم الوقت لاستيعاب فكرة التقدم في العمـــر - فلمـــاذا لا يموت الجميع فحسب؟ فالمدوّنات التي بين أيدينا تحدثنا عن خوفهم.

وضعوا مراقبين ليلاً، لمراقبة أي حيوانات تخرج من بين الأشجار، وصـــنعوا أكـــواماً من أسلحة يمكن أن يصلوا إليها بسهولة. وكانت الأســـلحة عـــبارة عـــن حجارة؛ في وسعهم جميعاً استعمال الحجارة لإســـقاط الطـــيور نفسها أو الحيوانات الصغيرة. يستطيعون أن يرموا بالهـــراوات والعـــصي، ويستطيع عدد منهم أن يغلب حيواناً متوحشاً صـــغيراً، إذا ما اجتمعوا عليه. لكنهم كانوا يعلمون أن بعض الوحوش التي تعمل معاً يمكنها أن تندفع إلى واديهم، وأن تخطفهم كلهم، وليس في وسعهم عمل أي شيء.

عـــندما جاءت الفتيات ينـــزلن مسرعات من الجبل، رحبوا بهن معانقين ومحذرين أيضاً؛ فلا بدّ من الانتباه إلى الحيوانات المفترسة.

ســـارت الـــزيارة على ما يرام. وفرح الصبيان، وفرحت البنات أيضاً، ثم عدن فجأة إلى ساحلهن. وهناك لجأن إلى كهوف بالقرب من ميري وأستري، فاتضح أن هناك مجموعتين الآن بين الإناث.

ففـــي الوادي، وبعد أن رحلت الإناث، لم يعد يُشاهَدُ إلاّ عدد قليل من الأولاد، كما فُقد اثنان منهم، مذ خرجا صوب الغابة بحثاً عن فاكهـــة مرغوبة، فهاجمهما حيوان كبير، لم يسبق لهما أن شاهدا مثله. هربا، لكنهما لم يكونا سريعين، ولم يرجعا إلى الوادي.

تسكّع الصبيان قرب جذع الشجرة العظيم وهم يراقبون بملع حافات واديهم، وفكّروا إن كانوا يستطيعون الركض فوق الجبل، ويصلون إلى الشاطئ لإقناع بعض الإناث الأخريات بالعودة معهم.

ثم جاء نسران يحملان طفلين حديثي الولادة، طفلين جائعين. لم تحدث أي زيادة في عددهم لبعض الوقت. وهذان الطفلان يعوضان عن الاثنين اللذين اختفيا في الغابة. كيف السبيل إلى إطعام هذين الطفلين الجائعين؟ فالغزالة العجوز لم تُشاهَد في الجوار مؤخراً. بقي النسران اللذان أحضرا الطفلين في مكانيهما، يراقبانهما وهما يبكيان بصوت عالٍ فوق العشب، ويضعان قبضاتهما الصغيرة في فميهما. كانت الإناث كلهن يملكن الحليب في أثدائهن، لكن هؤلاء الإناث لم يكنّ يملكن شيئاً منه. وهنا ظهرت الغزالة العجوز للعيان، قادمة من طرف الغابة، ووقفت تنظر إلى الطفلين الباكيين. صاح الأولاد صيحة فرح، انقلبت إلى صيحة ذعر، فقد لاحظوا أن ضروع الغزالة قد ضمرت وجفت: لم يعد لديها حليب، فقد شاخت حقاً. وكان خطمها وأذناها قد أصبحت رمادية اللون. رفعت رأسها، ونظرت نظرة طويلة إلى الصبيان، وإلى النسور. ثم سارت قليلاً بين الأشجار ونادت. ساد صمت طويل، فيما الطفلان الصغيران يولولان. نادت ثانية، ثم استدارت ليحيّي غزالتين صغيرتين، خطماً بخطم. بدا أنها كانت تخبرهما بما يجب أن تفعلاه. كانت الغزلان الثلاث تقف قريبة بعضها من بعض، ثم جاء غزالان صغيران، كانا يشعران بالخوف، ووقفا قرب الغزلان الثلاث. ذهبت الغزالتان الصغيرتان نحو الطفلين ووقفتا إلى جانبهما، ونظرتا إلى الغزالة الكبيرة – التي يحتمل كثيراً أن تكون أمهما – ثم نظرتا إلى الطفلين، وأخيراً نظرتا بعيداً إلى حيث يقف الأولاد وهم يراقبون. بدأت الغزالتان تَرضعان. عندما جاءت الغزالة الأولى،

العجوز، لإنقاذ الأطفال للمرة الأولى، فقدت غزالتها الصغيرة. لا بد أن ذلـــك هو السبب. استلقت بجانب الطفلين لإرضاعهما. لكن الغزلان الصغيرة لا تستلقي على الأرض للرضاعة، بل تقف تحت الأم.

زحـــف أحد الأولاد إلى إحدى الغزالتين، كي يضطر الغزال الـــصغير إلى الابتعاد، والتقط أحد الطفلين الباكيين، ووضعه تحت الضرع الذي كان الحليب يقطر منه. تمكن الطفل من الإمساك به، ورضـــع قليلاً، غير أن الغزالة لم يرقها ما كان يحدث، لم يرق ذلك لغزالها الصغير أيضاً. وقبل أن يبتعد الغزال الآخر، أمسك الولد نفسه بالطفل الجائع الثاني وقرَّبه من الحلمة. وبهذه الطريقة تمكن الطفلان من الحصول على كمية من الحليب. لكن على الرغم من أن الغزالة العجـــوز جـــاءت مباشرة قرب الغزالتين، ولاطفت الطفل الأول، والطفـــل الـــثاني مـــن بعده، إلاّ أن الغزلان قررت، على ما يبدو، الاستـــسلام، وبدأت بالابتعاد. لكن قبل رحيلها، التقط الولد وعاءً مصنوعاً من ثمرة اليقطين، وترك قطرات الحليب تنـــزل فيه، وفعل الـــصبـــي الثاني الشيء نفسه. وبهذا أصبح لديهما كمية قليلة من الحليب في الوعاءين.

تحركت الغزالة العجوز ببطء ودخلت الغابة. وشاهد الجميع أنها عـــرجاء، وأنها لا تستطيع رفع رأسها، بل كان يتهدل دائماً. كما أن الجـــزء الأبيض من ذنبها لم يكن يتأرجح مثل ذنبـــي الغزالتين الأصغر سناً، بل كان ذابلاً، متدلياً إلى أسفل.

لم يحظَ هذان الولدان بأي أمومة كانت، لكن الغزالة العجوز، التي كانـــت تعـــرج وتبـــتعد عـــنهما الآن، هي التي داعبتهما ولعقتهما وأرضـــعتهما. وصدر عنهما نحيب بدا للحظة من الزمن أنه أعلى صوتاً من بكاء الطفلين.

ما الذي سيفعلانه الآن؟ أدرك النسران صعوبة الأمر، ومزقا قطعاً صـــغيرة من سمكة حاولا أن يدخلاها في فمي الطفلين الفاغرين بسبب البكاء.

لكن وراء الجبل امتد الساحل حيث كانت تعيش الإناث بأثدائهن المملـــوءة بالحلـــيب. ومن فوق الجبل ركض الولدان هابطين إلى الجهة الأخـــرى، ومرّا أمام صخرة الموت، ووصلا بقية الصخور المطلة على الإنـــاث اللـــواتي ينعمن بأشعة الشمس. ومن فتحة الكهف الممتد إلى الأعلى مباشرة، شاهدهما المرأتان المنعزلتان ونادتهما. وفي الوقت الذي كانـــت فيه الإناث المسنّات يوشكن على الاعتدال في جلستهن، وربما حـــتى الهجوم، وصل الولدان إلى الكهف حيث توجد ميري وأستري. وعلـــى الفـــور عرفا أستري التي سبق أن شاهداها حبلى، إلاّ أنهما لم يتعرفا إلى ميري في بادئ الأمر. كانت مهمتهما العاجلة قد جعلتهما لا يـــتخذان جانب الحيطة، فانحنيا إلى الأمام للإمساك بالأثداء التي ستنقذ الحياة، نعم، ففيها حليب. أدركت ميري وأستري سبب مجيء الولدين، وفكرتا بحال الطفلين الرضيعين اللذين أرضعتهما الغزالتين.

سألت ميري:

– ماذا تفعلان؟

ثم سألت أستري، فرد الولدان:

– حليب. نحن بحاجة إلى حليب.

حدث تغيّر وسط الإناث الشابات. لا يرجح أن تستجيب الإناث اللـــواتي قفلـــن راجعات من الوادي، لكن معظم الأخريات زحفن إلى فـــتحة الكهـــف واستفسرن من ميري وأستري عن المخيم الموجود في ذلك المكان، وتحدثن إلى الفتيات اللواتي رجعن مؤخراً. لكن مهما كان نـــوع الاهتـــياج الذي ثار في ميري وأستري فإنه ثار في أعماق هاتين

الأنثيين الشابتين. يمكننا أن نسمي ذلك حب استطلاع، لكن ربما هناك ما هو أكثر من ذلك. لكن كيفما كان ذلك، فإن المبعوثين القادمين من الوادي وقفا هناك، يحدقان إلى أسفل، خائفين، على استعداد للهروب، نهضت أولاً فتاة واحدة، ثم الثانية، من مكانها فوق الصخرة الدافئة وبدأتا تتسلقان للوصول إلى الكهف، حيث ميري وأستري تراقبان، كعادتهما، إذ أخبرت الأولى الفتاتين عن الموقف. كانت للاثنتين من الفتيات أثداء كبيرة، لعلهما والدتا الطفلين الصغيرين اللذين كانا يصرخان في تلك اللحظة فيشق صوتهما الوادي.

قالت ميري وأستري:

- اذهبا معهما.

وفي لمحة سريعة لم يعد في الكهف سوى ثلاث فقط: ميري وأستري و"الطفل الجديد". أما الشابتان والمبعوثان فقد استحثوا الخطى وسط الصخور. كانوا يحاولون الركض، أولئك الناس الذين لم يركضوا في حياتهم.

كانت الفتاتان خائفتين؛ حقاً كانتا خائفتين. فقد كانتا تسيران دوماً إلى الجهة الأخرى من الجبل، الذي مثّل عائقاً دوماً يقع في نهاية عالمهما. ثم وصلتا إلى الجبل وتسلقتاه، ووقفتا بين أعشاش النسور، تنظران إلى الأسفل، صوب الوادي الفسيح، الذي يمتد بمحاذاة نهر متدفّق. هبطتا سفح الجبل، يساعدهما الولدان المبعوثان على الهبوط لتجدا نفسيهما بعد ذلك وسط المسوخ، وقد كبروا الآن أو، على الأقل، توازي أحجامهم حجميهما. وهناك دفعوا لهما الطفلين، وكانا مسخين، فاضطرتا إلى كبت نفورهما، بل خوفهما أيضاً.

تشبث الطفلان بهذه الأثداء، تماماً مثلما تشبثا، من قبل، بضروع الغزلان، وطفقا يرضعان فيما وقف الفتيان من حولهما؛ إذ لم يشاهد

أحـــد مـــنهم طفلاً من قبل وهو يرضع من ثدي. عندما شبع الطفلان أخذهما الولدان ووضعاهما داخل ملجأ كي يأخذا قسطاً من النوم. عند ذلك قدّم الأولاد للفتاتين ماءً من النهر، وبعض الفاكهة، وبعض البيض المطهو داخل حجارة مجوفة وضعت تحت أشعة الشمس.

ثم بـــدأت الألعـــاب التي أخبرتهما بها ميري وأستري. وهي لعبة الذكـــر والأُنثى. وبدأت اللعبة بداية سريعة، عاجلة، ثم بعد أن شبعوا جميعاً بدأت لعبة حب الاستطلاع. "ماذا لديك هنا؟"، "ما هذا؟"، "ما فائـــدة هذا؟"، "وأنت، ما هذا؟"، "هل في وسعي اللمس؟" واستمرت اللعبة، بعد أن تلاشى خوف الإناث من المسوخ وبدأن يستمتعن.

أمـــا بخصوص المسخين أو الذكرين الجديدين، فقد انتعشا وكبرا وازداد صخبهما، شأنهما شأن "الطفل الجديد" في الكهف برفقة ميري وأستري.

عـــادت الفتاتان عندما حان موعد رجوعهما إلى الساحل، بعدها أنجبت ميري وأستري، أُنثى وذكراً؛ وكانت تلك الكلمة غير مستعملة بعد.

كانـــت النـــساء المسنّات مخيفات، غاضبات، وحتى حقودات. وأوضحن بأن على كل أُنثى توشك على الإنجاب أن يكون إلى جوارها حارس أو مراقب، ينبغي له أن يقتل كل مسخ صغير حال ولادته.

نجحن في قتل أحد الأولاد الصغار، وسرعان ما لاحت النسور في الأفـــق، هابطة فوق رؤوس الإناث الخائفات. ثم أمرت النساء المسنّات بقـــتل النـــسور. غـــير معقول. كيف السبيل إلى قتل النسور؟ عندما التقطت أُنثى حجارة عن الساحل ورمتها على نسر جالس، انـــزلقت الحجـــارة على منحدر ريشه اللامع. وهنا قذف بها النسر وسط الموج بعـــد أن حملـــها بمخالبه. لكنها سبحت، إذ كانت كل واحدة تعرف

الـــسباحة، غـــير أن الطير الضخم تربع فوق الصخور في المكان نفسه الذي كانت الأنثى تريد أن تتسلقه للخروج من الماء، ودفع بها إلى الماء ثانـــية. عـــندما ذهبت إلى نقطة أخرى للخروج، تحرك الطير بدوره. كانـــت توشك على الغرق بسبب الإعياء، عندما حلق النسر أخيراً في الجـــو تاركـــاً أرضها. راقبت الإناث هذه المعركة الصغيرة، والخوف يملأهـــن بسبب ما يمكن أن تنطوي عليه الأمور، فكل شيء بدا جديداً ورهيـــباً. قـــتال... ضـــغينة... عقاب. اعتدلت الإناث المسنّات في جلـــستهن كـــي يـــشاهدن على نحو أفضل، فاغرات أفواههن ذعراً، وعيونهن الصغيرة المنتفخة مفعمة بالكراهية.

لا بد أنهن أدركن أن لا فائدة تُرجى من محاولة قتل نسر. فقد كانت الطيور عازمة على الحيلولة دون قتل طفل آخر. ثم كان هناك مدافعـــون آخرون. فالفتيات اللواتي عدن مؤخراً من الوادي، كن يـــتفقن في تفكيرهـــن مـــع الذكور. ولكن بدا المخاض والولادة وشيكين، تهيَّأوا لالتقاط الطفل عند ولادته، وتسليمه إلى النسور التي كانت تنتظر.

تضاءل عدد النوع القديم من الإناث باستمرار. كم؟ لم يقلن أي شيء – أو لم يكن ذلك مدوناً –" كان عددنا ستين فأصبحنا أربعين"، أو حتى "كنا كثيرات والآن قليلات". ولم يقلن "كانت الكهوف كلها ذات يـــوم مملـــوءة، والآن نصفها مملوء". إن كلمة نصف تعدّ مفهوماً نقبله. لماذا يقبلنه هنَّ؟

وفي مـــنطقة الذكور، تمت العناية بالأطفال الجدد، وانتظر الجميع وصول آخرين، تحملهم مخالب النسور.

تحدثت ميري وأستري، في أثناء حملهما، عن الذكور وهباتهم للحـــياة، وهي هبات تختلف عن هبات الإناث. فكرتا في الوادي؛

نعـــم، في وسعي أن أقول، فكرتا فيه بحنان، على الرغم من أنهما لم تـــستعملا تلك الكلمة أو أي كلمة أخرى مشابهة. وما إن تجاوزتا الولادة، حتى أصبحتا على استعداد للرحيل. لم تفكرا منذ عهد بعيد بالـــرحيل، لكنهما أصبحتا مضطرتين الآن إلى الذهاب. لا بدّ من ذهابهما. ففي خضم كل هذه الأسرار يصبح الرحيل مهماً قدر أهمية أي شـــيء آخـــر. إلاّ أن الـــرحيل ليس سهلاً الآن، إذ لا بدّ من اصطحاب طفل أستري هذا إن لم ترغبا في إيداعه عند أحد النسور. ولم يكن في استطاعتهما ترك طفلة ميري، كما أرادت ذات مرة أن تتركها. فهما لا يمكنهما، على وجه التحديد، ترك الطفلة الجديدة التي تمشي بخطىً وئيدة، قلقة على الساحل. كانتا تعلمان أنها ستظل على قيد الحياة عندما تعودان.

لا بـــدّ أن يرحلوا جميعهم: طفلة ميري وصبـــي أستري و"الطفل الجديـــد". دعت الفتاتان بعضاً من الإناث الأصغر سناً اللواتي أظهرن اهـــتماماً بالـــوادي للذهاب معهن أيضاً. وهكذا سارت أربع شابات، إحـــداهما تحمـــل "الطفل الجديد"، أمام صخرة الموت، حيث لم يوضع عليها أحد كي يموت منذ زمن طويل، وانطلقوا جميعاً إلى أعلى الجبل. عـــندما وصلوا القمة تناهت إلى أسماعهم أصوات صرخات وصيحات مـــن قعر الوادي، وجاء الأولاد لتحية الفتيات اللواتي اضطررن للدفاع عـــن أنفسهن، وإلاّ تعرضن للاغتصاب (وهذه كلمة ومفهوم لم يظهرا لمدة لا بأس بها). وبعد أن وقوا أنفسهم من الصبيان الجائعين وصلوا إلى قعـــر الوادي، وإلى جذع الشجرة الكبير. وهناك حدث شيء يوضح، على نحو مناسب، الإحساس الجديد بأن في هذا المكان بدايات جديدة رُويـــت في مـــدونات كـــلا الفريقين، ووصلتنا بوثائق باهتة، تصعب قراءتها، نسميها تواريخ.

كـــان تزاوج ميري الأول مع واحد من الذكور، لا تتذكر وجهه آنـــذاك، ولا تتذكره الآن، بينما هو يقترب منها ويعرفها. لكن الطفلة الـــتي أثمرت عن ذلك التزاوج موجودة هنا بين ذراعيها وكان يصعب تجاهلها. أما وجهها، وجه هذه الطفلة الصغيرة، فيشبه وجه ذلك الذكر الـــشاب. يـــستحيل عدم ملاحظة ذلك. فقد لاحظ الجميع ذلك. ساد صمت في البداية، على نحو مفاجئ، عندما اقترب الجميع لمقارنة الوجهين، أحـــدهما وجه بنت أو أُنثى، والآخر وجه شابّ. لم يفهم صاحب الوجه الـــبالغ، رفيق ميري الأول، ما يدور من حوله مباشرة. فالمرايا لم تكن قد ابتكرت بعد، ولا فكر فيها أحد. فالناس كانوا يعرفون شكل كل واحد، من دون أن يهتم أحدهم بأنف كبير أو عينين مغمضتين تقريباً. لكن لا بدّ أن كـــل واحد منهم سبق أن شاهد وجهه في صفحة ماء النهر الهادئة، أو حـــتى في صـــدفة كبيرة مملوءة بالماء، على استعداد لتروي ظمأ العطش. وقـــف هذا الشاب الذي كان ذات يوم مسخاً، وتحول الآن إلى شابّ وسيم، يشير إلى وجهه، ثم يلمس وجه الطفلة التي كانت مسرورة لهذا الاهـــتمام الـــذي تتلقاه. وعندما أدرك الأب ما يعنيه هذان الوجهان المتـــشابهان، خطف الطفلة من بين ذراعي ميري وهرع إلى ضفة النهر. لحق الجميع بهما، وهم يراقبون الشاب يجثم إلى جانب النهر الذي كوَّن بـــركة ماء، ثم نظر إلى الأسفل، إلى نفسه، والى الطفلة، حيث انعكس وجهاهمـــا على سطح الماء. ثم أعاد الطفلة إلى ميري وسار كالأعمى، مترنحاً، صوب الجذع الكبير، وجلس. جلست ميري إلى جانبه، ومعها "الطفـــل الجديـــد"، وظل ينظر إليها، وإلى الطفلة، ثم رفع يديه ليلمس الوجه. كان في دهشة بالغة؛ مثلهم تماماً.

كان هؤلاء الثلاثة أسرة واحدة، وهو ما أصبح يدركه، أما ما الذي كان يعنيه ذلك لهم، فهذا ما لا نعرفه إلاّ عن طريق التخمين.

عندما فرغ الجميع من تناول وجبة المساء، وبدأ الظلام يرخي سدوله فـــوق الـــوادي، ذهبت ميري برفقة هذا الشاب والطفلة إلى أحد الملاجـــئ. واضح أن هناك ما يشبه الصلة بينهم، ولكن ما هي؟ ما معناها؟

ســـألت الفتـــيات اللواتي جئن لمساعدة أستري وميري الشبان، وتحدثـــوا جميعاً عن هذا اللغز العظيم، عن التزاوج الذي يمكن أن يطبع وجهاً من وجه البالغين على وجه طفل.

لم تكـــن الـــزيارة إلى الوادي، التي رُويت، والتي بعد مرور زمن طـــويل قد دُونت، قابلة للنسيان، وقيل الشيء الكثير بشأنها، وهو ما يمكنـــنا أن نـــسميه توقّعات. فالناس الجدد، المسوخ المسنون الأوائل، يملكون قوىً لا تملكها النساء المسنّات. نعم، يمكن لأُنثى صغيرة السن أن تشبه أمها - فهناك أمهات وبنات في الجماعة الأولى - لكن الناس على الساحل بدأوا ينظرون بعناية إلى كل وجه.

في تلـــك المرحلة المبكرة لم تختر أي من الإناث البقاء في الوادي. كان هناك اقتراح يقول أن الوادي دافئ جداً، إن الملاجئ صغيرة وغير مـــريحة. أما الكهوف فكبيرة طلقة الهواء، منعشة دوماً بسبب نسمات البحر.

ذهـــبت الفتيات إلى الوادي عندما اضطررن إلى الذهاب، وعدن وهـــن يعـــرفن أنهن لقاء ذهابهن سينجبن. انتظرهنّ الأولاد، وكانت النـــسور قـــد أخـــذت المسوخ إلى الأولاد، فيما توقفت الغزالة عن إطعامهم، وأحضر الأولاد الإناث. استمر هذا كله، ولا ندري إلى متى؟ وكان نحيب الأولاد بسبب نقص أعدادهم قد توقف. فقد ولد الأولاد بصرف النظر عن السبب.

إذاً، متى؟ من يدري، الآن؟

* * *

لـــدى المؤرخ الحالي صعوبة، ذات صلة بالزمان مرة أُخرى. الزمان الأطول بكثير من الزمان الذي ذكر آنفاً.

لقـــد عمـــدنا نحـــو الـــرومان إلى قياس الزمان، وتخطيطه، والاســـتحواذ عليه، كي يكون مستحيلاً على أي منا القول: "ثم حـــدث وأن مرَّ..." وكان علينا أن ندون السنة والشهر واليوم، إننا نحدّد ملامح الناس، لكن كل ما نعرفه عن الأحداث هو ما قالـــته عـــنها الذكريات المعينة، اللواتي تكلمن مع أولئك الذين تكلمـــوا مـــرة أخرى، وأخرى، عما تم الاتفاق عليه منذ زمن طويل وضرورة تذكره.

لـــيس لهذا المؤرخ وسائل لمعرفة الوقت الذي استغرقته حكاية الإنـــاث كـــي يتم تبنيها. وعندما ذكرت أستري وميري، للمرة الأولى، كانتا من الإناث الصغيرات، كالأخريات، ثم فكرتا في نفـــسيهما علـــى أنهمـــا أنثـــيان عندما جعلتهما حادثة الذكور مضطرتين إلى المقارنة والمماثلة، لكنهما كانتا معروفتين، في معظـــم أجـــزاء المـــدونات، بأنهما من الماضي البعيد. وكان بـــروزهما فـــي الحكايـــات، الذكورية والأنثوية، يتمثل في أن ميـــري أنجـــبت الطفـــل الأول، مما يعني أن كلماتهما سُمعت ودُونـــت. لكـــن ســـرعان ما تحولتا من أنثيين صغيرتين إلى مؤســـستين للأسر والعشائر والقبائل، وفي حقبة ما، وذلك بعد مـــرور عصور طويلة، تحولتا إلى آلهتين يشار إليهما بالبنان. ونحن نعرفهما بأسماء مختلفة، أحدها له صلة بالنجمة الراعية للحـــب ولـــسحر الأُنثـــى، وثانيها، مظهر من مظاهر القمر. تماثيلهما في كل بلدة، وقرية، ومكان، ومفترق طرق. باسمتان، محسنتان، ملكتان عن جدارة واستحقاق.

كـــم من الوقت استغرقت أستري وميري كي تصبحا أكبر من نفسيهما؟ ليست لدينا فكرة.

إلاّ أن هـــناك شيئاً واحداً، على وجه التأكيد. ففي يوم ما، قبل زمـــن طـــويل كانت هناك امرأة شابة حقيقية، ربما يمكن أن يكـــون اسمها ميري، وهناك أخريات، هن أولى أمهات جنسنا، يحملن في أرحامهن أطفالاً هم إناث وذكور، من الناس الأوائل الـــذين خرجوا، حسب الاعتقاد الراهن، من البحر، وأتوا معهم بالقلق وحبّ الاستطلاع.

* * *

جلـــست الفتيات اللواتي ذهبن إلى الوادي ورجعن، كل واحدة مـــنهن حبلـــى، عند فتحات الكهوف، وحرسن أطفالهن الذين كانوا يختـــلفون الاختلاف كله عن البقية. فقد كان هؤلاء الأطفال يسيرون مبكـــرين، ويـــتكلمون مبكرين، وكان لا بد من مراقبتهم كل دقيقة. نظـــرت أمهـــاتهم إلى الأسفل، باتجاه بقية أفراد القبيلة الجالسات على الـــصخور، وعـــرفن أن لأطفـــالهن إرثاً مزدوجاً، ولاحظن أن أطفال الأخـــريات مـــن المـــسنّات كانوا سلبيين، مطمئنين، ونادراً ما كانوا يـــبكون، يـــبقون في الأماكن التي يُوضعون فيها، ولا يكونون مفعمين بالحـــركة والنشاط إلاّ عندما يُوضعون في المياه، حيث كانوا يسبحون من دون وجل.

عندما أرادت الأمهات الجديدات السباحة، كن يذهبن جماعات، يحملن أطفالهن الرضّع، ويلجأن إلى برك ماء لم تستحم فيها بقية الإناث اللـــواتي انقـــسمن إلى قسمين، يراقب كل قسم منهن ما يفعله القسم الآخر.

حدث شيء آخر، قلّما أتت على ذكره المدونات القديمة، إذ سُلّم به تسليماً، مما يعني أن ناراً كانت موجودة هناك منذ زمن بعيد.

كانت هناك نار مستعرة دائماً في الوادي، لا تبعد كثيراً عن موقع الجـــذع، وكان هناك مراقبون يعملون على إذكائها طوال الوقت كي تبقـــى متقدة. وسرعان ما بدأت النيران تشتعل خارج الكهوف. كان مظهـــر هـــذه النيران سبباً من الأسباب للشك في صحة مقياس الزمن الذي سبق اقتراحه.

لا تـــوجد نـــيران أبـــداً - لا على الساحل ولا في الوادي - ثم أصـــبحت هناك نيران دائمة. لا بد أن ظهور النار للمرة الأولى، كان صدمة بقدر صدمة الأطفال الجدد الذين ربما جاؤوا من مكان لا يمكن العثور عليه.

لمـــاذا الـــنار فجأة؟ لقد شاهدوا على وجه التأكيد، وعلى امتداد عدة أجيال، البرق وهو يولّد شرارة في أغصان يابسة عند حافة إحدى الـــصخور، أو أن البرق أوقد مساحة من أوراق جافة، فاحترقت قطعة مـــن خـــشب قديمة، واشتعلت فيها النيران، ربما لأيام. ثم جاء أحد ما يمشي باضطراب وسط الأشجار، فرأى بقعة سوداء فوق أرض متشقّقة فيها بقايا محترقة من حيوانات صغيرة. ربما شاهد شخص ما جرادة وقد شوتها النيران، فأكلها، وشعر بأنها لذيذة. هل حاولوا يا ترى أكل فأر مشوي أو بيضة طير مطهوة في جوف صخرة فيما ألسنة اللهب تمر من فـــوقها؟ لكن ما من مرة واحدة فكّر هذا الشخص، أو أي واحد من هـــؤلاء الأشخاص بأن يحمل قطعة من ذلك الخشب المحترق إلى حيث يـــسكن، حـــيث ستبث الدفء في أوصال الجميع ليلاً، وستطهو لهم الطعام.

ثم فجـــأة تسربت تلك الفكرة بنفسها في أحد العقول الأولى، أو في عقـــولهم جمـــيعاً، واستحوذت عليها، ثم شبَّ حريق هائل في قعر الـــوادي، واشـــتعلت النيران خارج فتحات الكهوف في ملجأ إحدى

الصخور الضخمة، بينما كان السكان الأوائل يتكورون بالقرب منها، لم تكـــن هناك نيران لمدة طويلة من الزمان، ثم شبت النيران، فشويت المكسرات والبيض، وربما الطيور التي وضعت البيض أيضاً.

لـــيس هؤلاء السكان، ليس الذكور الأوائل - الفتيان - بل إن الاسم سيظل مستعملاً، مثلما ظل اسم المسوخ مستعملاً. وبقيت هناك ذكـــرى عن إرضاع الغزالة للمسوخ الصغار، وكيف بثت الدفء في أوصـــالهم. هناك أولاد النسر، وأولاد الغزال. لهذا فإن أي لحم تعرض للشوي في تلك النيران الأولى، لم يكن بأي حال من الأحوال لحم نسر أو غزال.

الآن في وســـعنا أن ننظر بسهولة إلى الوراء لرؤية أولئك الشبان الأوائل، المتحلقين حول النار العظيمة، ونفكّر في ذلك اللغز - الذي لا نعـــرف كيف نجيب عنه - والذي ظل فيه السكان الأوائل على مدى عـــصور؛ عـــصور طـــويلة بقدر ما تشاء، ينظرون إلى النار تنتشر في الأدغال، وتقفز بين الأشجار، فتومض تحت السحب، على نحو مألوف عـــندهم، مثلما هو ماء النهر مألوف عندهم، لكنهم لم يفكّروا البتة في أنهـــم يـــستطيعون ترويضها. لكنهم تمكنوا فجأة من ترويضها في نهاية المطـــاف. ربمـــا كانت كلمة *فجأة* غير ملائمة، ربما تمكنوا *ببطء*. ما الـــسبب من وراء هذه التغييرات التي يصبح فيها الشيء المستحيل شيئاً مـــسموحاً بـــه، بل ضرورياً؟ أقول لكم: "إن التفكير في هذه الظاهرة تفكيراً طويلاً يؤدي إلى توجس يطرد النوم بعيداً، ويجعلكم ترتابون في أنفـــسكم. في أثناء حياتي، أصبحت الأشياء المستحيلة أشياء يقبلها كل فـــرد؛ لماذا؟ لكن لماذا؟ هل فكّر هؤلاء الناس القدامى؟ لقد عرفنا النار بوصفها جزءاً من الحياة في الغابة، لكنها الآن تأتمر بأمرنا؛ كيف حدث هذا؟ لا يوجد سجل لذلك".

لا يـــزال الذكـــور الشبان في الوادي قلقين بشأن عددهم. فتلك الـــنار لم تـــضف شـــيئاً إلى أمنهم. فمخاطر الغابة لا تزال مستمرة: خنـــزير مغير، أو دبّ غاضب، ثعبان لديه الوقت كي ينأى عن طريق تلـــك الأقـــدام العارية، جلمود ينحدر من سفح تل، شخص لم يألف الـــنار، يشعل عدة حرائق في العشب، في أماكن لم تحترق من قبل، ولا يهـــرب مـــسرعاً بمـــا يكفي لتجنب ألسنة اللهيب المتصاعدة، المحيطة بالمكـــان، ســـمّ من نباتات، وقرصات حشرات. والنهر ينساب عميقاً ويجرف بسهولة طفلاً يفتقر إلى الحيطة والحذر.

ثمـــة مدونـــة تفـــيد أن النار دفعت ميري وأستري إلى الغضب والتأنـــيب. فـــثمة طفل كان يمشي على نحو قلق فتعثّر حتى وصل إلى ألـــسنة اللهـــيب. ولم يوقفه أحد في الوقت المناسب. فأخبرتهم ميري وأستري في أثناء زيارتهما لهم أنهم يفتقرون إلى التماسك. فتذمروا لأن عددهم قليل، ولأن النسور لا تأتي بالأطفال إلا نادراً، وهم لا يراقبون أطفالهم الصغار.

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي يؤنبون فيها.

ففي وقت سابق توغلت غزالة صغيرة إلى حافة النهر لشرب الماء، وكـــان يتـــبعها أحد صغارها وكان يرضع. وفيما الغزالة تشرب الماء، وخطمهـــا فيه، تشبّه صغيرها بها، وفعل ما كانت تفعله أمه، فهي أمه، فمال أكثر مما ينبغي فوق الحافة وسقط في النهر.

"لمـــاذا لا تـــضعوا بعـــض الناس لحراسة الأطفال؟ لم لا تقومون بأعمال الحراسة؟".

إن تواريخ الإناث تروي لنا شكوكهن: إنهن لا يدركن، بكل بـــساطة، لا مـــبالاة الصبيان الذين كانوا يرتكبون أعمالاً خطيرة وحمقاء.

ثمـــة ملاحظات في مدونات الإناث تفيد أن الصبيان يفتقرون إلى الكياســـة، يفتقرون إلى الإحساس ببيئتهم، أغبياء، لا يفهمون إن فعلوا شيئاً فإن شيئاً آخر سيتبعه.

لكـــن علـــى امتداد ذلك الوقت، من يدري مدى طوله؟ استمر الـــتهديد علـــى نحو أسوأ من مخاطر الغابة، والنهر والنيران؛ إنه عداء الإناث المسنّات ومقاطعة الإناث اللواتي ساندنهنّ. لدينا سجل لحادثة، تماسكها غير محتمل، لهذا يصعب تأطيرها ضمن بقية الحوادث.

تـــسلقت إحدى الإناث المسنّات قمة الجبل *لترى بنفسها*. لدينا الكلمات نفسها، لكن ما المقدار الذي تكشف عنه؟ أي عقل متشكك ذلك الذي يسمع كل أنواع الوصف من الصغيرات، عن أحداث تجري في الوادي، حيث يكبر المسوخ وينعمون بالحيوية. هذه الأنثى لم تصدق ما كان يُقال لها. هذا واضح. ونحن يصعب علينا وضع أنفسنا في ذلك العقل العجوز الحذر. فقد كانت واحدة من ذلك النوع الذي عاش منذ عـــصور ســـحيقة على حافة ذلك البحر الدافئ، من دون أن تغادره، وكان أفقها العقلي محدوداً بالجبل الذي يحدّ عالمهن. نعم. كانت تنظر دوماً إلى مشهد المحيط، إلى الأمواج، في حركاتها وتقلباتها. لكن كيف نتـــصور عقلاً كانت أفكاره محدودة بحزام ساحلي صخري؟ لم تفعل هـــذه المخلـــوقة شـــيئاً في حياتها سوى النـــزول من كهف النوم إلى الـــصخور، حيث تستلقي للتعرّض لأشعة الشمس، ومن هناك تنـــزل إلى البحـــر، ومـــن البحر تعود إلى الصخور ثانية. قلّما تحركت طوال حـــياتها، إلاّ أنها قررت الآن أن ترتقي الجبل *لترى بنفسها*. هل يا ترى تغلغلـــت قطرة من تلك الحمى، التي غيَّرت إلى الأبد قسماً من الإناث الـــصغيرات، للحظة واحدة في عروقها؟ أم أنها لم تكن تملك أي تصور عن صعوبة تحركها، تلك التي لم تتحرك قط؟

كانـــت المـــشاهد التي عرفتها هي وأسلافها قد تغيرت. فخارج الكهـــوف، حـــيث كانت تعيش ميري وأستري وعدد آخر من النوع الجديد مع أطفالهن، ثمة نار هائلة تستعر. سبق لتلك الأُنثى أن شاهدت ناراً تومض فوق الأمواج، أو تضرب في السماء، أو تشتعل على امتداد قمم التلال الصغيرة المنتشرة وراء الساحل، لكنها لم تشاهد ناراً مألوفة قـــط. كانـــت الـــنيران في الليل عالية تجعل الأسماك وبعض الحيوانات البحرية تخرج إلى سطح البحر، وتحملق فيها مندهشة، لأن ضوء اللهب كـــان يـــزين المـــياه، وفكّرت إن كان القمر أو الشمس ظهرا للعيان بـــدورهما. وقـــد علمت الإناث المسنّات من ضوء النيران المنساب في تجاويف الأمواج، أن ما من شيء عرفنه سابقاً، يشبه هذا الشيء، وأن هـــذه النيران الجديدة تنطوي على مخاطر عليهن، وقد أصبحن يعرفنها الآن.

علـــى الـــرغم من ذلك، أرادت أن ترى بنفسها. تجشمت عناء الـــنهوض على قدميها الضعيفتين الهائلتين، تساعدها الإناث الصغيرات اللواتي بقين مخلصات للأساليب والعادات القديمة، وسارت مترنحة بعيداً عـــن الـــشاطئ الصخري، ووجهت نفسها ببطء، خطوة خطوة، نحو الجبل. لكن قبل أن تتحرك بضع خطوات أخرى، بدأت تتذمّر وتتأوّه. وقبل أن تصل إلى صخرة الموت، اضطرت إلى الجلوس والاستراحة. غير أنهـــا نهضت مرة أخرى، وواصلت السير، وعبرت الأرض الحجرية غير المـــستوية، بعـــيداً عن البحر، الذي يمثلها ويمثل أمنها، وواصلت السير بكـــل ثقلـــها، وبمـــساعدة الأخريات، وإن على نحو أكثر بطئاً، وهي تـــتوقف هنا وهناك. توسلت إليها الصغيرات أن تعود أدراجها، إلا أنها واصلت سيرها، وهو أمر يكفي لإثارة دهشتنا. ربما لأنها لم تكن تملك تصوراً عن السير مثل هذه المسافة، ولهذا استمرت في سيرها.

عـــند أسفل الجبل، تخلصت من تلك الأذرع التي كانت تسندها، وجلـــست تـــتأوه، لكنها سحبت نفسها ثانية، ونهضت. وفي أغلب الأحـــوال زعقـــت النسور من حولها، ورفرفت بأجنحتها مقتربة منها ومبتعدة عنها. فصرخت بدورها بها، لكنها عادت فزعقت ثانية بها، هما عدوّان أراد أحدهما أن يقتل الآخر. ماذا يمكنها أن تظن في هذه الطيور المتسامقة التي تستطيع حمل أنثى صغيرة، بعيداً عن الصخور، ورميها في الأمـــواج؟ كانت الضوضاء التي يحدثها صعودها تثير الهلع، إذ كانت تـــتأوه، وتصرخ، وتستنـــزل اللعنات، وتصرخ صرخات عالية ملؤها الكـــراهية في وجـــه تلك الطيور. كانت تقتلع الحجارة المنتشرة على الجبل، وسط صيحات الإناث الصغيرات. وعند القمة، أصبحت قرب أعشاش النسور، وكانت الطيور العظيمة حولها فوق الصخور، والسماء من فوقها. تريثت فيما أمسكت بها الإناث الصغيرات، وألقت نظرة إلى أســـفل الوادي، لكن ما الذي عساها تراه بعينيها اللتين اعتادتا التركيز في الأمواج وتقلباتها؛ إلا أنها حاولت أن تنظر وأن تفهم.

ثمـــة ملاجئ في الأسفل. غير أنها لم تشاهد مثلها من قبل. كانت مصنوعة من الأغصان، ومغطاة بأعشاب النهر. واستطاعت أن تشاهد حركة مظلمة، فوقها تيجان بيضاء صغيرة، إلاّ أنها لم تعلم أنها نهر ليس إلاّ. قـــيل لهـــا إن ثمة نهراً كبيراً في الوادي، لكنها كانت ترى الأمواج المـــتلاطمة، وعندما كانت الريح عاتية، كانت تغدو الأمواج صاخبة. لكـــن ليس سهلاً التفكير في الماء المحصور بين ضفتين، على أنه ينحدر ســـريعاً مـــن الجبل إلى حواجز الصخر التي كانت تحجب عنها رؤية الأمـــواج. هـــناك أناس، ونار هائلة. لكن الأناس كانوا قلة، إذ كانت تـــشاهد الصخور حولها، وقد افترشتها إناث تستدفئ بأشعة الشمس. كـــان العدد كبيراً في ما مضى، لكنه تضاءل كثيراً الآن. كانت تعرف

أن هـــؤلاء هم المسوخ، لأنه قيل لها إنها ستشاهد أولئك المسوخ. كان بعض الصبيان وبعض الإناث الزائرات قد نـــزلوا جميعاً النهر للسباحة. وكـــان بعض المسوخ الصغار برفقة الآخرين في الأسفل، إلا أنهم كانوا داخـــل الملاجـــئ. كـــان ذلك المشهد في الوادي الذي تخيلته مزدحماً بالـــسكان مخيّباً آمالها، تماماً كما يحدث معنا عندما نتخيل جيوشاً من الأعداء، أو حتى من الحشود وقد تفرقت في ضوء النهار.

وصـــلت هنا، بعد تلك الرحلة الرهيبة فوق الجبل. *لقد شاهدت بنفـــسها*، لكـــن لم يكن هناك من شيء للمشاهدة. فمنظر ذلك النهر الـــذي تعلـــوه موجة عاتية لم يعجبها. ولم تعجبها النيران التي كانت تغذيها أشجار يابسة من الغابة، وكانت ناراً عظيمة في حجمها، ترسل عمـــوداً مـــن دخان يصل تقريباً إلى مرتفعات عالية يطال المكان الذي تقف عليه. لم تستطع النـــزول إلى الوادي بعد أن وصلت إلى هنا، لأن كل شيء شاهدته بدا عدائياً بالنسبة إليها. كانت تشعر بالإعياء، ضنيّة بـــسبب الجهد الذي بذلته. فوقفت وهي تبرّد حرارة جسدها بسعف ذات أوراق ميـــتة، أمـــسكت بها بيدها المكتنـــزة، وولولت. أيقظت جلبـــتها ذلـــك المشهد في الأسفل. راقبت بضعة مسوخ يبتعدون عن مشهد النار ليبدأوا الصعود باتجاهها. ندبت مرة أخرى، لأنها خشيتهم، ولأنها لم تعد تقوى على الحركة. تمالكت فوق الأرض وتأوهت. عندما وصل الشبان، لم يشاهدوا الأنثى المسنّة التي كانوا يعرفون أنهم لا بد أن يخافوا منها، بل وجدوا إناثاً صغيرات لم يعرفوهنّ، فظنوا أنهن قد جئن مـــثلما جاءت الأوليات من الإناث، بنيَّة سليمة، لهذا ابتسموا، ومدّوا أيديهم إلى الإناث المجهولات.

غير أن المرأة المسنّة صرخت، لأنها كانت قريبة جداً من المسوخ، علـــى الرغم من أنهم كانوا يضعون الريش وأوراق الشجر عند الخصر

ليستروا بها ما كانت تخشاه. هربت الإناث الشابات، وهن يصرخن أسفل الجبل باتجاه الساحل، وبهذا باتت المرأة المسنّة وحيدة، النسور الغاضبة قريبة جداً منها، فوق الصخور العالية، وكذلك الأولاد، أعداؤها الذين أقدموا على عمل ما، غير متوقع، بعد أن رأوا أنها عدوّة. تشاوروا، وهم يقفون مجموعةً، ويحدّقون إلى الفتيات اللواتي ابتعدن الآن، بعد أن ركضن نحو الشاطئ. كان ثمة شجرة قديمة على مسافة قريبة، كانت قد سقطت بعض أغصانها. جذب الأولاد غصناً كبيراً يابساً، وسحبوا المرأة المسنّة بعد أن تشبثت به، وجرُّوها وهم على سفح الجبل، بينما كانت تصرخ وتزعق. رافقتهم النسور وهي تحلّق فوق رؤوسهم تماماً. كانت المرأة المسنّة متشبثة بالغصن، تقفز إلى الأعلى وإلى الأسفل، فوق أماكن وعرة وصخور. أجهشت بالبكاء، وسقطت مرة، ثمّ نهضت بمساعدة الأولاد الذين بذلوا كل ما في وسعهم لإنزالها إلى مستوى صخرة الموت. وهناك تركوها، ومضوا في سبيلهم نحو الجبل، ومنه إلى الوادي.

سألت الإناث اللواتي يزرن الأولاد حالياً عن السبب الذي دفعهم إلى إنقاذ المرأة المسنّة. فبانت الدهشة على وجوههم من هذا السؤال. أخيراً، أوضحوا لهن قائلين: "لقد كانت تبكي".

ينبغي الآن أن نتذكر أن الأولاد لم يدعوا الأطفال الصغار في حالة بكاء. فالمسخ الصغير إذا بكى، أو أثار ضوضاء، فالكبار يصابون بالجنون. وعلى الإناث جميعاً أن يتذكرن كيف صرخ المسوخ الأوائل عندما تعرضوا للتعذيب على أيديهنّ، بل وفعلن ما هو أسوأ من ذلك. ما الذي يتذكرونه عندما صرخت طفلة من الأطفال؟

قال الأولاد: "يا لها من جلبة تلك التي كانت تحدثها". ثم: "لقد أقلقت صغار النسور". "نعم، لقد خافت صغار النسور".

في بادئ الأمر، جاءت هذه التوضيحات، بعد ذلك، جاء السبب الحقيقـــي على ما يبدو. "إن هؤلاء الإناث غبيات، لأنهنّ تركن الأُنثى المـــسنّة تبكي. كان الأمر سهلاً تماماً: "كل ما فعلناه هو أننا وضعناها فـــوق أحـــد الأغصان وسحبناها إلى الأسفل، وانتهى كل شيء. ولم تفكّر الإناث بشيء من هذا القبيل".

إن وصول المرأة المسنّة إلى الصخرة، تعلوها الكدمات، وتلطخها الـــدماء، لم يكن ليعني أي شيء للأولاد. الشيء الذي كان يهمهم هو إنجازهم، الإنجاز الذي يكشف عن غباء الإناث.

أصبح عنوان ذلك الفصل من المدونة هو: ***إناث غبيات، لم يعرفن كيف يتصرفن لإنقاذ المرأة المسنّة.***

هنا تبدأ مدونات عن كيفية مناقشة الإناث للأولاد، وكانت على الـــدوام مناقـــشة تنهج هذا النهج: "لكن لماذا فعلوا ذلك؟ إن الأولاد يتصرفون تصرفات غريبة".

إننا لا نتكلم إلا عن بعض الإناث: صديقات ميري وأستري. أما الأخريات، فقد ارتعشن عند ذكر سكان الوادي.

لقـــد قـــرّ الرأي بأن الأولاد كانوا *أغبياء*، وكانوا يفتقرون إلى الكياسة.

لكنـــنا لم نفرغ بعد من المرأة المسنّة التي أرادت أن ترى الأشياء بنفسها. فالأورام والكدمات التي أصيبت بها استغرقت وقتاً طويلاً كي تـــتماثل للـــشفاء. ولم تغفر للفتيات اللواتي هربن وتركنها تحت رحمة عـــدوها. وتمـــثّلت هؤلاء الفتيات بالأُخريات اللواتي ذهبن إلى الوادي وتـــزاوجن مـــع الذكـــور. وعلى الرغم من أنهن تغيرن، الواحدة تلو الأخـــرى، وأصبحن مثل الأخريات، أي مثل فتيات ميري، فإن العداء استحكم، ودُونت حالات كثيرة تنطوي على الضغينة في الحوليات.

لم يُذكَـــر شيء عن بقية الإناث المسنّات، وكل ما ذُكر هو عن تلـــك التي حرّضت على الرحلة إلى أعلى الجبل. في وسعنا أن نفهم ما نـــشاء من هذا كله، وأن هذه الأُنثى المسنّة هي التي وضعت الخطة التي كـــان مقدراً لها أن لا تدمر الذكور، أو معظمهم، بل تدمر أيضاً عدداً كبيراً من الفتيات. لكن ليس على الفور. أولاً، لا بد لذلك العقل الهرم بطـــيء الإدراك الـــتعامل مع حقيقة أن الفتيات هربن إلى أسفل الجبل لأنهـــن خـــشين من الاغتصاب. وعلى الرغم من أن ميري حاولت أن توضح رأيها في السبب من وجود المسوخ، ووظيفتهم المحتملة بوصفهم أسلافاً، فإن المسنّات لم يفهمن ذلك، بل كان يصعب عليهن الفهم. إذ إن ظهور المسوخ جعل الأطفال الصغار الجدد مكروهين، تخافهم النساء المسنّات. ثم جاء الاغتصاب، فتسبب في ولادة أطفال من الذكور ومن الإناث. وكانت الإناث الصغيرات إناثاً، سواء أكان ذلك صعباً أم غير صـــعب. كما كان المسوخ يشبهون أولئك الذين شاهدتهم فوق قمة الجبل، أناساً وليسوا ريشاً أو أوراقاً.

إن مـــا يـــستطيع الناس فهمه، وما لا يستطيعون فهمه، أمر مثير للاهتمام. بخصوص الإناث المسنّات، فالسبب يعود إلى أنهن لم يستطعن الفهم. وهكذا ولد عقل جديد وسريع الإدراك وسط تلك الجماعة من الإنـــاث اللـــواتي يقطـــنّ الشاطئ. لقد فهم العقل الهرم بطيء الفهم والمتـــشكك حقـــيقة واحدة لا غير، أنّ كل ما حدث لتغيير الأساليب القديمـــة، وتسبّب في التفرقة والبغضاء بين أوساط النساء هو من صنع المـــسوخ. الأمـــر غايـــة في البساطة، فقد كان المسوخ أعداءً، وبات ضرورياً الآن التخلص منهم.

أرسلت واحدة من الإناث المسنّات إحدى الفتيات لإخبار ميري بـــأن تحضر لرؤيتها. وأرسلت إيماءات وابتسامات إلى ميري التي كانت

تجلس عند فتحة كهفها، واكتفت بإيماءة مماثلة. و لم تكن على عجلة من أمرها للذهاب، إذ لم ترغب في الظهور بمظهر من تطيع الإناث المسنّات اللواتي كانت ترتاب في أنهن يخططن (وربما يتآمرن) لتنفيذ ما لا تحمد عقباه.

كانت ميري برفقة "الطفل الجديد"، وبعض الأطفال الآخرين. وكان هناك عدد كبير من الأناس ينظرون إن كانت ستذهب على الفور إلى المرأة المسنّة. كانت ميري تهدّئ الصغار الصاخبين دوماً. أما على الصخور القريبة من البحر، فقد استلقت الفتيات اللواتي ساعدن الإناث المسنّات، نصف أجسامهن في الماء، والنصف الآخر خارجه. نظرن إلى الأعلى باتجاه ميري، وكن يكرهنها، فقد كانت ميري مسؤولة عن الانقسام الذي حدث في القبيلة، وعن الطبع السيئ الذي اتسمت به الإناث المسنّات، وعن الأطفال الجدد الذين لا حدّ لمتطلباتهم. وعلى الصخور القائمة فوق الكهوف، كان هناك بعض الأولاد يراقبون أيضاً. لم تستطع ميري أن تفهم سبب وجودهم هناك. واشتد خوفها الذي كان شديداً أصلاً. كانت تخشاهم مثل خشيتها في تلك الأيام على الأطفال الجدد.

لا يمكن القول إن مشاعر الأمومة كانت قوية عند أولئك الإناث الأوليات. وما الاعتزاز بالأطفال، إلا لأنهم يبشرون بالخير، أو ينطوون على تهديد، وهي من الأمور قريبة العهد.

فكّرت طويلاً في الأطفال، وفكّرت أيضاً في الأولاد الساكنين في الوادي. في الحقيقة، إن مشاعرها كانت مشاعر شفقة وصَوْن، على الرغم من أن هذه الأفكار - والكلمات - لم تكن متوفرة عندها. كانت تشعر بالأسى والحزن من أجل هؤلاء المسوخ المساكين، والأولاد المساكين. شعورها تجاههم يوازي وضع ذراعيها حولهم

وحمايـــتهم، وهـــو مـــا فعلته مع "الطفل الجديد". عاشت هي وبقية مجموعـــتها مـــن الفتيات في هذه الكهوف العالية، ذات الهواء الطلق، والأرضـــيات الـــرملية النظيفة. وتعلمن من الأولاد خارج تلك النيران العظـــيمة كيفية إيقادها وإذكائها، من أولئك الأولاد الماهرين في صنع النيران ورعايتها. وعاش أولئك المسوخ في تلك الملاجئ والملاذات التي كانـــت مملـــوءة دوماً بالقاذورات، وتنبعث منها رائحة كريهة، لأنهم ببـــساطة لا يملكـــون مهارة فطرية أو مكتسبة في حفظ النظام. هناك، كانوا عند طرف الغابة العظيمة، حيث يمكن لأي وحش وفي أي دقيقة (وهو ما حدث أكثر من مرة) أن يخرج ويقبض على طفل أو حتى على صـــبـــي غـــير كامل النمو. فكّرت في الأطفال المساكين، وفي الوقت نفسه ظلت تراقب الأولاد وهم يتجمعون على قمم التلال المطلة على الـــساحل. كانـــت تفكّر وكأنها تقول لهم: "ابتعدوا أيها الأغبياء، ألا تدركون أنكم في خطر؟".

نهـــضت مـــيري وقت فراغها، وأخبرت الأطفال أنها ستعود عما قريب، ونـــزلت نحو الإناث المسنّات.

* * *

الآن، ما الذي تفكّر فيه يا قارئي الروماني العزيز وأنت تراقب ميـــري وهي تنـــزل؟ لكنني سأخبرك، بأنك سترى أن ذهني، ذهننا، مملوء بصور عن آلهتنا. فقد كان عبد والدي المفضل، الـــذي اشتراه بثمن باهظ تقديراً لمهاراته، يعرف كيف يصنع نـــسخاً عن تماثيل الحب. ففي أجمة الزيتون القريبة من دارنا، ينتـــصب تمـــثال ديانا، وهو التمثال المفضل عند أبـــي. كانت تقـــف مـــرتدية تـــنورتها الـــصغيرة، حاملةً قوساً من خشب مزخرف، كان والدي يسخر منه قائلاً إنه لا يستطيع أن يسقط طيـــراً. وعـــند تقاطع طريقنا مع الطريق الرئيسي، كان تمثال

آرتمـــيس منتصباً، ولم يكن من صنع عبدنا، لكنه صنع نسخة عنه، وإن بحجم أصغر، وكانت هذه النسخة في أجمة الزيتون أيضاً. وها أنا ذا، أجد أمامي أُنثى فارعة الطول، رشيقة، ذات رأس صغير، دقيق، عقدة شعرها اللامع رُبطت بشريط فضي، يتطاير طرفاه تحت نسمات البحر، خيالاتنا تُحررها من صلابة المـــادة المعدنـــية. رداؤهـــا من أرّق أنواع الكتان يتماوج من حولها. قدماها، تخطوان في حذاء من سيور، خطواً خفيفاً وسط صخور الشاطئ. تبتسم. نحن نعرف كلنا ابتسامة الآلهة، فهي تعـــد بحمايتنا، الآن وإلى الأبد. ليس من السّهل تخيل أي شيء يمكـــنه أن يُقصي آرتميس، أو الجميلة ديانا، من المكان الذي تحـــتلانه فـــي قلوبـــنا. فآلهتنا الباسمة ستظل إلى الأبد واقفة تحرسنا من المخاطر التي تواجهنا.

* * *

لكن الذين راقبوا ميري وهي تنـــزل من فتحة كهفها لم يشاهدوا شـــيئاً كهذا. إننا لا نعرف كيف كان شكل الإناث. إننا لا نعرف ما هو طول هذه الأنثى، المرأة، ولا بنيتها ولا هيأتها.

إلاّ أنـــنا نـــستطيع أن نخمن تخميناً سليماً بأن ميري لم تكن فتاة رشـــيقة، ليـــست مثل ديانا. أولئك الأناس الأوائل على الشاطئ، ربما كانـــوا ذات يوم مخلوقات بحرية، لكن جميعهم، أقصد جميعهن، كنَّ في مـــياه البحـــر قدر ما كنَّ خارجه. و لم يكن الاستسلام للنوم أمراً غير مألـــوف عـــندهن، فهـــنّ يتمايلن فوق الموج الهادئ، أذرعهن طافية، وجـــوههن موجّهة نحو السماء. كن يسبحن سباحة ماهرة، كالأسماك، أو حـــيوانات البحـــر. نستطيع القول إنهن متينات البنيان، عريضات المناكب والأذرع، أفخاذهن ضخمة، أردافهن قوية العضل. الحيوانات البحرية تملك طبقة نافعة من الشحم. كانت ميري ذات أسنان بيضاء،

قوية، تقضم السمك النيئ، تجرد اللحم عن الحسك. جاءت إلى مجموعة من الإناث يجلسن القرفصاء حول كمية من سمك مصطاد، منهمكات بالعض والقضم. ويسهل الظن من النظرة الأولى إليهن أنهن عجول البحر أو حتى خنازير البحر. هذه الأنثى، ميري، أُمنا الأولى، التي سميت باسم القمر، ذات ثديين طريين، مملوءين حليباً: هذا نعرفه من المدونات الشفاهية الأولى التي جاءتنا من الذكور، الذين أحبوا أثداء الإناث الكبيرة المملوءة بالحليب.

وصلت هذه الأُنثى قصيرة القامة، متينة البنيان، المفعمة بالصحة والعافية، إلى النساء المسنّات المستلقيات على الصخور، كأنهن أسماك تائهة، فابتسمت لهن قائلة: "ثمة أشياء نحن بحاجة إلى الحديث عنها"؛ في محاولة لانتزاع زمام المبادرة من أيديهن. كانت ميري تدرك أنها في خطر فرائحة التوتر والخطر قوية. كانت تعرف أن ثمة مؤامرة ما. ولو أرادت المسنّات أن يتخلّصن من أستري والفتيات المواليات لهما، على سبيل المثال، ما الذي تفعله بعد ذلك غداً؟ من الضروري جداً أن تحتال عليهن، وتسحبهنّ صوب بركة ماء عميقة، ثم تترك بنات الإناث المسنّات كي يغرقهن، وذلك بجذبهن إلى الأسفل. لا، الأمر ليس سهلاً، لأن كل واحدة تعرف السباحة جيداً. لا بدّ من مباغتة الضحايا.

توقعت ميري نفسها ما ستسمعه بعد ذلك. أرادت النساء المسنّات من ميري وأستري أن تصحب كلّ واحدة منهما *بناتها* والبنات المتحالفات معهما، والأكبر سناً، بعيداً في رحلة ما.

سمعت ميري الآن تفاصيل المؤامرة، وهي أنهن سيقمن برحلة استكشافية على امتداد الشاطئ للوصول إلى نقطة محددة، لجمع الرخويات، ثم ينتقلن إلى شاطئ آخر لجمع كمية من أحد أنواع العشب البحري. إذاً، هي على حق، لقد أدركت ميري غريزياً ذلك.

فعند نقطة معينة سيُغوى بها وبأستري وبالبنات اللواتي كن حليفاتهما، إلى البحر حيث سيقتلْنَ.

طـــوال هذا الوقت كان الأولاد الزائرون يتسكعون فوق التلال الصخرية ويراقبون المشهد: "ما سبب وجودهم هناك؟". "كيف وصلوا إلى هـــذا المكان؟". حلّق زوج من النسور العظيمة فوق الأولاد، وظلا يراقبان: كانا يعرفان أن هناك خطراً محدقاً، بينما لوّحت ميري للأولاد، مـــتجاهلة الإناث المسنّات: "اذهبوا! انصرفوا. ما سبب وجود النسور فوقنا برأيكم؟". لوّح لها الأولاد، من دون أن يفهموا ما كانت تعنيه.

أخـــبرت مـــيري النـــساء المسنّات أن الرحلة ستوفر الرخويات وأعـــشاب البحر، ثم رجعت إلى كهفها، شديدة القلق. لم تفهم سبب وجود الأولاد في ذلك المكان المرتفع.

اهمكـــت أســـتري وإحدى الصديقات بإضرام النار استعداداً لليل.

كـــان الأولاد في الجـــوار، على مقربة شديدة تنذر بالخطر، لأن الفتيات كن قد ذهبن قبل برهة من الزمن إلى الوادي. مؤخراً، لم يولد أي مـــسخ. لكن ما المقصود بكلمة *مؤخراً*؟ لا ندري. كم أنا معجب بأسلوبنا الحذر، نحن أهل روما، بخصوص القياس والوقت عندما نكافح مـــن أجل فهم مدونات الشعوب القديمة الذين لم يفكّروا قط بعبارات مثل: قبل شهر، في بحر أسبوع، ذات مرة... عندما... .

ربمـــا فكّرت النساء المسنّات بأن ما من مسخ سيولد بعد الآن. تلك فكرة مناسبة لعقولهن بطيئة التفكير:"إن لم يولد أي مسخ مؤخراً، فربما لن يولد بعد الآن أي واحد".

حـــسناً. بعـــض الأمور واضحة. فقد أرادت النساء المسنّات من مـــيري وأســـتري الذهاب مباشرة مع حليفاتهما من البنات الجديدات

والأطفـــال، وستذهب معهما بنات الإناث المسنّات أيضاً. لقد كانت خطـــتهن تقتـــضي التخلص من البنات الجديدات اللواتي يملكن أفكاراً جديدة، واللواتي أنجبن الأطفال الجدد. وعند ذلك لن يعترض أحد على حكم الإناث المسنّات، ولن تولد فتيات أخريات، مثل ميري وأستري، ولن يكون هناك *أطفال جدد*.

ما سبب وجود الأولاد فوق صخور التلال؟

هـــم أيضاً لم يرغبوا في أن يكونوا على مقربة شديدة من شاطئ الإناث، وكانوا يخافون أيضاً من الإناث المسنّات.

كـــان هؤلاء يبدون لميري تحذيراً في حدّ ذاته، فلو علمت سبب وجـــودهم في ذلك المكان فستفهم الخطر الكامن. في وسعها أن تطلب مـــن إحـــدى *بـــناتها* أن تـــسأل إحـــدى بنات الإناث المسنّات عن الاستعدادات الجارية. ما الخطط الخاصة بشأن الأولاد؟ كانت متأكدة، أو شبه متأكدة، بالنيَّة المبيّتة للبنات.

في الحقـــيقة، أمـــرت واحدة من المسنّات - تتصف بالمغامرة - البـــنات أن يستدرجن الأولاد إلى الجرف المطل على الشاطئ، إلا أن خطتها - لتدمير الأولاد - أتت بنتائج معاكسة.

فالرحلة إلى شاطئ الرخويات الكبير تستغرق عدة أيام، وتتطلب وقـــتاً طـــويلاً لإغراق ميري وأستري وصغارهما والفتيات المتحالفات معهما. المثير للإعجاب في هذه الخطة هو بساطتها. غير أن مقاصد بقية المـــسنّات كانت شريرة. إذ لم يكن ممكناً لبنات المسنّات إيذاء الأولاد الذين كانوا عدّائين سريعين، وفي وسعهم الدفاع عن أنفسهم بالعصي والحجارة، بل وبالأقواس وبالسهام في تلك الأيام. ويمكن لأي معركة مباشرة أن تنتهي بانتصار الأولاد، خاصة أن حلفاء الأولاد هم النسور التي تحرسهم، وستقاتل إلى جانبهم.

قلّبت ميري وأستري وحليفاهما الموضوع من جميع جوانبه، ولكنهن لم يتوصلن إلى أي نتيجة. فلو تمكنَّ من إقناع إحدى بنات أولئك المسنّات بالحضور وبالحديث إليهن، فإن الإناث المسنّات سيعرفن أن الشكوك حامت حول خططهن. من السهل جداً إقناع الفتيات بالصعود إلى كهف ميري، إذ لم يكن هناك أي تقسيم محدد بين الفتيات المطيعات والمتمردات. فعلى أي حال، كانت حليفات ميري وأستري مواليات يوماً ما للإناث المسنّات. وقد جاءت أعداد من الفتيات المطيعات إلى كهف ميري للاستفسار عن أكثر الأشياء جاذبية عند المسوخ. فقد ذهب قسم من أولئك الفتيات إلى الوادي ليكتشفن ذلك بأنفسهن. وقد أخّرت جامعات الرخويات رحيلهن طويلاً، مما دفع بالمسنّات إلى إرسال رسالة يسألن عن السبب الذي يؤخر انطلاقهن.

لا نعلم كم من الإناث انطلقن معاً، بل إن ما نعرفه حقاً هو أن أطفالهن كانوا برفقتهن. وبينما هن يمشين على امتداد شاطئ البحر، كن يدركن أن هناك مَن يتجسس عليهن، إذ بقيت إحدى بنات المسنّات تسير وراءهنّ، متوارية بين الصخور. وهذا يعني أنهن لن يستطعن تنفيذ ما خططن له، ألا وهو السير حتى هبوط الليل، حيث يمكن لهن الزحف عائدات باتجاه شاطئهن في العتمة، وإيجاد مكان عالٍ يتمكّن فيه من مراقبة ما يجري. ومن شأن بنات المسنّات أن يطلعنهنّ عند عودتهن بمجريات الأمور.

تلكأت الجماعة في اليوم التالي، وتأخرت، وبقي الأطفال في عهدتها، لتجد، بعد ذلك أن معظم البنات المعاديات تقريباً قد اختفين في الظلام، وأدركت ميري وأستري من هذه الحادثة أن خطة التخلص منهما ومن حليفاتهما وأولادهن لم تكن هي الخطة الأولى.

انتظـــرت مـــيري وأستري وعدد من الفتيات الأخريات حلول الظـــلام، ثم شـــققن طـــريقهن نحو تل منخفض يستطعن منه مشاهدة شـــاطئهن، في الجهة القريبة، أي صخرة الموت أو الجرف العظيم حيث توجد الحفرة التي ألقيت فيها ذات يوم فتيات ضحَّين بأنفسهن.

دفع هذا المكان الذي بورك ذات يوم بسبب اقترانه بالقتل وبآلهة مـــن الآلهات، إلى التفكير في ما تعرفه عنه. إلا أنها لم تعرف عنه الشيء الكـــثير. فالتل العالي أو القمة المرتفعة، التي ربما تكون قمة بركانية في أصـــلها، يـــوجد إلى الجهة المواجهة منها صدع حيث تنساب الورود الحمـــراء في موسمها. إننا نعرف الآن أن الصدع نمط من أنماط الآلهة، ينـــسجم ويردّد التيار الأحمر للإناث، ويرتبط منذ القدَم بالقمر. عندما ننظـــر إلى الماضي لنتأمل أصل آلهتنا، فإنه لا يبدو سهلاً دائماً أن نقرر، علـــى وجه التحديد، ما هو الإلهي. فنحن لا نتوقع صعود سفوح جبل أولمب(*)! أو مشاهدة فينوس وهي تخرج من وسط الأمواج!

غـــير أن هـــذا الصدع ينطوي على مسحة من الخوف والرعب، علـــى الـــرغم من أن قمته ليست صعبة الوصول. فإلى الجهة المواجهة للبحـــر يـــوجد الصدع، والكهف الذي يمكن منه النظر عبر الشقوق والتـــصدعات لمـــشاهدة الهـــياكل العظمية، والجماجم وغبار العظام الأبيض. لكن إلى الجهة الأخرى ثمة ممر يلتف صعوداً إلى الأعلى. وعند القمة نفسها، ثمة حافة مسطحة، في وسطها منصة، حيث وقفت أعداد كبيرة من الإناث يرتجفن، قبل أن يُلقى بهن إلى مستودع العظام.

كـــان ينـــبعث من تلك الأعماق ما هو أكثر من روائح العفن. فهناك أبخرة أثارت ارتباك الفتيات في بادئ الأمر، ثم خدرتهن، لقد كن

(*) جـــبل أولمـــب: جبل في اليونان بين مقدونيا وتساليا، أعلى قمة بالبلاد، 2.917م، مقر الآلهة عند اليونان الأقدمين. (المترجم)

فاقـــدات وعيهنّ عندما دُفع بهن إلى الأسفل. إن السبب الذي يجعلنا، نحن الذكور، نصدّق أن هذه الممارسة قد توقفت هو أن ميري وأستري وحلـــيفاتهما لم يفكّرن في هذا المكان عندما فكّرن ملياً في حل معضلة الأشـــياء الـــتي كانت تخطط لها النساء المسنّات. يحتمل أن التضحيات جرت في زمن بعيد جداً هناك و لم يعد هناك من يتذكرها.

عندما لاح الضوء، استطعن مشاهدة منحدر عريض من سهول البحـــر حتى الجبل المؤدي إلى وادي الفتيان. كان كل شيء ساكناً. شوهدت على مسافة بعيدة فوق شاطئهن بقع ونقاط صغيرة أظهرت أن الفتيات لم يغادرن جميعهن لجمع الرخويات. حلّق نسران تحليقاً دائرياً فوق الجبل. ثم جاءت بعد ذلك مجموعة من الفتيات العدوات، قادمـــات مـــن جهة صخورهن وقت الظهيرة، وكن يمشين الهوينا، ويتوقفن عند صخرة الموت، كأنهن غير راغبات في المضي قُدماً. كم عـــددهن؟ الكلمة المستعملة هي *العدد*؛ لقد غادرن الصخرة ببطء، وبـــدأن ينـــزلن باتجاه أسفل الجبل. وهناك بدأن التسلق. لم يسبق لأي مـــن تلـــك الفتـــيات الذهاب إلى الوادي، على الرغم من أن بعضهن رافق المرأة المسنّة التي كانت تريد رؤية الأشياء بنفسها. كن منشغلات كثيراً بمساعدتها، وببعث الطمأنينة في نفسها، فلم يلحظن الشيء الكثير من الطريق. كن بطيئات في تقدمهن نحو أعلى الجبل، ولعل السبب يكمن في أنّ النسور كانت تصرخ في وجوههن. لدى وصولهن القمة، وقفن هناك ينظرن إلى الأسفل، صوب الوادي ونهره الغـــريب. مـــا السبب الذي يدفعهن إلى التسكع هناك؟ تناهت إلى الـــسمع صرخات وصيحات من الوادي. في لحظة من الزمن، وصل إلـــيهن الأولاد. أخـــذت الفتيات يتمايلن ويؤدين حركات مغرية، لعلـــها كانـــت للمـــرة الأولى. اتضح الآن أن الإناث المسنّات، أو

إحـــداهن، فهمـــت ما قالته لهن ميري. فقد قيل للبنات أن يجذبن الفتيان، أن يوقعنهم في حبائلهن؟ لكن لأي غاية؟

عـــندما ظهر الأولاد فوق قمة الجبل، كانت الفتيات قد شرعن بالنـــــزول والابتعاد عنهم. ثم نظرن نظرة حسنة، وتوقفن مندهشات. كان الصبيان يضعون مآزر ضيقة من ريش الطيور وأوراق الشجر. لو أن بعـــض الفتـــيات زرن الوادي قبلئذ، لشاهدن الصبيان عراة، ربما خـــارجين تواً من النهر، ولرأين مسخهم مقنعاً. كان الشيء الذي يثير خـــوفهن، أو الشيء الذي يثير رغبتهن خفياً. كانت ميري قد أعطت الصبيان أمشاطاً، مصنوعة من العمود الفقري للأسماك، وأخبرتهم كيف يهتمون بشعرهم. كانت الفتيات ينظرن إلى الشبان الوسيمين، لكنهن لم يعرفن أن شعورهن كان إعجاباً. لهذا، وبدلاً من الهروب بعيداً، كي يـــستطيع الأولاد اللحـــاق بهن، توقفن، وقد أذهلتهن الصدمة. أخيراً، ركـــضن بعيداً إلى أسفل التل، والأولاد وراءهنّ، يصيحون وينادون، كأنمـــا يطاردون حيواناً بغية قتله. ركضوا على نحو أسرع من الفتيات البطيـــئات. ويعود سبب عدم إمساكهن في بادئ الأمر بأي فتاة، إلى أنهم جعلوا من المطاردة لعبة.

أمـــا الشيء الذي كان يشاهده المراقبون فوق التل، فهو فتيات، معظمهـــن مواليات للمسنّات، يركضن بأسرع ما يستطعن، والأولاد وراءهنّ.

اســـتغرقت ميري وأستري وحليفاتهما وقتاً طويلاً كي يدركن ما يجري. كانت الفتيات قد أُصدرت إليهن تعليمات بإغراء الأولاد، لكن لماذا؟

في الوقت الذي وصل فيه الجانبان - المطارَدات والمطارِدون - إلى صـــخرة الموت، كان الأولاد قد أصبحوا وراء الفتيات، وعندها توقفن

وواجهـــن الأولاد. بعـــد أن سمعـــن ما قالته الفتيات اللواتي ذهبن إلى الوادي، أدركن أن اغتصابهن بات وشيكاً، لكنهن وقفن حائرات؛ فقد طُلب منهن إغواء الأولاد. ثم ماذا بعد الآن؟

أدرك المـــشاهدون الذين يراقبون المشهد فوق التل، أن الوقت قد حان للنـــزول والتدخل، حتى وإن لم يكن السبب معروفاً.

بدا أن الأولاد والبنات يتبادلون كلمات التأنيب الرقيقة. وحاول الأولاد الإمساك بالفتيات، لا سيما بنهودهنّ، للمرة الأولى، كان عدد الأولاد موازياً لعدد الفتيات.

ثم تحـــررت الفتيات من الأولاد، واتجهن، دونما محاولة للركض أو الهـــروب، صوب الممر المؤدي إلى أعلى الجرف الذي كانت قمته هي فتحة الحفرة. أخيراً، فهمت ميري وأستري والأخريات، لكن فهمهن لم يكـــن علـــى الفـــور، وهنا لا بدّ لنا أن نفكّر في أنّ دور الصدع في التضحية كان يمتد إلى ماضٍ بعيد، وهو جزء من تاريخ موغل في القدم. كانت الروائح الكريهة المنبعثة من الحفرة، أو من الكهوف في الأسفل، مذكورة دوماً في كل رواية عنها، غير أن الأبخرة القاتلة لم تذكر دوماً. مـــا إن نقول إن الفتيات يستدرجن الأولاد إلى أعلى حافة الحفرة كي يـــسهل دفعهـــن فيها، طالما أن الأولاد أقوى بكثير من الفتيات، حتى تكون الفكرة التالية هي: حقاً، يقولون إن هناك أبخرة قاتلة.

كانـــت ميري وأستري وحليفاتهما يركضن بأسرع ما يستطعن، وكان في وسعهن مشاهدة الأولاد يغرر بهم للسير في ذلك الممر المؤدي إلى القمة، بينما تأتي الفتيات وراءهم، مبتسمات، ودودات.

لـــيس الجـــرف عالـــياً إلى ذلك الحدّ الذي يستدعي وقتاً طويلاً للوصـــول إليه. وعما قريب سيصل الشبان إلى أعلى الممر. عند حافة الحفرة العظيمة، أو البركان الموغل في القدم، ثمة حافة عريضة، مسطحة

تآكلت بسبب كثرة الأقدام التي وطئتها، ولا أحد يعرف عددها، على مـــر الدهر، والناس الذين وقفوا لمشاهدة طقوس التضحية المرعبة. أما المنصة التي يجب على الضحايا الوقوف عليها لتناول الجرعة المعطّلة من الأبخـــرة القاتلـــة، فكانت على مسافة قريبة من الداخل. كان الأولاد يستمتعون بصعوبات التسلق، وبالربوة القائمة هناك، حيث يستطيعون مـــشاهدة المحـــيط والجبل والنسور، والتفتوا ليعبروا عن إعجابهم حال مـــشاهدتهم الفتيات، وابتسموا لهن، ومدّوا أذرعهم نحوهن. شاهدتهم الفتـــيات، وأعجـــبن بوسامة أولئك الأولاد، أولئك المسوخ، موضع كـــراهيتهن... لكـــن ما الشيء الذي كرهنه؟ كان يجدر بالفتيات أن يهـــربن الآن إلى أسفل الممر باتجاه موقع التسلق، تاركات الأولاد، بعد أن أكملـــن عملـــهن بجعلـــهم يتسلقون إلى القمة. لكن فتاة واحدة أجهـــشت بالـــبكاء، لـــتلحق بها فتاة ثانية. أجهشتا بالبكاء، وبسطتا أذرعهمـــا، كأنهما تتوسلان إليهم أن ينقذوهما. كانت ميري وأستري تصيحان بصوت عالٍ "أنقذوا أنفسكم!"

كانتا تعرفان الأولاد معرفة جيدة تكفي لأن تدركا أنهم سيقفزون مـــن حافـــة الحفرة إلى المنصة، لأنها موجودة هناك، ولأنها تمثل تحدياً وصعوبة.

واصـــلت الفـــتاتان مناداتهما الأولاد: "اهبطوا. توقفوا، توقفوا. ارجعوا".

بدأت الآن كل الفتيات بالصراخ، ومددن أذرعهن وهن يجهشن بالبكاء.

ثم سمعـــت واحدة أو اثنتان أحداً يصرخ بهما أن يقفزا إلى المنصة: لم تكن الإناث كلهن قد شاهدن مدى وسامة الأولاد... ولم يقرُنَّ أي كلمـــة بهم. وتلت ذلك حالة من الاهتياج عند مشاهدة الأولاد وهم

يقفـــزون. هاجـــت الفتيات لمرأى الأولاد، فقد كانت الرغبة تشتعل فيهن، أو في بعضهن.

كانـــت ميري تتسلق باتجاه أعلى الممر، فيما سارت أستري وراءها، وبقـــية الفتيات وراءهما. كانت واجهة الجرف تحتشد بالفتيات الصغيرات. وكـــان الأولاد يعرفون ميري وأستري، وهما كبريا الإناث الزائرات سناً، الإنـــاث الـــصديقات، المعلّمات. وعندما صاحت الاثنتان بهم أن *يعودوا أدراجهم*، فإنهما أرادتا أن ينفّذا ما هو مطلوب منهما. غير أن ولداً واحداً لم يـــستطع مقاومـــة الخطر، فقفز إلى الأسفل نحو المنصة. وعندما وصلت مـــيري وأستري إلى الحافة الدائرية ترنح وسقط. ولو كان سقط إلى جهة واحـــدة لهوى في الفجوة التي من شأن العظام المتراكمة أن تسرد قصتها. قفـــزت ميري إلى المنصة، وجذبته، وعادت به، هي وأستري، نحو الحافة، حـــيث أنعـــشه الهواء النقي. بات الآن ضرورياً التوضيح للذكور الشبان، مأرب الإناث اللواتي كن يستدرجنهم؛ لقد أردن أمواتاً.

كان بعض الأولاد قد انسلوا خفية إلى الأسفل، وحذت الفتيات حذوهم، واتجهن صوب شاطئهن.

جذبت ميري وأستري الأولاد، وأبعدتاهم عن حافة الحفرة. كان مـــشهداً سادت فيه فوضى عظيمة. فقد شاهد الأولاد إناثاً مبتسمات، ودودات، إلا أنهـــم لم يستوعبوا بعد أنهن كن يبغين قتلهم. وشاهدوا أيـــضاً صديقتيهما القديمتين ميري وأستري، وغيرهما من الإناث اللواتي كانـــوا يعـــرفونهنّ معرفة جيدة. نـــزل الأولاد إلى أسفل الممر بسبب إلحـــاح ميري وأستري، لكن، كانت تحيط بالمكان إناث لم يعرفوهن معرفة جيدة. من هم الأصدقاء؟ ومن هم الأعداء؟

عـــندما وصلوا إلى صخرة الموت، ساد صخب تخلله عناق ودي ســـرعان ما تحول إلى عربدة. غير أن فكرة العربدة توحي بانهيار نظام

مـــتفق عليه، وتوقف العمل به. كيف يمكنك أن تعربد - أو حتى أن تـــستخدم هذه الكلمة؟ - في حين لم يكن هناك أي إيحاء بالخروج عن الحدود والولع بالمحاباة، فضلاً عن العادات والتقاليد؟

شاهدت فتاتان كانتا تحاولان مؤخراً استدراج الأولاد إلى موقعهم، ما كان يجري، فعادتا وانضمتا إليهم.

كما جاءت أنثى مسنّة تساعدها فتاتان كانتا قد عادتا مسرعتين إلى شـــاطئهما، بـــسبب الضوضاء، وقد شاهدت المرأة المسنّة مشهداً حسبته مشهد عنف عام وقتل. فبدأت تصيح مشجعة فتياتها أن يؤذين الأولاد إن استطعن. وبدأ حضورها يؤثر تدريجياً في الشبان، ثم شاهدت الوجـــوه تلـــتفت إليها لتدرك حقيقة أن هذه هي المحرضة على محاولة القتل. كانت فتياتها يعرفن هذه الحقيقة، لهذا أسرعن بإخبار غيرهن من الفتيات، وإذ ذاك فهم الشبان الأمر أيضاً.

كانـــت المـــرأة المسنّة تقف وحيدة، بينما كانت ميري وأستري منـــشغلتين مـــع الـــشبان الذين يمكننا أن نسميهم آباء الأطفال، و لم تـــستطيعا مشاهدة ما يحدث. التقط أحد الذكور - سبق أن فقد وعيه بـــرهة من الزمن فوق المنصة - حجارة وحطمها على رأسها. وهكذا ســـجلت في حولـــيات الذكور أول جريمة في ذلك اليوم. أما الجريمة الأولى الحقيقية، فقد نُسيت. ربما كانت هناك جرائم قتل أخرى، بينما لا نذكر نحن جريمة قتل أول مسخ ولد.

رمـــيت جثة الأنثى الكبيرة فوق صخرة الموت لأجل النسور. أما الأولاد فعـــادوا إلى واديهم، وبرفقتهم بعض الإناث، فيما عادت ميري وأستري إلى كهفهما أو حاولتا العودة.

في هـــذه الأثـــناء حدث أمر آخر. فعندما تركت ميري وأستري نقطـــة مـــراقبتهما في ذلـــك الصباح، أوكلت مهمة العناية بالأطفال

وبالرضّع إلى إناث صديقات، لذا، لم يكن في وسعهن معرفة ما يجري. وفي أوقات متباينة شاهدن فتيات النساء المسنّات يحاولن الإيقاع بالصبيان لنزول الجبل، فيما كان الأولاد يحوّلون تلك المحاولة إلى لعبة. وبدا جرف الصدع محتشداً بالبنات، لكن لم يكن سهلاً التأكد إن كانت الفتيات حليفات الإناث المسنّات، أو حليفات ميري وأستري. وشاهدن أن الذي يحدث أشبه بمعركة تدور فوق صخرة الموت. ولم يشاهدن موت الأنثى المسنّة. فالفتيات اللواتي هنَّ إما حليفات الإناث المسنّات أو حليفات ميري وأستري، قفلن راجعات إلى شاطئهن. ثم مرَّ أمامهن عدد كبير من الأولاد، برفقة بعض الإناث، في طريقهم إلى الجبل. وبعد ذلك، جاءت النسور محلقة من أعلى الجبل إلى صخرة الموت.

كان الأطفال، في أثناء تلك المشاهدة، قد شرعوا يتذمرون ويتضايقون، إذ لم يحضر أي مبعوث لينقل ما كان يحدث. وفي نهاية المطاف، تركت هذه المجموعة من الفتيات والأطفال ذلك المكان وهبطت إلى مستوى صخرة الموت، حيث تجمع عدد هائل من النسور، تمزق بمناقيرها ومخالبها إرباً إرباً قطعاً من لحم لم تكن على وجه التأكيد من جسد الأطفال. أثارت النسور هلع الأطفال الذي شرعوا بالبكاء بصوت عالٍ. ثم عادت هذه المجموعة الصاخبة صوب شاطئها، وكان الطريق محفوفاً بمخاطر العدوّات من الإناث. كانت النساء المسنّات عند حافة البحر يصدرن إشارات ويهددن؛ من الواضح أنهن كن يصدرن الأوامر إلى الفتيات للقبض على الأطفال، والتخلص منهم، فالبحر قريب جداً. لم تستطع الفتيات اللواتي كن يحرسن الأطفال الهروب، ويرجع السبب في ذلك أساساً إلى الأطفال، حتى عندما كان من الواضح أن الهدف هو إلحاق الأذى بهم. وقفن على حدود الشاطئ

ونـــادين النساء المسنّات لمساعدتهن: "النجدة!" لم يكنّ يعلمن بمؤامرة التخلص منهن في رحلة جمع الرخويات ولا خطة القضاء على الأولاد. لم تكـــن النـــساء المسنّات ودودات مع ميري وأستري وحليفاتهما منذ عهد بعيد، لكن ليس ثمة سبب للارتياب في خطط جريمة القتل.

عندما أرادت تلك الفتيات الصعود إلى كهوفهن برفقة الأطفال، وجـــدن الفتـــيات المعاديات يعترضن الطريق، منذ تلك اللحظة اتضح وجود مجموعتين واضحتين من الإناث المعاديات خرجن لإلحاق الأذى بالأخـــريات. تكـــبدت الفتيات المرافقات للأطفال عناء شق طريقهن وســـط فتـــيات معاديـــات لهن، وكان يأسهن قد ازداد من تحديهن وشـــجاعتهن. ووصـــلن إلى كهف ميري وأستري ووقفن أمام المدخل وبأيديهن العصي والحجارة. اتضح الآن أن الخشب المخزون للاستعمال حطباً ذو فائدة.

وصلت ميري وأستري لتجدا حليفاتهما والأطفال داخل الكهف، وهـــناك حشد من فتيات معاديات خارجه، يتذمرن ويهددن المدافعات فيما كانت النساء المسنّات ينادين مشجعات من حافة البحر.

كان الفريقان متماثلين تماماً؛ وعلينا أن نستنتج هذا التماثل طالما أن المعـــركة تواصلت حتى هبوط الظلام، ولم يعد في إمكان أي واحدة رؤية الثانية إلا بصعوبة.

تـــركت مـــيري الكهـــف، بعد أن تأكدت أن الأطفال بمأمن، وسارت وسط الفتيات الخطرات، واتجهت صوب حافة البحر والنساء المسنّات اللواتي كنَّ يدركن أن واحدة من فريقهن قد اختفت على ما يبدو. وهناك أخبرتهن ميري أن النساء المسنّات لا يمكن لهن أن يتوقعن مواصـــلة العـــيش مدّة طويلة جداً إذا ما استمر القتل، أو الحديث عن القـــتل. وفي التعليق على هذا المشهد، هناك قدر كبير من الوصف عن

وصـــول النسور القادمة تواً من صخرة الموت حيث كانت تتربع على قمـــة الجرف، تنظر إلى الأسفل باتجاه النساء المسنّات. وتمضي الرواية قائلـــة: "إن وجود النسور كان يشكل خطراً. كما تشير الرواية إلى أن مـــيري وأســـتري كانتا، في عرف النسور، صديقتين للأولاد، وبالتالي فهما صديقتاها". وقد سمي هذا الفصل، في مدوناتنا ومدونات الإناث، **وصول النسور**، كأنما أريد بها إثارة فزع النساء المسنّات، وجعلهن في نهاية المطاف لينات العريكة.

بـــيد أن ميري ارتأت أنه من الأفضل إبعاد الأطفال الجدد المكروهين عـــن هـــذا الشاطئ الخطير، ولو لبعض الوقت. عادت ميري أدراجها إلى فتحة الكهف، مجردة من السلاح، سوى السلطة التي منحتها إياها طبيعتها، كينونـــتها، وتجاهلت الفتيات المعاديات اللواتي كن يشتمن الأطفال بسبب الـــضوضاء الـــتي تـــصدر عـــنهم والمتاعب التي سببوها للجميع. ونادت المحاصرين حتى يخرجوا. ثم سارت هذه المجموعة، بعد أن أخبرت صديقاتها مـــن الفتـــيات بوجهتها، صوب صخرة الموت التي لا تزال النسور تحتلّها، وصعدت الجبل وهبطت أخيراً إلى الوادي، حيث بقيت في الانتظار.

من شأن الأطفال أن يكونوا بمأمن أكبر في هذه البقعة، شرط أن تتوفـــر لهـــم مراقبة جيدة للحيلولة دون سقوطهم في النهر، أو ضلال طريقهم وسط الأشجار.

لقـــد سمع هؤلاء الأطفال كلهم حكايات عن الغزلان الحنونة التي أرضـــعت الأطفال الصغار عندما لم تكن هناك أي أنثى بالغة في الجوار تـــتولى إرضاعهم. وكان يصعب منعهم، لاسيما أولئك القادرين على السير، من الابتعاد ودخول الغابة.

كانـــت هـــذه الحادثة، أو الأحداث، عن مؤامرة النساء المسنّات لإغواء الأولاد بدخول مستودع عظام الموتى، وعزمهن على قتل أكبر

عـــدد مـــن حليفات ميري بهدف إيذاء الأطفال، كانت كلها مدونة بتفاصيل تبدو حية حتى يومنا هذا، إلا أنها آخر الأحداث التي مرت في زمـــن مـــا، زمن محدد ومعين، ومتحلل إلى لحظات منفصلة. لقد ترك ذلـــك الـــيوم من الماضي البعيد جداً انطباعاً، لا عند رواة الحكايات فحـــسب، بل ذكريات المشاركين أيضاً، بأننا نستطيع مشاهدتهم حتى الآن، أو تخـــيّل كـــيف بدا أجدادنا البعيدون حقاً، إذا ما عرفنا أولئك الناس.

* * *

الآن، عـــند قراءتنا أولى الكلمات التي نطق بها أولئك الأهالي الذين لم يكونوا بعيدين جداً عن ذلك الزمان، نجد:

"ثم بعدئذ...". "لكن متى؟".

"التالي...". "بعد أي شيء؟".

"قريباً...". "كم...؟".

إن المـــؤرخ الحالـــي، والمؤرخين القدامى، وكل المدونين في المـــستقبل، لا بدّ أن نجد أنفسنا جميعاً وقد توقفنا عند نقطة ما. فالمدونات المتصدعة وصعبة القراءة وكثيرة الأخطاء، في حدّ ذاتهـــا، تحكـــي لنا حكاية ما، بكل ذلك المنطق الداخلي، لكنها حكايـــة غيـــر مفهـــومة من البداية، تبدو ضماناً لاحتمالها. ثم تـــتوقف الحكايـــة بعد ذلك. ثمة خصائص مستمرة، مثل عداء القدامـــى للجدد. النمو معاً، من ناحية العقل ومن ناحية التعاون بين الجنسين من الأهالي – الإناث وذريتهن – لأن المسوخ في الـــوادي كانـــوا هم الذرية. إن تلك الجماعات كانت تحيا حياة بـــسيطة، مطمئنة. وبقيت النسور زمناً طويلاً تراقب من فوق. لكـــن المدونة تنتهي عند هذا الحدّ. لكن ينبغي علينا أن نتذكر الشيء الذي انتهى. فلو اعتمد التاريخ على المدونات الشفاهية،

وعلـــى الذاكرة، وعلى الذكريات، فلا نهاية لأي عملية سهلة. بادئ ذي بدء، لا بدّ أن تقرر جهة ما، أناس، نوع المدونة التي ينبغي الاحتفاظ بها. نحن نعرف أننا عند قراءة الحدث وإعادة قـــراءته مجـــدداً، أو قراءة سلسلة من الأحداث، ستكون هناك تفسيرات بعض الرواة. لا بدّ من تدوين أي حادثة. ثم لا بدّ من الاتفـــاق بين أصحاب الشأن على أن هذه النسخة وليست تلك، هـــي التي يجب أن تُحفظ في الذاكرة. ولا بدّ من التمرن على حفـــظ الحكاية؛ وربما يجوز لنا أن نسلي أنفسنا بأن نتخيل أن أولئك لا بدّ أنهم كانوا شرسين غالباً، أو في حالة خلاف على الأقـــل؛ أي نـــسخة ستحفظ في ذاكرة الذكريات؟ وهكذا، فإن الحكايـــة، الـــتاريخ، يصل إلى خاتمته، بحيث لا يعد هناك من يطعن فيه طعناً حقيقياً. ثم تأتي بعد ذلك عملية الإصغاء، بينما الـــتاريخ علـــى الأفواه. في كهف يقع في مكان ما، على الأقل بعـــيداً عـــن هدير البحر، أو الغابة، عند هبوب الريح. تُروى الحكايـــة وتسجل في عقول الذكريات، وربما في عقول العديد منهم. وفي فواصل زمنية معينة، تسأل عن رواية التاريخ مرة أخـــرى كـــي يدققه الناس الذين عاشوه كله. ألا تزال الحكاية هـــناك؟ ألـــم تصبح مموهة؟ لم يُنسَ أي شيء. ثم تُروى هذه الحكاية الموثوقة والمصدقة بعناية للآخرين كي يحفظوا تاريخ القبـــيلة، تـــاريخ الشعب. هذه مجرد عملية، أليس كذلك؟ وهي تشمل الجميع.

لا. إن التاريخ الشفاهي لا بدّ أن يكون، عند تفكيركم به حالاً، إبـــداعاً، وبالتالـــي ملكاً للناس. تخيلوا على سبيل المثال، مَن وكيف اتفق على تدوين النـــزاع بين الإناث المسنّات وميري، بغض النظر عمن يحمل ذلك الاسم، في ذلك الزمن. يمكننا أن نكون على ثقة بأن النساء المسنّات ما كنّ ليقبلن برواية ميري

للأحداث. من الذي قرر أن هذه الأنثى لا تلك، ولا أولئك هي التي ينبغي عليها أن تحفظ التاريخ في ذاكرتها؟ وينطبق الشيء نفسه على قومنا من الأولاد، فمدوناتنا كانت مملوءة بالحكايات، بأحـــداث تـــمّ تذكرها على نحو حادّ، متضمنة الإناث المسنّات اللواتـــي ما من شأنهن أن يوافقن على كلمة واحدة تم الاتفاق عليها معنا.

ينبغي علينا أن نوضح أننا نحن والإناث احتفظنا بمدونات، بكل مـــا فيها من عناية، على مدى عصور طويلة. عصور طويلة. ولكـــن ماذا حدث بعد ذلك؟ يعتقد البعض أن الحكاية استمرت، واســـتمرت، مـــن دون تغيير يذكر، على مدى طويل حتى إن المدونـــين وقعـــوا فـــي ذلـــك الأسلوب الذي يشير إلى مرور الزمان. عندما تسمعون عبارات مثل: "اعتادوا على...". "كانوا معـــتادين...". (مـــن شـــأنهم أن يذهبوا، يأتوا، يفعلوا، يقولوا، يوافقوا على...). إن هذه العبارات تشير إلى تفكير أو تصرف مـــستمر. أما أنا، فشأني شأن غيري من المؤرخين؛ لقد وافقت على أن زمناً طويلاً قد مرَّ، حتى أن أجيالاً من المدونين، من الذكريات، قضوا نحبهم، ولسبب من الأسباب، لم تبذل محاولة للبدء من جديد بعملية تفعيل الذاكرة الجماعية.

غير أننا لسنا على صواب، لأن هناك ما يشبه القطع الحادّ في حـــياة جماعتـــين اثنتـــين مما أدى إلى توقف تطورهم المريح والاعتيادي.

في كلا التاريخين، كانت الإشارة الأولى إلى الكارثة متمثلة في كلمـــة *ضوضـــاء*: "عـــندما بـــدأت الضوضاء..."، "استمرت الـــضوضاء..."، "لم نعرف ما سبب الضوضاء، بل إن بعضنا أصيبوا بالجنون...".

* * *

الضوضاء في حقيقة الأمر كانت ريحاً، قادمة على وجه التحديد من جهة الشرق، قوية، عنيدة، حتى صدقوا في بادئ الأمر، تدخل كل أنواع قوى الطبيعة الخارقة فيها.

قبل الوصول إلى شاطئ الإناث، أو حتى عند وادي الصبيان، كان على تلك الريح أن تشق طريقها من أحد طرفي الجزيرة إلى الطرف الآخر، مدمرة في طريقها غابات بأكملها، ضاربة البحر، محيلة إياه أمواجاً عاتية، عصفت الريح وزمجرت، وأجهشت بالبكاء وصرخت. إنها ضوضاء، لم يسبق لأحد من الناس تخيلها. كانوا كلهم يعرفون الريح، وضربات الأمواج الخفيفة، واهتزاز الأغصان. أما هذه الضوضاء؟ ونحن لا نزال نسأل بعد مرور هذا الزمن، ما هي؟ ما سبب الريح المدمرة التي تحطم الغابات العظيمة، وتقتلع صخور الجبال، وتنشئ سحباً من غبار سامّ وتواصل باستمرار زمجرتها وصفيرها. ولا ندري، إلى متى؟ أعتقد أننا عشنا كلنا عواصف جبارة، ولعلنا شاهدنا أشجاراً ضخمة تنهار. أيّ سرٍّ في الطبيعة ينتج ريحاً مثل الضوضاء التي عمّت أرجاء الجزيرة؟

وجد الأولاد في ملاجئهم المهلهلة عند طرف الغابة أن لا حول لهم ولا قوة إزاء الريح التي تقاذفتهم هنا وهناك، أو طوّحت بهم في النهر. ولم يتمكنوا من العثور على أي بقعة في واديهم الجميل يمكن أن توفر لهم الأمان. أما فوق الجبل، فالنسور لا تقوى على الطيران هناك؛ فقد قُتل معظمها أو لحق بها أذىً في أيام الضوضاء ولياليها الطويلة. زحف الأولاد متسلقين الجبل، ملتصقين بالأرض قدر استطاعتهم، ووصلوا القمة، وسط أعشاش النسور المحطمة، والطيور الجريحة، ووصلوا إلى الكهوف المطلة على الشاطئ، حيث رحّبت بهم الفتيات اللواتي فرحن بمجيئهم. كان الخوف قد أخذ منهم كل مأخذ وكذلك

معـــرفتهم بحالة اليأس التي ألّمت بهم. و لم يكن لديهم – أو ترانا نعتقد نحـــن أنهـــم لم تكن لديهم – صورة مشخّصة عن الضوضاء، وأعتقد شخـــصياً، أنهـــم كانـــوا يـــصلّون لوجود الريح. هناك دخل الجميع الكهـــوف، وارتجفـــوا. ليس هناك أي ذكر للنساء المسنّات، الإناث المـــسنّات، ومن هنا نتفق على الاعتقاد بأنهن قد قضين نحبهن، وأن ما من شابة كبرت وتبوّأت مكانة النساء المسنّات. كانت الكهوف المطلة على البحر مملوءة ومحتشدة بالناس، وكلهم يشعرون بالجوع والخوف، و لم يـــستطيعوا الخـــروج لصيد الأسماك بسبب العاصفة، و لم يستطيعوا أيـــضاً إضرام النار. استمرت الضوضاء وتواصلت، فيما بدت الجزيرة كلها توشك أن تُقْتَلَع من مكانها.

ما الذي يمكن أن يسبب مثل هذه الريح؟ ما مصدرها؟ المدونات لم تبدأ ثانية مباشرة، لكن عندما بدأَتْ، ذكرتُ أن أمر كل طفل أوكِلَ إلى شخص أكبر سناً، من المراقبين أو ممن يوفرون الرعاية. كان نضوب الجماعـــتين علـــى أشده، حتى إن فئة الذكريات من الإناث فكرن أن الـــوقت لن يطول حتى يُقضى على كل من يسكن على الشواطئ وفي الـــوادي، وفي وســـع عاصفة هوجاء – أو ضوضاء – أن تحقق ذلك. كانت التعليمات الصادرة إلى فئة الذكريات تقول: "لم تبقَ إلا قليلات منّا"، وطلب إليهن أن يذكرنها في المدونات، إذ ربما تكون تذكرة.

مـــنذ زمن الضوضاء – الريح العظيمة – ثمة ملاحظة جديدة في تـــواريخ الساحل والوادي: فقد زرعت الريح الرعب في قلوب الناس الذين لم يعرفوا – كما يبدو – الخوف من قبل. كانوا متوجسين، فقد غيّـــرهم كلـــهم عنـــصر المفاجأة والسرعة. صحيح أن أموراً سيئة قد حدثت من قبل، كالموت والغرق والبدايات غير الموفقة للذكور، لكن متى حدث هجوم مدمّر من الطبيعة، صديقتهم، من قبل؟ "إن ما حدث

قد يحدث ثانية". هكذا علمتهم الضوضاء - الريح أن لا حول لهم ولا قوة.

عاد الأولاد إلى واديهم بأسرع ما يستطيعون. وتشير المدونات إلى أنهم لم يستطيعوا تحمل إشراف النساء ونظامهن. كما أنهم شعروا أيضاً بأنهم ليسوا موضع تقدير. عندما كانت الضوضاء في أوجها، ولم يأكل أحد شيئاً منذ أيام طويلة وربما أسابيع، زحف الأولاد على بطونهم، ونزلوا ناحية الشاطئ لجمع الأسماك التي قذفتها الأمواج، ثم أضرموا ناراً هائلة، في الكهوف الخالية، وشووا الأسماك. كانت بعض الحيوانات الهاربة من أمام الريح قد وصلت إلى الشاطئ، خائفة، مذعورة، فأرداها الأولاد قتيلة بأقواسهم وسهامهم ليأكلوا جميعهم من لحومها. لكن لم يبدُ على النساء أنهن أعجبن بذكائهم. وكما هو الأمر دوماً، جاءت الشكوى من الفوضى والرائحة التي عمّت الكهوف.

ولدى عودة الأولاد إلى كهوفهم لم يجدوا ذلك الرخاء الذي تذكروه.

فالغابة الهائلة التي كانت شاخصة دوماً، وهي تعد بالوفرة، سُوّيت بالأرض في أماكن عديدة بسبب الريح، وبات يصعب السير فيها الآن، بل إن جذوع الأشجار وأغصانها المتهاوية حالت دون سلوك بقاعها. لحق الأذى بالحيوانات، وبالطيور. ولما وصل الأولاد إلى أسفل الجبل، لم يتمكنوا من التعرف إلى مكانهم إلا بصعوبة بالغة. فقد انهارت الملاجئ والملاذات بفعل الريح، أو احتلتها الحيوانات عند محاولتها العثور على مأوى لها. ولاح الوادي مملوءاً بالقاذورات والتربة المبعثرة، كما ظهر طريق يمتد من الغابة المدمَّرة حتى حافة النهر، حيث سلكته الحيوانات وقد جاءت لشرب الماء. كانت الريح قد قذفت بالمياه في

كـــل الاتجاهات، وبهذا أصبحت، حول حافة النهر، مستنقعات، وبرز القصب والعشب بين الأمواج الضحلة.

لم يرجع الأولاد إلى الكهوف، بل حاولوا إقامة مخيمهم إلى جهة الـــيمين. وعندما أخذوا سمكة إلى موطن النسور، لم يأتِ أي نسر على الفـــور. وكانـــت النسور مسرورة إذ يُقدّم لها الطعام، بعد أن تركت الـــريح بعضها كسيحة، مكسورة الجناحين والساقين. وحاول الأولاد الذين لم يرهبوا هذه الطيور العملاقة مساعدتها، بل أرسلوا الرسائل إلى الكهـــوف مطالبين أن يأتي واحد ممن يمكنه المداواة. ومنذ ذلك الحين نظرتِ النسور إلى الفتيات بوصفهن صديقات، مثل الأولاد تماماً.

منذ ذلك الزمان، بدأ الاهتمام بالأطفال، إناثاً وذكوراً؛ لكن ربما كانت هذه اللحظة هي لحظة تكرار مقطع من التاريخ: إن الشائعة التي تفـــيد بـــأن ولادة أول الذكور كانت مصحوبة بإطلاق اسم المسوخ علـــيهم، وبأنهم عوملوا معاملة سيئة، بل قتلوا أيضاً، ينبغي النظر إليها بوصـــفها شـــائعة لا أكثـــر. إنها مجرد رواية تعبر عن إحدى الحقائق النفـــسانية الـــصعبة. ويسود الاعتقاد اليوم أن الأسلاف الأوائل كانوا ذكوراً، وإذا ما طُرح السؤال عن كيفية ولادتهم فإن الإجابة تكون أن النسور فرَّختهم من بيوضها. مع ذلك كله، لا يمكن أن يكون الاحترام الموجه للطيور الكبيرة الذي تشير إليه مئة ميثولوجيا عن أصلنا، لقاء لا شيء. هذا الاعتقاد أسهل بكثير من الاعتقاد القائل إن الناس كانوا في بـــداياتهم إناثاً كلهم، وإن الذكور جاؤوا من بعدهن. لكن على الرغم من ذلك، ما سبب وجود الأثداء والحلمات عند الرجال إن لم تكن لها في يـــوم ما أي فائدة. ربما في وسعهم الإنجاب عن طريق السرة. هناك احـــتمالات كثيرة، كلها تبدو أقرب إلى التصديق من القول إن الإناث أنجـــبن أولاً. ثم هـــناك شـــيء لا يمكن تصديقه، على نحو موروث،

بخصوص الذكور إن كانوا ثانويين في ظهورهم. فمن الواضح أن الذكور بطبيعتهم، وبتصميم الطبيعة، هم الذين جاؤوا أولاً. ينتمي هذا المقطع، بلا شك، إلى زمن متأخر عن أي زمن آخر لدينا. وهو من تواريخنا نحن الذكور.

ثمة موضوع يدور البحث حوله على نحو متكرر في جميع المدونات التي أعقبت الضوضاء، ألا وهو معرفة التهديد، والخطر الكامن الذي يتعذر تجنبه، فضلاً عن الخوف على الأطفال والصغار.

لقد مضى زمن بعيد عندما كان الصغار مضطرين إلى الخوف من هجوم تشنه عليهم بعض الإناث. فعندما يولد مسخ ما، لم تعد هناك ضرورة ملحة لأخذه إلى الوادي كي ينشأ فيه. وقد أثبت الأولاد منذ بداياتهم أنهم يستطيعون رعاية الصغار، فهم الذين علموا الغزالة كيف تُرضع الأطفال، والأولاد الأكبر سناً هم الذين كانوا مسؤولين عنهم. وفي بعض الأحيان، حرس الأولاد الإناث صغيرات السن أيضاً: ففي أغلب الأحيان، كانت فتاة صغيرة، أو حتى أكبر سناً، تؤخذ إلى الوادي عندما يحين موعد تزاوج أمها، فتتوسّل أن تترك هناك. لقد استمتع الأطفال، أولادَ وبنات، في الوادي، تماماً مثلما كان البعض يفضل العيش إلى جوار البحر.

لم يبخل الأولاد والبنات على أنفسهم في التمتع بشيء، كانوا تحت المراقبة، وكانوا عزيزين.

منذ زمن بعيد، تخلت الإناث عن طريقة الحمل بواسطة تخصيب الريح أو الأمواج التي تحمل الخصب في ثناياها. ولم يخصبن قط، سوى عن طريق الذكور. وقد استغرق الذكور والإناث بعض الوقت كي يفهموا هذا الأمر. لا بدّ أن هناك نقطة معينة أدركت فيها الإناث هذه الحقيقة التي ربما كانت مؤلمة، ألا وهي: إن الإناث لا بدّ

أن يعتمدن على الرجال كي يحصلن على الأطفال. هل يعني هذا أن كلا الطرفين أدركا الوسائل التي تجعل الأطفال داخل أرحام الإناث؟ هل استمرت مفاهيم الإخصاب بالرياح والأمواج في الوعي العام، ثم بانت الحقيقة فجأة؟ عندما فقدت الإناث قدرتهن على الحمل، لا بدّ أن يكـــون تخلـــياً عن الإيمان بأنفسهن، وإذا كان الأمر كذلك ألاّ يكون مؤلماً؟ إنني ميّال إلى الاعتقاد بأن الحقيقة عرفها الطرفان على الفور، أو، على الأقل، ضمن مدة زمنية معقولة. ففي كل الأحوال، نجد منذ بدء هذا التدوين (الذي يفترض أنه يمثل الجانبين) أن وصول المعـــرفة والإدراك كانا شائعين، بمعنى كيف تنظّم الطبيعة شؤونها. وفجـــأة، بدا فرد أو فردان أو أكثر مختلفين، وفكروا تفكيراً مغايراً، وأذعـــنوا لدوافـــع كانت جديدة عندهم. لهذا، يبدو لي أن الدراية بتـــرتيبات الذكور الشائنة قد حدثت كلها في وقت واحد. أي أن الحقيقة بانت واضحة.

وســـارت جنباً إلى جنب المضايقات والكدر بسبب قلة عدد الأطفـــال، وهشاشة وضعهم جميعاً، وشكاوى من استمرار الإناث بمـــناكدة الذكـــور؛ وهو ما ورد في روايات الذكور. فقد وجدت الإنـــاث الذكـــور قاصرين، وهنا ينبغي لنا أن نتساءل إن كان هذا يعبّـــر عن استياء أعمق، لأن الإناث كن معتمدات اعتماداً أساسياً على الذكور.

في حين كانت هذه الأحداث تأخذ مجراها، كان هناك أيضاً نمط أكثـــر قُـــدُماً مـــستمر في وجـــوده (يمكننا أن نسميه نموذج ما قبل الضوضاء).

ولـــد جمـــيع الأطفال في كهوف مطلة على البحر، ولعبوا وسط الأمـــواج بأمـــان. وعاشت معظم الإناث في كهوف، لأن الوادي لم

يـــرقهن، بينما عاش معظم الذكور في الوادي. وكانت هناك زيارات متواصلة. فالفتيات ذهبن إلى الوادي عندما كن مضطرات إلى الذهاب، بينما أمضى الذكور، في بعض الأحيان، بعض الوقت داخل الكهوف. ولم يقـــم الرجال على تربية الذكور الصغار الجدد، بل بقي هؤلاء عند الفتيات الصغيرات. كانت الكهوف مملوءة بصغار الأطفال، بالرضّع من البـــنين والبنات، الذين لا يختلف مظهرهم عن أي مجموعة من أطفالنا. وغالـــباً مـــا كان الأطفال والفتيات والأولاد يذهبون إلى الوادي. لقد كان الوادي موقعاً مدهشاً، مثيراً لكل من الفتيات الصغيرات والأولاد الصغار.

لم يـــرق للنـــساء أن يكـــون الأطفال في الوادي؛ وهنا تظهر لنا شـــكوى مستمرة أخرى صادرة عنهن. كان النهر، بعد أن تعافى من الضوضاء، يجري سريعاً، قوياً كسابق عهده، وكان الأطفال في خطر. وكانـــت الملاجئ والملاذات التي شُيِّدت حديثاً قذرة، رثة دائماً، وإذا كان الأطفال يجدون لذة في ذلك، فإن النساء شكون وحاولن أن يبقين الأطفـــال معهن على الشاطئ. إلاّ أن هذا تغيير، لأن الأطفال اعتادوا تـــرك أُمهاتهم والكهوف والانضمام إلى الرجال في سن السابعة تقريباً. لقـــد وصف الأطفال لنا الكهوف بلغة ليست غير مألوفة عندنا، كما وصـــفوا شاطئ البحر، وأمهاتهم، وصفاً رقيقاً، طفولياً. أما النهر الكبير وأخطـــاره، فقد نظر إليه الأطفال على أنه خطوة أولى، على أنه شيء مـــرغوب مـــن أجل تطورهم. وسرعان ما بدأ الأولاد كلهم يغادرون الكهـــوف ليـــتعلموا تحـــدي مخاطر التيارات النهرية الباردة، والعميقة والقاتلة. وعندما مات ذكر، ولحق به ذكر آخر، بدأ الذكور يفكّرون بأن النهر ينطوي على مخاطرة معقولة.

* * *

ثمة أحداث وقعت في هذا الصيف تجعلني أستأنف شروحاتي. استهل ما أريد قوله بالتذكير بأن الإسبارطيين انتزعوا الأولاد الصغار من أمهاتهم وهم في سن السابعة.

أما أنا وتيطس(*)، فقد نقلنا إلى مقاطعتنا في الصيف، وتوقعنا ألاّ نـــرى جولـــيا وليديا حتى بواكير الخريف، غير أن جوليا أرســـلت إلـــيّ رســـالة تفيد بأنها ستذهب إلى حفل زفاف في المـــزرعة المجاورة لمزرعتنا، وستزورنا عندئذٍ. كان الزوج الجديد هو ديسيموس، وكانت جوليا خليلته على مدى سنوات. وكان زواجه زواجاً طموحاً من لافونيا، وهي فتاة ذات مركز اجتماعـــي مرموق. وأرسل ديسيموس عربة لاصطحاب جوليا إلـــى حفـــل الزفاف. وفي عصر يوم من الأيام، وصلت هذه العـــربة الجمـــيلة المـــزينة بأكالـــيل الزهور وهي تحمل ليديا وجوليا. ترجلت المرأتان فتوجهت إليهما لإلقاء التحية. وعندما شاهدهما تيطس، هرع إليهما، لكنه توقف فجأة عندما شاهد أمه وشقيقته وعقد حاجبيه. كان منفعلاً جداً. غير أن تلك ليست هي المـــشكلة. فقـــد كانت جوليا وليديا تشكلان ثنائياً مدهشاً؛ كانت جولـــيا ترتدي رداءً بنفسجي اللون، صممته لها والدتها. بدت جولـــيا امرأة بهية الطلة، فيما جعلتها الفتاة الرقيقة تبرز على نحو لائق. شاهدت جوليا صبياً وسيماً يحدّق إليها، ولم تعرف فـــي بادئ الأمر أنه ولدها الذي لم تره منذ سنة أو نحو ذلك. وكان أول ردّ فعل لها هو أن تغازله وترسل له ابتسامات تُقر بجاذبيـــته، غيـــر أن هذا الدافع توقف عندما فهمت مراده. فقد استدار نصف استدارة، ويداه مسبلتان، وجسده يقول إنه يوشك علـــى الانصراف. وقفت شقيقته إلى جانب أمه مبتسمة. "انظر

(*) تـــيطس (39 – 81م)، إمبراطور روماني (79 – 81م) قام في عهد والده فسبسيانس بحصار بيت المقدس ودمرها سنة 70م. (المترجم)

إليّ! انظر إليَّ فحسب! إنك لم تتعرف إليَّ. أليس كذلك؟" كان الاثنان صديقان حميمان دوماً حتى الصيف الماضي عندما بدت ليديا بين ليلة وضحاها، وهي تدخل في موهبة طبيعية تتمثّل في معرفة جنسية أدركتها مؤخراً، وفهم غريزي لنفسها ولجنس الذكر. لم تكن ابتساماتها إلى شقيقها لتقرّ بهذه الصداقة، بل توضح أنها باتت فتاة بالغة، وأنه لا بدّ أن ينتبه إليها. أهناك فجوة أعظم من تلك الفجوة القائمة بين صبي في الثالثة عشر وشقيقته البالغة خمسة عشر عاماً، وقد غدت امرأة؟ ذهل الفتى، كأن ابتسامات المرأتين سهام مسمومة الرأس. ولم يستطع أن يتحرك من مكانه.

كانت جوليا في هذه اللحظات ساكنة هي الأخرى. فهذا هو ولدها، ولدها الوسيم. ولم تعرف كيف تتصرف، لكنها تقدمت بعد ذلك خطوة نحوه، حركت شعره بيدها؛ يد جميلة بيضاء تكشف عن خواتم زوجتي الأولى، ووالدتي. تراجع الفتى خطوة إلى الخلف، مقطباً حاجبيه. كان طويل القامة مثلها، عيناه تشبهان عينيها السوداوين المدهشتين، تحدقان إليها بنظرات صارمة، جادة، تنطويان على اتهام. مما لا ريب فيه أنه تنكر لها ولملاطفتها السخيفة. أعتقد أنها كانت تشعر، مثلما شعرت قبل سنوات طويلة مضت، أن هذا الفتى ولدها، وأنها أضاعت كل السنين بينما كانت تقدر على معرفته. لا أدري، فهي لم تقل ذلك. لكنها كانت على وجه التأكيد، نادمة، بوقفتها في ذلك المكان. امتلأت عيناها بالدموع، بينما كان حصان العربة، من خلفها، يضرب بقوائمه، ويهز رأسه، ذلك لأن اللجام كان مشدوداً بإحكام، فأشرت إلى سائق العربة أن يرخي اللجام عن رأس الحصان، وعرفت أن جوليا قد رأت في الوقت نفسه الضيق الذي شعر به الحصان، وأنه كان بإمكانها أن

تصلح الوضع بنفسها. لقد تغلب عليها العار، والندم، وهي في مكانهـــا، هذه المرأة الجميلة، تحت نور الشمس الحارقة. كان العـــبد يحمـــل مظلة بثبات، لكن الشمس كانت تضرب وجنتي جوليا.

كـــنت أقول دوماً إنها طيبة القلب، وإنها امرأة رقيقة. أعتقد أن زميلاتها الحاضرات سيضحكن عند سماعهن هذا الكلام. فهن يعرفن المرأة التي تصيح صيحات الاستحسان عند رؤية الدماء في الحلبة، وألم احتضار الحيوانات، والمصارعين. لكنها كانت تشعر في عصر ذلك اليوم بالحصان الذي عومل معاملة سيئة. كان مشهداً هشاً، يائساً. وفعلت شيئاً ما، على نحو طائش، كنت قـــد خططت لأقول لها، وحدها. كنت أعتقد أنها كانت مخطئة عـــندما وافقت على حضور هذا الزفاف، وبخاصة أن الزوج الجديـــد سجّل موقفاً بإرسال عربة صغيرة بالغة الجمال. كان مـــن شأن جوليا أن تبدو مشرقة في هذا الزفاف، بغض النظر عن عدد النساء الجميلات اللواتي قد يحضرن الحفل. خطوت بضع خطوات إلى الأمام، وطوقتها بذارعي، وهمست في أذنها الـــبارزة مـــن تحت تصفيفة الشعر المعقدة القبيحة التي غدت عصرية اليوم: "انتبهي، أيتها الحجلة. انتبهي يا جوليا".

ســـمعت لـــيديا هذه الكلمات. أنا لا أظن أن أيّاً من الطفلين قد شـــاهد لحظات رقيقة بين أبويهما. كان ردّ فعل جوليا، التي لم ترغب في أن تخلّ بتصفيفة شعرها، هو أنها ذابت بين ذراعي (لا بـــدّ أن أقـــول إنهـــا ذابـــت مثل ابنة وليس مثل زوجة)، وهمـــست: "شكراً لك يا عزيزتي. شكراً لك دائماً". لمعت عينا ابنـــتها غيـــرةً، تلك العاطفة البدائية، غيرة الأم والابنة. بل إن ليديا مدت يدها وكأنها تريد أن تجذب أمها بعيداً عني، إلا أنها تـــركتها وشأنها. وقف الولد في هذا الوقت يحدّق إلينا. لو كنا

وحـــدنا لقلـــت مسترسلاً: "ليس من غير المألوف يا جوليا أن تعاقـــب زوجة جديدة، سابقتها أو حتى تحاول أن تقتلها". لكنني كـــنت أرى جولـــيا تفكـــر تفكيراً طويلاً، إذ تركتني أنصرف بمهارة، وهي تربت على خصلات شعرها الأسود.

(علـــى أي حـــال، توفـــيت لافونيا، الزوجة الجديدة، في أثناء الولادة، في ربيع السنة التالية).

خطت جوليا، والدموع تملأ مقلتيها، داخل العربة، وجاءت ليديا لمعانقتـــي بعد أن شعرت، على ما يبدو، أنها لم تعبّر قولاً بما فيه الكفاية. لم يكن ذلك شيئاً زائفاً، فقد كنا منسجمين دوماً، أنا ولـــيديا الـــصغيرة غير الموجودة هنا عصر هذا اليوم، المرأة الـــشابة الجمـــيلة، إذ عادت لتصبح طفلة برهة قصيرة. ولما شـــعرت بوجـــودها، مـــثلما شعرت مؤخراً قبل بضعة أشهر، توجهت نحو شقيقها، لكن من دون إغراء، أو غزل، بل أرسلت لـــه نظرات تنمّ عن صداقة مثل أخت محبوبة. غير أن تيطس ابـــتعد عـــنها، فاســـتخفت هـــي به، وهزت رأسها، وأظهرت اســـتياءها بـــصمت، لكـــنها استقلت بدورها العربة، ومضت الاثنـــتان، المرأتان، إلى الضيعة التالية. كانت الضيعة قريبة، وكان في وسعهما أن تذهبا سيراً على الأقدام.

وقفـــت هناك، عصر ذلك اليوم الرائع، والنسور تحلّق فوقي، والعصافير تزقزق في أجمة قريبة.

تـــرك الفتـــى المرأتين يدفعه دافع عنيف إلى الهرب، ووثب مـــرة، مـــرتين، وأكثر. انطلق راكضاً واجتاز الحقول التي اكتـــست حمرة بفعل الشمس. هكذا أتذكر ذلك الصيف؛ الفتى يتـــنقل هارباً بمفرده، أو برفقة أولاد رعاة الماشية، أو أبناء عبـــيد الـــدار. كانوا كلهم يلعبون معاً. لكنني لم أكن أراقب اللعب.

أحبّت خادمات المنـــزل تيطس، وكن يعرفنه طوال حياته، بل يمكن القول إنهن كنّ أمهات أخريات له. وقد شاهدت بعضهن تلك اللعبة قرب العربة، وعرفن معناها؛ فالعبيد والخدم يعرفون أكثر مما نعتقد أننا نعرف. فقد أردن أن يعوضن الفتى عن أمه اللامبالـــية، لكـــنه لـــم يكن في ذلك الوقت محتاجاً إلى الرقّة. وعندما كنت أشاهده يجهد نفسه في تلك الفعاليات، يتسلق التلال العالـــية والخطيرة حيث تعشعش النسور، ويتسابق ركضاً مع غيـــره من الصبيان، ويتسلق الأشجار العالية. وكنت لا أقوى على مشاهدته خاصة وهو يمارس الشقلبة، والألعاب البهلوانية والتحدّيات التي يعدونها بأنفسهم، فإنني كنت أشعر أنه يريد أن يـــسابق شـــيئاً ما، أو منافساً من المنافسين، أو أنه يسعى إلى تحريـــر نفسه. ذكّرني ذلك المشهد بإحدى المرات التي أُرسلتْ فيها بعض العبدات للحصول على أسماك من المستنقع وكانت الحشرات تملأ المكان، باحثة عن طعام. كانت العبدات يرقصن ويقفزن وسط سحابة من حشرات تضرب رؤوسهن وأذرعهن وسيقانهن.

يمكنكم أن تتخيلوا مادة غير مرئية تهاجم فتاي، فيما يحاول هو أن يخلّص نفسه منها.

لقد أصبح هزيلاً، نحيفاً، في ذلك الصيف، بحيث تجاوز مرحلة الطفولة وغدا شاباً قوياً، بل رجلاً مكتمل الرجولة.

رفـــض أن يلتقي شقيقته. وعندما جاءت جوليا لرؤيته لم يكن موجوداً في البيت.

جعلنـــي هذا الصيف أتذكر طفولتي. فقد كنت واحداً من ثلاثة أخوة، أكبر سناً من الفتاة الصغيرة، وُلدت في فترة متأخرة من حياة أمي التوالدية. داعبنا نحن الأطفال الفتاة، وجعلناها لعبتنا وانـــصرفنا عنها عندما أصبحت تعرقل لعبنا. أدركت في ذلك

الـصيف صـعوبة ذلك التصرف من صبـي أصغر سناً من شقيقته.

حاولـت دومـاً أن أكون حاضراً بين يديه، حاولت أن أظهر بـصمت مشاعري تجاهه. وهكذا كان شأن العبيد والخدم من النساء. كان صبياً مؤدباً، طيب القلب، فلم يزجر أحداً، بل دافع عن الجميع. إلا أنه كان يهرب منهن، ينأى بوجهه دوماً عنهن.

فـي عـصر يوم من الأيام، قطفت باقة صغيرة من الأزهار، وسـرت نحو تمثال أرتيمس، في ذلك البستان الذي تتقاطع فيه الممـرات، عندما شاهدت تيطس يسير خلفي، يراقب ما أفعله، أومأت له برأسي، فهزّ رأسه بدوره، إلا أنه ظل واقفاً ورائي، وكـان وقـع خطـواته مسموعاً فوق الأرض الصلبة في ذلك الـوقت المتأخـر من الموسم. عندما كنت صبياً، (مثل أبـي) أحببت ديانـا، تلـك الفـتاة المتشبهة بالصبيان في الخشونة والـصخب، التـي فكّـرت فيها، رفيقة في لعبة، والتي كانت تفهمني. تركت لها هدايا صغيرة وتمنيت أن أدنو منها يوماً ما، عندما تكون مع فتياتها، وتتعرف إليَّ. لكنني وجدت، في وقت لاحق، أنها صغيرة السن بالنسبة إليَّ، فأحببت أرتيمس. عندما وصـلت إلى التمثال انحنيت، ووضعت باقة الأزهار الصغيرة عند قدميها. تمنيت أن يراني تيطس، ويدرك مشاعري. فأنا لم أستطع أن أقول له إن والدتك وشقيقتك هما الممثلتان الوحيدتان للجنس اللطيف.

كـان يقف قريباً مني، ينظر، كما أنظر إلى أرتيمس الجميلة. كنت أقول له بصمت إننا بصرف النظر عن صعوبة الأشياء، نستطيع دوماً أن نعتمد على شيء لا يتغير أبداً. فهذه أرتيمس الباسـمة، الكريمة، ستظل في هذا المكان إلى الأبد. ليس من الممكـن أن نتخيل أنها ستغيب يوماً ما. لم يراودني شعور ما

تجـــاه جونـــو أو فيـــرفا أو هيرا، فهن بعيدات جداً عني. أما أرتيمس فإنني أشعر بأنني قريب منها قربـــي من أمي، أو من زوجتي الأولى المسكينة. وهكذا ترى يا تيطس وتذكر أنها هنا، وستكون دوماً هنا، سيظل تمثالنا في هذه البقعة، مبتسماً دائماً.

* * *

تغـــيرت الحـــياة علـــى النهر بتغير الزمان. فقد جاءت قوارب، معظمهـــا كانـــت عـــبارة عن جذوع أشجار، أو حزمة من قصب. وأقيمت المهرجانات قرب النهر، وجاءت كل الإناث للمشاركة فيها، وقـــد تخلل ذلك رقص وولائم. لكن لا يمكن تخيل مهرجانات يشوبها إحساس يفيد *بأننا نقيمها دوماً بهذا الأسلوب* في أثناء الأيام الأولى من حـــياة أولئك الناس. أما اليوم فهناك مآدب تؤدي فيها النار دوراً مهماً حـــيث يتمّ إعداد لحوم حيوانات اصطيدت في الغابة؛ نحن هنا نتحدث عن عصر، أو عن عصور زالت.

في هذه الأيام التقى الشباب من هؤلاء الناس، ذكوراً وإناثاً، لقاءً منتظماً عند صخرة الموت، التي نَسيت منذ زمن بعيد تاريخها الرهيب، وأصبحت تُنظّم التحدّيات والمصارعات وكل أنواع الألعاب البهلوانية. ليس من الممكن تخيل إناث تلك العصور القديمة، البدينات، الناعمات، والبطيـــئات وهن يتصارعن أو حتى يشاركن في سباق الركض. أعتقد أنـــنا يجـــب أن نفترض بأن بنيتهن قد تغيرت؛ فبعد أن كانت الفتيات ذوات أجساد قوية، مفتولة العضلات، محميّة بالشحوم، هؤلاء الفتيات اللواتي كن يسبحن بسرعة تفوق سرعة مشيهن، قد أصبحن رشيقات، ومرنات، وخفيفات الحركة.

في أثناء هذا كله - وهو زمن طويل جداً - طالب الأولاد الصغار بـــصخب أن يكونوا جزءاً من حياة النهر. لم يكونوا مثل أولادنا الذين

لم يـــبخلوا على أنفسهم في التمتع بأي شيء، العبدات يراقبنهم دائماً، ربما ينعمون بابتسامات وهم يلعبون لعبة الجنود، فيما الفرسان الصغار يتأكدون من قوتهم. لقد عرف هؤلاء الأطفال منذ رضاعتهم طريقهم فوق الجبل. لا طائل من قول ميري أو خَلَفها: "نحن لم نسمح بذلك". كيف يمكن لهن فرض ممنوعاتهن؟ لقد وجد الأولاد الصغار الشجعان – بعـــضهم لم يتجاوز سن الطفولة – طريقهم صوب الوادي، وفي وسع النساء أن يزجرن ويوبخن قدر استطاعتهن.

الأمـــور أسهل دوماً في الوادي. لقد أصبح عدد الذكور والإناث متـــساوياً الآن – وهـــذا ما ينبغي لنا استنتاجه – وتخلص الأولاد من قلقهـــم وحاجـــاتهم الدائمة التي لم يعرفوا لها مصدراً. ولا يمكننا أيضاً تحديـــد ما كانوا يفهمونه وما لا يفهمونه. كيف ننظر اليوم إلى كلمة "نعـــم؟" شـــيء واحد نقوله، وهو: "إننا نعرف أن الإناث يأتين إلينا فنمارس ألعابنا، وبعدها ينجبن الأطفال". نعم، لكن هذا يختلف اختلافاً شـــديداً عن تفكيرنا بما يدور في خلد الفتيات. عليهن أن يعرفن أنه لا يمكـــن وجـــود أطفال من دون ممارسة *الألعاب* مع الأولاد. ففي زمن الريح العظيمة، الضّوضاء، تواصلت عملية التزاوج القصير وأصبح لزاماً على الإناث أن ينتبهن، وإن لم ينتبه الأولاد، إلى أنه لم يولد أي أطفال في حين كان من المتوقّع أن يولدوا في وقت ما. هل قلن *تسعة أشهر* أو أي شـــيء مـــشابه لذلك؟ لا نعلم. لكنهن كنّ يعلمن أن هناك فترة استراحة بعد التزاوج، بعدها يأتي طفل، أُنثى أو ذكر.

مـــثلما كانت هناك شكاوى مستمرة من الإناث من مخاطر كنّ يـــتوقّعن أن يـــواجهها الأولاد الصغار، فقد كانت هناك شكاوى من الإناث من النهر العظيم، على وجه التحديد. وقالت النساء إن الأولاد الصغار لا ينبغي عليهم الاقتراب من النهر.

أوه. كـــم كـــرهت الإنـــاث وادي ذلك النهر. ويتضح هذا، وبإلحاح، من مدونات ذلك الزمان وأغانيه. وكان أكثر ما يكرهنه هو النهر الذي كان يشكل خطراً عليهن، لا على الأولاد والأطفال الصغار فقـــط. كانـــت عبارة: *يا لقلة عددنا، يا لسهولة موتنا*؛ وهي كلمات إحدى الأغنيات، تتردّد باستمرار. لقد مات العديد في ذلك النهر.

كان نهراً سريع الجريان، عميقاً، بارداً، وإذا ما أرادوا السباحة فيه فعليهم جميعاً، خلا الشبان الأقوياء، أن يتقيدوا بحدود الخليج أو الجـــون، حـــيث يجري الماء الهوينا وبتكاسل، ويغدو ضحلاً. كان هـــؤلاء الناس، الذين ولدوا على حافة البحر، داخل الماء وخارجه دومـــاً، وكان شعورهم إزاء الماء يوازي شعورهم نحو الهواء. وبناءً علـــى إصرار الإناث، فقد وضع حراسٌ على ضفتي النهر للحيلولة دون نـــــزول الأطفال الصغار إليه. وقد تولى الحراسة، عن طيب خاطر، أولئك الأولاد الأكبر سناً، فكانوا يعاملون الأطفال الصغار معاملة طيبة تشبه معاملة الإناث لهم. أَوَلَمْ يقوموا برعاية عدد كبير مـــنهم بمـــساعدة النسور؟ أو لم يعلّموا الغزالة كيف ترضع الأطفال الصغار؟ موضوع أنهم لم يعرفوا كيفية الاعتناء بالأطفال الصغار لم يكن هو بيت القصيد، بل إنهم كانوا غير مكترثين، وهذا ما شكَتْ منه الإناث. كان هؤلاء الأولاد نسّائين. إذ كان الأولاد الأكبر سناً يبدأون بممارسة لعبة مع ولد صغير، يحاول الوصول إلى الماء المغري، لكـــن ســـرعان ما تصبح اللعبة مملة، إذ يأتي أولاد صغار آخرون، وعـــندئذ يُنـــسى أمر الولد الأول، أو تراه يسقط في الماء. حضَّت الإناث الأولاد، وحاولن تعليمهم الاستمرار في الرعاية. لكن المطاف انتهـــى بأن شاركت الإناث في حراسة ضفتي النهر؛ إذ لم يستطعن الوثوق بالأولاد في تذكر مهامهم.

اعـــتقدت الإنـــاث، آنذاك، أن الأولاد متخلّفون عقلياً، لأنهم لا يملكـــون ذاكرة اعتيادية. وتطورت هذه الفكرة، لتصبح: "لقد ولدوا أســـوياء، لكنهم بدوا أنهم لا يفكرون بعد ذلك إلا في شيء واحد هو حاجتهم الجنسية".

تـــسببت إحدى الألعاب التي ابتكرها الأولاد بمشادة عنيفة. كانت اللعـــبة تقتضي أن يبتعد الأولاد المغامرون عن الخليج الآمن، ولم يكن ذلك يعـــني بالضرورة الأولاد الأكبر سناً، ثم يرموا بأنفسهم وسط أمواج النهر العاتـــية. وكانـــوا يتركون لأنفسهم العنان حتى يصلوا جزيرة صغيرة على مـــسافة بعـــيدة أسفل النهر. ولدى وصولهم يخرجون من الماء، ويأخذون قـــسطاً مـــن الـــراحة، التي تتطلب منهم سباحة خطيرة، وبالتالي يعودون راكـــضين فيقفـــزون في المـــياه الضحلة ويسبحون، ليصلوا بعد ذلك إلى الأمواج العاتية الباردة. في بعض الأحيان، ربما يتمسكون بقطعة خشب أو بغـــصن، إن صـــادفوه يجـــري مع التيار، ويتشبثون به، ويستخدمونه في ســـباحتهم. لم تتصرف الإناث مثل هذا التصرف، أي الإناث الأكبر سناً، لأن الإناث الأصغر سناً كن يشاركن الأولاد في تلك السباحة.

كـــان اعتـــراض الإناث منصباً على انضمام الأولاد الصغار إلى السباحة، لأن ذلك أمر خطير، وقد فقد طفل صغير حقاً سيطرته على الجذع أو الغصن وغرق.

ثمـــة إشـــارة إلى عزاء بخصوص هذا الطفل. وتوكيد هذا العزاء يختـــلف عـــن مشاعر عدم الاكتراث، أو اللامبالاة، إزاء حالات وفاة حصلت منذ زمن بعيد. كان هذا الطفل عزيزاً جداً، ولم يُودع في الماء بل أُحضر من الجزيرة إلى الضفة الكبرى، وكان قد عثر عليه قرب نتوء تحـــت الماء. دُفن الطفل عند طرف الغابة، ووضعت من حوله صخور للحيلولة دون عبث الحيوانات بجسده.

ثمـــة إشارة، ترد غالباً هنا، عن حيوانات ضخمة، تخرج في بعض الأحيان من بين الأشجار.

فضلاً عن النهر الخطير، كانت النيران العظيمة تبقى مضطرمة، ليل نهار، بسبب هذه الحيوانات، التي كانت تخشى النار، وكان لهذه النيران حراسها أيضاً.

وكانـــت هـــناك إشارات دوماً إلى الخطر، إلى التهديد: "يا لقلة عددنا، يا لسهولة موتنا".

هـــذا هـــو الـــسبب الذي يدفعنا إلى التفكير في أنّ هذه الحقبة اســـتمرت مدة طويلة من الزمان كافية لظهور عادات ومشاعر وأفكار جديدة.

ما شعورهن عند دفن ذلك الطفل الصغير؟ ما شعورهن عند موت المـــسنّات؟ هل تركن قطعة من سمك إلى جانب قبر الطفل ليأكلها في رحلته إلى الحياة الأخرى؟ هل آمنّ بحياة أخرى؟

عندما توفي هذا الطفل، بسبب تقصير الشبان - وهذا ما فكّرت فيه الإناث، وهو ما آمنّ به - طالبت فتيات الشاطئ إجراء مناظرة مع الأولاد، وأصررن على اتخاذ قرارات بخصوص السلامة.

اقتـــرح الـــرجال عقـــد اجتماع فوق بقعة معينة من الشاطئ، وستسبق الاجتماع مأدبة. كانت هناك متعة، وإثارة *وألعاب* استمرت معظم الليل، وكان القمر بدراً ينير هذه الاحتفالية، في تلك الليلة، كان يسهل الاعتقاد بأن القمر كان يملأ أرحام الإناث، قبل مجيء الأولاد. لم ينم كثيرون تلك الليلة، ولما أشرقت الشمس كانت الفتيات منهمكات في استدراج الأولاد إلى ألعاب أخرى. وساد شعور بالاستياء عندما قال الأولاد: حان الوقت الآن للذهاب إلى الشاطئ، الذي خصصوه لإجراء المـــشاورات. في الحقـــيقة، لم تكن هناك أي مشاورات للأولاد، لأنهم

كانـــوا مـــتهمين بتزجية الوقت لا غير، وكان ذلك اليوم يوماً مفضلاً لـــديهم، لأن المـــوج العالي كشف عن أعداد أكبر من حجارة كانوا يحـــتاجون إليها في إحدى الألعاب الرياضية. أما وصف البنات لذلك الـــيوم فكـــان وصفاً منـــزعجاً، ساخطاً، لكن شرح الأولاد اكتفى بالإشارة إلى أن الفتيات *كن يتذمرن كعهدهن*.

هذا ما حدث.

كـــان هذا الشاطئ البحري يختلف عن الشاطئ الصخري الذي تعرفه الإناث معرفة جيدة، إذ يبدو حافة طويلة من رمل أبيض، تنتشر عليه صخور، ملساء بفعل ماء البحر، يطيب للمرء أن يلمسها؛ وهذا ما كانت تفعله الإناث، إذ كن يمارسن اللعب بها، ويتساءلن كيف يصنعن منها قلائد وزينة.

كان الرجال في هذا الوقت يقفون حيث توقفت الأمواج، يرمون الحجـــارة على ارتفاع منخفض فوق الموج ليجعلوها تقفز مرة، مرتين، ثـــلاث مـــرات، حـــتى تغـــوص بين الأمواج. تساءلت النساء: "ماذا تفعلـــون؟" فـــرد الرجال: "هذه هي أفضل الظروف، ولن نضيعها إن سمحتن". "نعم، لكننا جئنا إلى هنا للحديث عن حماية الأولاد الصغار". "حسناً. انتظرن إذاً".

لكـــن الأولاد استمروا في اللعب، يرمون الحجارة، ويعبرون عن دهـــشتهم من مهارات بعضهم، فيما احتارت النساء في بادئ الأمر، ثم ذُهلـــن، وأخـــيراً شـــعرن بالإهانة. تساءلت النساء في ما بينهن: "ما الفائدة؟" "ربما يرغبون في أن نعبر عن إعجابنا بهم". كان الرجال عراة، باســـتثناء تلك المآزر المصنوعة من الريش. كانت تمثل تحدياً حقاً، بل دعـــوة، حـــسب بعـــض الفتيات، وحاولن استدراج الأولاد ليتركوا لعبـــتهم، ويلعـــبوا معهن. لكن لم يبدُ على الأولاد أنهم كانوا يحاولون

جعل الفتيات يعبرن عن إعجابهن بهم، إذ كانوا منهمكين تماماً في رمي الحجارة. "ثلاث... أربع... خمس..." قال أحد الأولاد، لكنّ آخر صاح: "لكنني حققت ست طفرات". وقال آخر: "لا. لم تحقق، كانت خمس طفرات. وهكذا استمر هزلهم، وتنافسهم في رمي الحجارة، يكشفون عن مهاراتهم وارتياحهم معها. وفكّرت النساء في أن هؤلاء سرعان ما سيتسلل الملل إلى نفوسهم: "ما فائدة هذا اللعب؟ ماذا تراهم يظنون أنفسهم فاعلين؟" غير أن هؤلاء استمروا في لعبهم. كان الجو دافئاً، انقلب بعد ذلك إلى حار.

كانت الشمس مسلطة مباشرة من السماء على الأرض. وانكفأت الإناث إلى الأماكن الظليلة، حيث جلسن واضعات أذرعهن حول سيقانهن، يراقبن ما يجري. أي مهارة هذه التي تغلغلت في لعبة الرجال، وأي تركيز، وما سبب هذا كله؟ هكذا تبادلت النساء الأفكار، وهن ينظرن نظرات حزينة. انتصف النهار، وآن الأوان للعثور على ظل، بل ربما كهف، والخلود إلى النوم، أو اللعب، وهو ما كانت تريده النساء. ثم توقف الرجال عن اللعب، كأن إشارة صدرت لهم بذلك، وبدأوا لعبة أخرى. كان المد ينحسر، فيكشف بذلك عن قمم الصخور السوداء الزلقة. كان الذكور كلهم، حتى أصغر الأولاد، يقفزون من صخرة إلى صخرة قفزات جريئة، ناجحة، على الرغم من أنها كانت تبدو مستحيلة. فلو حدث وسقطوا في البحر، وجرحوا أنفسهم، فإنهم سيواصلون لعبتهم وهم ينزفون دماً. استمروا كي يلاحظوا أيهم يستطيع القفز قفزات أعلى وأسرع، وأكثر مهارة.

جرح أحد الأولاد الصغار ركبته، وقصد الإناث كي يربطنها له بأعشاب البحر، وسرعان ما عاد أدراجه إلى الآخرين.

عمدت النساء إلى إظهار نـــزيف الطفل للرجال، الذين لم يجدوا في ذلك دليلاً على تقصيرهم، وأشاروا بتصرفاتهم إلى أن عملهن ينطوي على شيء من التخريف كعادتهنّ.

هامـــت مجمـــوعة من الشبان على وجوههم، من دون أن يلقوا التحـــية على النساء أو حتى النظر إليهن، كما يبدو. انحسر الضياء عن الـــسماء، واهتمت النساء برؤية الشبان وهم يعودون، إلا أن الآخرين قالـــوا إن تلك المجموعة هي مجموعة الصيد، وربما لن يرجعوا في تلك اللـــيلة. كـــان الصيادون يقون غالباً في أماكن مناسبة ليستفيدوا من الـــصباح الباكـــر الذي تخرج فيه الحيوانات من بين الأشجار لتذهب صوب ثقوب الماء والجداول.

لم يكـــن هـــناك ما يوحي بأن النقاش الموعود سيحين. وكانت حادثة الصبـــي الصغير الذي جرح ركبته قد حلت محل التأنيب الذي خططت النساء له.

لم تكـــن هـــناك وليمة في تلك الليلة. حدثت حالات قليلة من التـــزاوج، لكن ليس كما حدثت في الليلة الماضية، على الرغم من أن القمر كان شاخصاً في الأعلى.

اســـتيقظت النـــساء في الصباح الباكر ليجدن الرجال قد اختفوا جمـــيعاً. كـــان من الصعب تجنب التفكير بأن الرجال شاهدوا النساء، إناثهم، نائمات وصامتات، فانسلوا من المكان بهدوء كي يهربوا! نعم، شبه مؤكد. هذا ما فعله الرجال.

قـــررت النساء الكف عن هذا التفكير، وعدن أدراجهن على امتداد الـــشاطئ صـــوب منطقتهن، حزينات، خائبات، يشعرن بالخذلان، على الـــرغم مـــن أن بعض أفراد مجموعة الصيد قدّمت لهن، في ما بعد، حيواناً مذبوحاً، وأعدت ناراً لشويه. بدا أن هؤلاء شعروا بأنهم يقدمون اعتذاراً.

حدث مثل هذا الشيء أكثر من مرة، وتضمنت الشروحات التي أوكل أمرها إلى فئة الذكريات من النساء ملاحظات عن الجهاز العقلي عند الذكور. التوقعات لم تتوقف: هل هم مجانين؟ إذ يصعب النظر إلى رمي الحجارة طوال النهار، فوق الموج على أنها ممارسة سليمة. لا، إنهم – في بعض الأوقات، على الأقل – مجانين. لعل القمر بدراً أثر فيهم؟ على أي حـــال، إن كان البدر نظم إخصاب النساء ودورتهن الشهرية، فإن الـــبدر يمكـــنه أن يجعل من أصحاب العقول السليمة مجانين. على أي حال، اتفقن جميعاً، في نهاية المطاف، على أن الرجال قاصرو الفهم، إن لم يكونوا مجانين.

لكن هناك بعض الفتيات اللواتي رفضن ترك وادي الرجال، وصرّحن بـــأن الحـــياة هـــناك تطيب لهن. لكن سرعان ما عادت فتاة، ثم أخرى، وأخـــريات. عدن غاضبات، خائفات بسبب حملهن. بينما بدأت بطونهن بالانتفاخ، قيل لهن إنهن غير مرغوب بهنّ، على الرغم من فائدتهن في تقطيع أوصـــال الحيوانات المذبوحة، وإضرام النار، ورفع النفايات وبقايا الولائم. وقـــيل لهن: "عُدن إلى منطقتكن". على الرغم من عدم وجود رغبة لديهن في الـــذهاب. لم يكـــن شـــاطئ النساء، بما فيه من عدد كبير من الإناث الحـــوامل، والأطفال، والأولاد الصغار، ساحلاً أميناً على الرغم من وجود الـــشيء الكـــثير مـــن مظاهر التسلية للأطفال والأولاد، داخل الأمواج وخارجها، إذ أصبح هؤلاء أطفال الماء، تماماً مثلهم مثل صغار طيور البحر أو مثل كلاب البحر. و لم تفقد الموجات الباردة الضاربة جاذبيتها للبالغين.

غـــير أن المقارنـــة بين شاطئ النساء ووادي الرجال، صعبة عند بعض الإناث، صعبة الاحتمال.

لم تكـــن الصعوبة متمثلة في أن الرجال لم يأتوا لزيارة النساء في الكهوف ذات الهواء الطلق، وأن النساء لم يذهبن لزيارة الرجال.

ثم حـــدثت مـــواجهة دفعـــت الذكور إلى الخروج من واديهم والذهاب إلى الغابة.

كان الشبان من الذكور يبتكرون دوماً مآثر وتحديات جريئة، ثم جـــاؤوا بـــشيء دفع مارونا إلى أن تصاب بالجنون، فذهبت إلى الجبل صـــوب هورسا. إن اسم مارونا، وكذلك اسم هورسا يظهران الآن. ولا ندري إن كانت المقاطع مار... مارو... مير تمثل فرداً أو، وهذا ما نعتقد بصحته، إنه يمثل زعيمة النساء الحالية.

ذهـــب الـــشبان إلى الـــصدع مصطحبين معهم حبل الغابة - لحاء الشجرة - ثم شدّ أحدهم الحبل إلى خصره، وقفز إلى الأسفل نحو المنصة، حـــيث قهـــرته الأبخرة المتصاعدة من مستودع عظام الموتى. كانت اللعبة تقتضي أن يرفعه إلى الأعلى أولئك الأصحاب الواقفون عند الحافة وينظرون إلى الأســـفل، قـــبل أن يفقد وعيه. مارس الجميع هذه اللعبة، واحداً تلو الآخر، أما الذين لم يجربوا الإناث، فلم يكن ينظر إليهم على أنهم بالغون.

ذهبت مارونا وحدها لتجد هورسا قد خرج إلى الغابة للصيد.

تقـــول مدوناتـــنا إن مارونـــا هاجمت هورسا، وكان لا بدّ من تهدئـــتها. أما مدوناتهن فتقول إن هورسا لم يعرف، على ما يبدو، أنه كـــان مقصراً في أي شيء، إلى أن صرخت في وجهه، وأخبرته أنه لم يفكّـــر قط بأفعاله، ولم يدرك العواقب... وأن كل فرد، كان يعلم أن الأولاد الـــصغار تـــرسموا خطى الأولاد الكبار في كل شيء، وعندما حاولوا القفز إلى أسفل المنصة، أولاً، فإنهم سيلجأون إلى استعمال حبل مـــن أعـــشاب البحـــر، وهو حبل لم يكن بكل تأكيد كافياً لحملهم. وكانـــوا أطفالاً أيضاً، ليسوا أقوياء إلى الحد الذي يمكّنهم من الصمود أمـــام رائحة الأبخرة، أو، إذا ما تمسكوا بالحبل فإنهم لن يستطيعوا منع أنفسهم من السقوط إلى الهوة.

صـــاحت مارونا: "أتحاول قتل جميع أطفالنا؟" وهورسا، الذي لم يفكر حتى الآن أن الأولاد الصغار سيحذون حذو الشبان الكبار، فرد بأنه لا توجد ضرورة كي تصرخ وتزعق على هذا النحو، وأنه سيتأكد بنفسه من وقف هذه الممارسة على الفور.

هل اعتذر هورسا، هل اعترف بأنه طائش لأنها كانت على حق؟ لا أعـــتقد أبداً أن هورسا اعترف بأنه كان على خطأ، إلا أن مدوناتنا تـــشير إلى أن مارونـــا كانت *سلبية* وأنه وافق على وضع حراسة عند الصدع، ليلاً ونهاراً، ليضمن عدم صعود الأولاد الصغار إليه.

سألته مارونا وهي تبكي:

– ألا تهتم بنا؟

تطلب هذا الأمر تمحيص مئة شارح. ماذا كانت تعني بكلمة *بنا*؟ تـــبدو الكنية *"الناس"* قد انقرضت منذ زمن بعيد. هل كانت تعني أن الذكـــور لم يهتموا بمحاكمات النساء؟ أو عن الأولاد الصغار؟ (*عدد قليل جداً من الفتيات وقعن تحت إغواء الأبخرة – وقلن إن ذلك خرقاً للـــشعائر الدينـــية، وإن الصدع مقدس*. مثل هذا الكلام الصادر عن الإنـــاث، لم يكن ليدون دوماً، وعلينا أن نفكّر أنهن كن يخترعن أسباباً دينية لنقد الأولاد).

هـــل كـــان لهؤلاء الناس، رجالاً ونساءً، أي فكرة عن أنفسهم بوصـــفهم الـــناس الأحياء الوحيدين، حسبما أشارت إلى ذلك تلك الأغنـــية: "يا لقلة عددنا، يا لسهولة موتنا؟". ليس هناك أي مدونة في أي مكـــان، سواء أكانت مدوناتنا أو مدوناتهنّ تشير إلى أنهم اعتقدوا بأن هناك أقواماً آخرين يشبهونهم أو لا يشبهونهم، في مكان آخر، *على جزيـــرة أخـــرى*. بدا لهم أن هذه الأرض، التي تعود لهم، هي جزيرة. وسواء أكانت جزيرة أم أرضاً، فهي تعني وجود جزر أو أراضٍ أخرى،

وســـنرى أن هورسا سينطلق بحثاً عن شواطئ أخرى، إن لم يكن عن أقوام آخرين.

نعـــود الآن إلى مـــا كانت تعنيه بكلمة ضمير المتكلم في صيغة الجمع. من المؤكد أن ثمة إيحاء هنا بالوعي بتهديد ما، أو أكثر.

لقـــد وصل هذا السؤال إلى هورسا، وتشير المدونات إلى أنه فكّر فـــيه، هناك أشياء كثيرة تتطلب التفكير. فهناك اثنان من رجاله الشبان علـــى الأقل استسلما لتلك الروائح الكريهة، وسقطا في الأعماق، كما أن أكثر من ولد صغير غرق في النهر العظيم. وكان الذهاب إلى داخل الغابـــة إجـــراءً أمنياً قدر ما هو ضروري لتجنب النقد المستمر الذي تمارسه مارونا.

كـــان هورسا رجلاً شاباً، ذا قدرات مدهشة، ويهيمن اسمه على هذا الجزء من روايتنا. هناك برج يطلق عليه اسم هورسا وعندما نفطر بكيفية ظهور الأسماء، فإننا قد نسمع بسهولة في بعض الأحيان، زمجرة ذئب أو دب. وكان الحيوان المألوف عند هورسا هو الظبـــي. لهذا ربما نـــسلي أنفسنا بالتفكير في أن صوت الغزال أصبح هورسا، وهو اسم صياد ذائع الصيت.

عـــندما ذهـــبت النساء إلى الوادي، كعادتهنّ، كان الرجال قد رحلـــوا. وكـــان رماد النار العظيمة بارداً. ولم تكن النسور جالسة في مـــواقعها مثل آلهة تحرس المكان. وكانت قطع من حسك الأسماك قد بعثرتها الحيوانات في الجوار.

بيـــنما هنّ واقفات هائمات، مذعورات، بل حتى يائسات، حلّق نـــسر مـــن مكان عالٍ وحطّ في موضعه. "حسناً، أين هم؟ ألا ترى؟ ينبغـــي لنا البحث عنهم". لم يبدُ على الطير أنه يريد بهم شراً، لكنه لم يـــبذل أي محاولة للكشف عن المكان الذي ذهب إليه الرجال، سارع

بالنهوض، وصفّق بجناحيه، وحلّق ببطء إلى الأعلى عائداً إلى عشّه فوق قمة الجبل.

قالت الإناث الشابات إنهن سيذهبن للبحث عن الرجال الذين لم يبتعدوا كثيراً عن الشاطئ. من غير المرجح أن يترك الأولاد الشاطئ ويتجهوا إلى الداخل، لكن هكذا كان الخيار؛ خيار النسوة. ثمة سبب آخر يدل على أن الرجال لم يبتعدوا كثيراً؛ فالأولاد الصغار الذين يعيشون هنا في الوادي، رافقوا الرجال، مما يعني أنهم على مسافة قريبة. وقالت الإناث المسنّات إنهن سينتظرن قرب حافة النهر بضعة أيام، ويراقبن ذهاب الإناث الشابات على امتداد الشاطئ، بحثاً عن نيران تدل على أن الرجال موجودون.

نعم. وجدوهم. عندما نظرن من أعلى الجرف المطل على الشاطئ، شاهدن الرجال والأولاد - كل الذكور - الذين ما إن رأوا النساء حتى أطلقوا صيحات الترحيب والسرور التي امتزجت، بالرغم من ذلك، بصيحات الاستهزاء. نعم. ذكرت الفتيات اللواتي نقلن هذه الحكاية أنهن تذمرن بسبب النقد، ولم تكن تلك هي المرة الأولى التي يرحبون فيها بالنساء بصيحات الاستهزاء. يبدو لي - لهذا الذكر الذي جاء بعد تلك الأحداث بزمن طويل - أن ما حدث كان واضحاً جداً. فالإناث يقترن، عند الأولاد، بالنقد والشكوى، ولا بدّ لي من أن أدون هنا إضافة صغيرة، أتمنى ألاّ تكون غير ملائمة لهذا التاريخ، إن مما يثير الفكاهة أن يتحول النكد، من دون تحذير كبير، إلى مناشدة، إذ ما إن هبطت النساء إلى أسفل الجروف، صوب الرمال البيضاء، حتى بدأ تزاوج متعدد، ومقابلات، داخل الموج وخارجه. وقف الشبان في الجوار يراقبون ما يجري أمامهم، ولعلهم حاولوا أن يجرّبوا أفكارهم بعضهم مع بعض، تماماً مثلما نجد ذلك عند الحيوانات.

كان الوقت نهاراً، وبحلول الليل، كانت جماعات الصيد ترجع من بين الأشجار حاملة جيف الحيوانات الذبيحة.

كانت النساء على استعداد لتوجيه اللوم إلى الرجال بسبب اصطحابهم الأولاد الصغار في هذه الرحلة. لكن النساء كن مخطئات في مسألة واحدة. إذ لم يكن هؤلاء الأولاد، الذين كان البعض منهم في السادسة أو السابعة من عمره، أطفالاً صغاراً، ولم يكونوا محتاجين إلى تصاريح بسبب صغر سنهم، للركض والتسلق.

لم يعامل الرجال الأولاد الصغار معاملة تختلف عن معاملة أنفسهم، وتعيّن على النسوة الإقرار بأن هؤلاء الأولاد الصغار كانوا أشداء سريعين مثل الرجال. وكان هذا الإقرار يعني، في ما بعد، أن الأولاد الصغار كانوا تواقين إلى الذهاب والعيش مع الرجال، وهنا هدأ قلق النساء.

جاءت النساء المسنّات بعد يوم أو يومين، وجرى لقاء مهم ومطول، تخلله قدر كبير من الاحتفالات والألعاب.

ثم عادت النساء إلى شاطئهن، بينما اتجه الرجال نحو الغابة.

لا بدّ لنا هنا من الاعتراف بوجود مجموعات من الذكور في مختلف أرجاء الغابة، حيث الأنهار المنسابة أو الفضاءات المغرية في ذلك الزمن البعيد الذي يمتد إلى عصر - ما طوله؟ - وذهبت النساء لزيارتهم، عندما كانت غرائزهن تخبرهن أن الوقت قد حان للزيارة. من الواضح الآن، أننا نتحدث عن سكان بحجم كبير؛ عدد لا بأس به من الإناث على شاطئهن، وبعض الذكور في واديهم. إذاً، كم عددهم؟ ليس ثمة وسيلة لحساب عددهم وبخاصة عندما نعلم أن هناك فتيات دوماً وسط الرجال، لم يكنّ مجرد إناث زائرات، بل قرّرن أنهن يفضلن رفقة الرجال. لسبب ما، لم تكن هذه الإناث ولاّدات، أو أنهن كن

مطمئنات إلى أنهن لسن ولاّدات، أو عقيمات، مما يعني أنهن لا ينجبن، إننا نعرف أن بعضهن تعمدن التخلص من أطفالهن عند ولادتهم. لكن كيف يحق لنا نحن أهل روما توجيه النقد، فيما مارسنا الشيء نفسه بعد ذلك بزمن طويل، وتركنا الأطفال الرضّع غير المرغوب فيهم، فوق سفوح التلال لمصيرهم؟ ثمة حقيقة واحدة يوضحها هذا السلوك: إن هؤلاء الناس لم يعد الخوف يتملكهم بسبب قلة عددهم: "يا لقلة عددنا، يا لسهولة موتنا". لم يعد ذلك الخطر قائماً، وأصبحت الضوضاء شيئاً من الماضي.

إنها لحقيقة حسنة الطالع، أو سيئة الطالع، أننا نحن شعوب العالم نمتلك خاصية الإخصاب، والموت، والانتشار دائماً. لقد ولد أطفال أكثر مما نحن بحاجة إليه. وهذه سنّة الحياة. أليس كذلك؟ إنها وافرة النماء، دائماً، وفي كل شيء.

أعتقد أننا لا بدّ أن نواجه هنا سؤالاً، حتى لو نستطيع الإجابة عنه. أين هي تلك الجزيرة التي زحف فيها أسلافنا الأبعدون (حسب ظننا) من البحر لنولد نحن؟ هناك كثيرون، حقيقة، حاولوا أن يحددوا اسم الجزيرة ومكانها. كم هي مساحتها؟ أتشبه صقلية؟ لا، من المؤكّد أنها أصغر منها. ربما هي كريت؟ لكننا نعرف أن جزيرة كريت عانت من هزة أرضية، وغزو بحري. هل أحضر شخص ما هذه الرزمة من الكتابات الموغلة في القدم إلى هنا إلى مدينة روما من إحدى الجزر اليونانية؟ الحجة المناقضة لهذا الرأي هي الطقس. إذ لم تشر المدونات في أي جزء منها إلى وجود شموس حارقة، وحرارة مدمرة، وعواصف رملية مُرّة في مواسم الصيف تتحول إلى جفاف. لكن كان ذلك كله يعني أن هذه الشعوب لم تجرب أي شيء يختلف عما عرفته، ولم تظن أن الحدود القصوى تستحق التدوين؛ على الرغم من أنهم دوّنوا، على

وجـــه التأكيد، الضوضاء، تلك العاصفة الهوجاء. لم تكن جزيرة باردة أيـــضاً، فـــسكانها لم يـــضعوا عليهم ما هو أكثر من قطع من أعشاب البحـــر، أو الريش والأوراق. لهذا كانوا يتجولون عراة، أو شبه عراة. يمكنـــنا أن نفترض أنهم كانوا من ذوي البشرة السمراء، طالما أن كل الشعوب التي علمنا بها ذات بشرة من ظلال اللون الأسمر، أو ربما الأسمر الضارب إلى الصفرة. وإذا كانت هناك ألوان أخرى للشعر أو العيون، فـــلا يوجد سبب عند تلك الشعوب لمعرفتها. وربما كانت عيونهم بنية اللون.

هذه الهمسات القادمة من الماضي، الماضي السحيق، الأصوات التي تـــردد مـــا قالـــته أصوات أخرى، ينبغي أن نفسرها في ضوء معرفتنا، تجـــربتنا؛ وأنّ أســـئلتنا تختفي اختفاء حجارة تُرمى في بطن بئر عميقة جـــداً. فـــنحن الرومان لم نعرف قط أن هناك شعوباً تعيش إلى جهة الشمال منا، شعرهم أشقر، عيونهم زرقاء أو رمادية.

لنفترض أن طقس ذلك العصر الموغل في القدم قد تغير، ولم تعد لديـــنا وسائل نعرف بها كيف كان في تلك الأيام؟ فالسواحل الخيِّرة، البلسمية، التي عاش فيها الناس على امتداد عصور سحيقة نشأت نشوءاً بطيـــئاً من... إننا نعرف أنهم أطلقوا على أنفسهم كلمة ناس كأنما لا يوجد غيرهم في العالم. لكن هذه هي الرواية الشائعة عن بدايات قوم.

في الأزمـــنة المتأخـــرة نسبياً، أصبحت بلاد اليونان القديمة، التي كانـــت كثيفة الغابات ذات يوم، سفوح تلال صخرية، جرداء. كيف يمكننا أن نعرف أنّ تلك الأرض الميمونة لأولئك القدامى من السكان لم تعد اليوم طبقات من صخور قاحلة لا يصلها بحّارونا؟

عند هذه النقطة التي تصل إليها روايتنا، نلاحظ وجود العديد من الجماعات المنفصلة إحداها عن الأخرى، لا على حافة البحر، بل داخل

الغابات، ولكنها قريبة دوماً من الجداول والأنهار. وكانوا يتحاربون في بعض الأحيان. من أجل ماذا؟ ليس من أجل الطعام، على وجه التأكيد، فالغابة مليئة بالطعام. لا. إنه المكان. فقد كانت مساحات واسعة من الغابة مستنقعات، وأراضٍ سبخة، وذلك لأن الضوضاء، تلك العاصفة الهوجاء، قطعت الأشجار بسهولة توازي سهولة أنفاسنا التي تقلع البذور من سنبلة. كانت هناك جذوع أشجار قديمة عفنة في مياه غير صحية، لهذا لم يعد هناك ما يكفي من الغابة المحبوبة لكل فرد. كما تجدر الإشارة إلى أن تلك الجماعات التي نتحدث عنها لم تكن جماعات صغيرة، بل كبيرة العدد.

في بعض الأحيان كان ينشب قتال بين زعماء الجماعات المختلفة، وكانت النساء يرسلن الاحتجاجات والتحذيرات، لكن هورسا هو الذي كان يضع حداً للقتال. إننا نعلم أنه كان شجاعاً، وقائداً ممتازاً، لكن ربما كان هناك أكثر من هورسا، كان كل واحد منهم يقتلع الثاني، وكان هورسا هو اسم الزعيم البارز.

في غضون ذلك، حكمت مارونا شاطئ الإناث، لكن ليس بالأسلوب البليد الذي اشتهرت به الإناث المسنّات، بل بأسلوب قوي، حسب ما قيل، بضيق صدر غالباً. مما لا ريب فيه أن مارونا، التي نحن بصددها، شقت طريقها وسط المستنقعات والأراضي السبخة، واتجهت صوب ذلك الجزء من الغابة، الذي يحكم فيه هورسا، وانتهى القتال بسبب تقريعها وزجرها. ثمة إشارات تشير إلى أن الرجال استمتعوا بالقتال، إذ استجمع كل واحد منهم فطنته، واستخدمها ضد فطنة الآخر. وإذا ما كان هناك جرحى فإنهم كانوا ينقلون إلى شاطئ النساء لعلاجهم.

قبل أن ينطلق هورسا في رحلته حدثت مشادة كبيرة بين هورسا ومارونا. يقول المدونون الأوائل إن تلك المشادة كانت حادثة واحدة

أُشـــير إلـــيها بتعـــبير ثورة الرجال، وثورة النساء، اعتماداً على جنس المـــتكلم. صحيح أن هناك ثورة حدثت، إلا أنها لم تنقل نقلاً صحيحاً، وأســـيء فهمهـــا بوصفها مواجهة واحدة تحدد كل شيء. إنني أتذكر ذلك الإحساس بالرضا، وذلك الشعور - إذ لم يكن عند أي مؤرخ ما يـــوازي تلك اللحظة التي تدرك فيها الحقيقة - بأن هناك تراكمات من خلافات أفصحت عن نفسها في حالات هيجان، حتى لم يعد في وسع أي طرف أن يغفر وينسى بسهولة. وهناك شكاوى من كلا الطرفين، غير أن الروايات المختلفة وصفت الشيء نفسه على أنه مضاعفات غير ضـــرورية للثورة. أما كيف كانت، فأنا لم أشاهد شيئاً من قبل؛ وقلما تـــأتي أفكار كافية، واضحة، ونقية، كي تضاف إلى قناعة ما. غير أن إحـــدى المـــشكلات تمثلت في أن رواية الرجال مختصرة جداً. "كانت مارونـــا قـــد ذكرت الأشياء نفسها عندما جاءت، وأرسلت شكاوى الفتـــيات اللواتي كن يؤدين الزيارة. وكانت رسائل الفتيات متشابهة: الـــرجال مـــستهترون، طائشون، لا يكترثون لحياتنا، ولسلامة الأولاد خاصة.

وســـلَّمنا بأن النساء سيصلحن ما نفسده. هذا كل ما هنالك في رواية الرجال. "وهكذا قرر هورسا أن يرحل، أن يجد مكاناً بعيداً عن مارونا ليجعل من مجيئها السهل وراءنا أمراً مستحيلاً.

* * *

أعتقد أن هذا في صميم الموضوع.

كنت أسير قبل بضعة أيام برفقة فيلكس، وهو العبد الذي يعمل عـــندي، الذي صنع تمثالي ديانا وأرتيمس. ولدى وصولنا إلى نقطة معينة من سفح إحدى التلال، قلت إنني لطالما كنت أفكر بـــأن هذا الموقع رائع، يصلح لبناء بيت فوقه. نعم، لدينا بيت

جمـــيل في الضيعة، لكنني أستمتع بالتفكير ببيت أجمل. خطونا حـــول المكان قليلاً، وتناقشنا في أن هذا الموقع أفضل من ذلك الموقع، ولم نقل شيئاً آخر. اليوم، وصلت جوليا من دون سابق إنذار إلى بيت البلدة، وقالت إن لديها أخباراً عاجلة. ولاحظت مـــن ملامـــح وجههـــا أنه من الأفضل أن نتحدث من دون أن يـــسترق أحـــد السمع إلينا، كانت لولا ترتب الغرفة المجاورة. وضعت يدي فوق ذراع جوليا، وأخذتها إلى فناء الدار، وهناك قالـــت: "إنه لأمر خطير. أين في وسعنا أن نتكلم؟" كنا نعلم أن لولا تستطيع أن تسترق السمع، إن أرادت، كما كان هناك عبد كبيـــر الـــسن جالس قرب الجدار. سرت وإياها صوب شجرة التـــين، وهناك تأكدنا من عدم وجود أي أحد يمكنه أن يصغي إلينا.

"لا ينبغي لك أن تفعل ذلك، يا عزيزي، الكل يتحدثون عن بيتك الجديـــد، إنـــه الجـــنون بعيـــنه أن تفكّر فيه فقط". كنت أنظر بإعجاب إلى زوجتي الجميلة، فيما أسترعي الانتباه إلى أنني لم أســـمعها مـــن قـــبل وهـــي تتكلم بمثل هذه الدرجة من الحسم والغلظة. إن جوليا فاتنة ولا تعنّف أحداً. "لكن كيف يمكن *لكل واحـــد* أن يتكلم يا جوليا؟ قلما أعرف أنا شخصياً؛ إذ لم أذكر ذلـــك الاحـــتمال إلا لفيلـــيكس. هـــذا كـــل ما هنالك". وقفت، محاصرة، عيناها تنقبان في وجهي، غير مرتابة، بل محتارة. كـــنت على استعداد لرفض مجمل الإشاعة بكل ازدراء، لكنني هتفت: "انتظري، نعم، لقد فهمت". أعتق والدي اثنين من عبيده المفـــضلين، أحدهما يبيع كروش حيوانات مجترة قرب أرصفة الميـــناء، والآخـــر يبـــيع فطائـــر باللحم على مقربة من حي المصارعين. وهما يحسنان معاملة عبيدنا. كان فيليكس قد جاء بيتنا في البلدة قبل بضعة أيام من ذلك، وقال إن السيد يفكّر في

بـــناء بيت جديد، وهكذا انتشرت الإشاعة – وبسرعة بالغة – من هذا البيت إلى: "كلنا نعرف ذلك، أما أنت، فصدقني، لست بعاقـــل". كانت جوليا تطلق عليّ اسم التدليل: الأب العاقل، منذ الأيام الأولى التي جاءت فيها إليَّ.

أخبرتها بمدى هشاشة أساس هذه الإشاعة، وأنني لم أكن أخطط حقاً لبناء هذا البيت المشهور. إنها نـــزوة لا أكثر.

هتفت: "نـــزوة"، ثم نظرت حولها، خشية أن يكون أحد ما، قد جـــاء إلـــى الفناء، واقتربت مني، وطوقتني بذراعيها؛ إشارة زوجـــية، إلا أن نـــدرة حدوثها قد تثير ذعر أي عبد يراقبنا، فيـــرتاب فينا. قرّبت جوليا فمها من أذني، وقالت: "اصغِ إليَّ! هـــل نـــسيت؟ إنك حالم كبير في هذه الأيام، ربما لم تستوعب ذلـــك". ثـــم بـــدأت تهمـــس في أذني أسماء شخصيات بارزة تعرضـــت بـــيوتها، وضياعها، وقطعانها، وأوانيها الفضية أو الذهبية، للمصادرة على أيدي آخر طغاتنا.

قالـــت: "أتـــريد حقـــاً أن يستولي نيرون على هذا البيت؟" ثم خفّـــضت صوتها الخفيض أصلاً ليغدو نفحة صوت فقط: "إن نيـــرون يـــزداد سوءاً بمرور الأيام، أتقصد أنه لم يخطر ببال العجـــوز الغبـــي، أنك لو بدأت تشييد بيت جميل ورائع، فذلك ســـيكون أشبه بدعوة له كي يستولي عليه؟" وهنا حررتني من بـــين ذراعـــيها، وبـــدأت تعدل ثوبـــي الروماني الفضفاض، وتُخرج مشطها الفضي من مكان ما من ردائها، وتبدأ بتمشيط شعري. مضى زمن طويل منذ أن نظرت نظرة مليَّة إلى وجه زوجتـــي. كـــنت أنظـــر لأتأكد إن كانت الحياة الصافية التي عاشـــتها تـــبدو واضحة على ملامحها الجميلة. هنالك خطوط توحـــي بالـــتعب، من حول عينيها، لا أكثر. ثم قالت بصوت خفـــيض جـــداً: "عندما سمعتهم يتحدثون كلهم ليلة أمس علمت

أننـــي لابـــد أن أجيء إليك، وأحذرك". لكن من هم المقصود بهـــم؟ هـــه! لـــدي فكرة حسنة. فهمت: "هل أنت حريصة يا جوليا؟".

أومأت برأسها، ابتسمت، بل هزتني قليلاً، وهمست: "شكراً لك. إنك تبدو أحياناً عجوزاً أحمق".

فهمـــت بـــدوري: "لكن هذا البيت لا وجود له إلا في رأسي يا جوليا".

"الأفضل أن تخبر لولا بأنك فكّرت في بناء البيت، لكن فيليكس قـــال إن عين الماء لا يوجد فيها إلا القليل من الماء في فصل الصيف. لا، انتظر. من الأفضل أن تقول إنك لا تملك ما يكفي مـــن المـــال للبناء الآن، وأنك ربما تفكّر في البناء بعد سنة أو ســـنتين". لكنها اقتربت مني مرة أخرى لتهمس: "لا يمكنه أن يبقى إلى الأبد. أليس كذلك؟".

بعـــد ذلـــك، وقفـــت على بعد بضع خطوات، وقالت بصوت مـــرتفع: "هـــل فهمـــت؟ إنـــه لشيء جميل أن أكون معك كي أراقـــبك. انظر إلى هذا الثوب الفضفاض. سأجلب رداءً جديداً عندما أحضر في المرة القادمة".

"أرجو أن يكون ذلك قريباً جداً".

قلـــت ذلك، بينما ضحكت ضحكة تنم عن مشاكسة وعن ندم. يروقنـــي أن أفكر أن زوجتي جوليا تشعر أحياناً بالأسف لأنني كبيـــر السن قياساً بها. على الأقل، لا بدّ أن أكون شيئاً جميلاً يخـــتلف عن أولئك النفر المستهترين الذين ترافقهم. عدنا إلى البيت متشابكي الذراعين، ورأينا وجه لولا وراء إحدى النوافذ. قالـــت جوليا بصوت عالٍ: "أوه يا عزيزي! واحسرتاه، إنك لا تملك المال في هذا الوقت الذي أردت فيه أن أطلب منك مبلغاً كبيراً. لدى ليبتوس بعض البيوت التي يريد أن يبيعها. أوه، يا

لــولا. أخيــراً وجــدتك". ثم قالت بصوت أعلى: "مشكلتك يا عزيزي أنك لا ترى عواقب أفعالك. كان في وسعي أن أخبرك ألاّ توظــف أموالك في تلك السفينة المتجهة إلى ثيسلي(*). لقد غرقت. ألم تعلم بذلك؟ لقد غرقت، وضاعت كل حمولتها".

ســرت وإياهــا صــوب الباب الخارجي، حيث كانت كرسيّها تنتظــرها، مــع العبيد. ابتسم أحدنا للآخر، ابتسامة متآمرين، رقيقة، وذهبت نحو الكرسي. وهكذا سيصبح فقري موضع قيل وقــال، بحلول الظلام. ذهبت إلى مكتبتي أفكر بأنني لم أسمع قــط مــن جولــيا، قبل تلك النغمة الساخطة التي اتسمت بها همــساتها لــي تحت شجرة التين. أهذا هو رأيها فيَّ، أنا الأب العاقل؟ أعتقد أنه يجب أن أفكر على هذا النحو.

* * *

تكلمــت مارونا مع هورسا كأنه طفل. حسناً، يمكن أن يكون طفلــها بــسهولة، على كل حال. فالنساء يتكلمن مع الرجال كلاماً متعالياً دائماً، معنَّفين، مؤنَّبين. ففي إحدى المرات، عندما جاءت مارونا إلى مخــيم الرجال، وكانت في ثورة غضب شديد، لأن بعض الأولاد الــصغار لقوا مصرعهم في أثناء القتال، وكان القتال لا يزال مستمراً، فكانــت تــتحدث بالإنابة عن النساء كلهنّ، وتقول إن القتل سهل عليهم، الرجال الذين لم يهتموا بالأولاد عندما كانوا صغاراً، بل اهتموا بهــم عــندما توقفوا عن الإلحاح، وكانت النساء قد أنجزن كل العمل الــشاق المطلوب لتنشئتهم، وإطعامهم، ورعايتهم. وقالت مارونا، إن قــتل إنــسان لا يتطلب سوى لحظة، وتلك اللحظة تنهي سنوات من العمل الشاق المتعب والصعب.

(*) ثيــسلي: أُقيم في الجزء الأوسط الشرقي من بلاد اليونان بين جبال بيندوس وبحر إيجه. (المترجم)

في هـــذا الـــزمان، تلتـــزم سيدات روما علانية بالتهليل لنجاح أولادهن في الجندية. و لم أسمع في حياتي واحدة تُشير إلى شكوى مارونا من أن تنشئة صبـــي من الصبيان تحتاج إلى سنوات طويلة، كي يصبح ملائمـــاً للالـــتحاق بالفـــيالق، إلا أنهن يكلمن أزواجهن في مثل هذه الأمور، وهو ما يمكنني أن أجزم به.

قالت مارونا مؤنبة: "إذاً من الذي قام بكل العمل الشاق؟ لست أنـــت! فأنت تستوثق من وجودك في مكان بعيد، عندما يكون هناك أطفال بحاجة إلى رعاية وتعليم".

لا بدّ لي هنا من أن أملأ الفراغ بالمعلومات. عندما يبلغ الأطفال السابعة من العمر، أو أقل في بعض الأحيان، كانوا يشقون طريقهم بحثاً عن هورسا في الغابة. استمر هذا الحال لسنوات طويلة، حتى يمكننا أن نصف ذلك التصرف على أنه عادة من عاداتهم. ثمة طريق بين الشاطئ ومـــستوطنة الغابة، لا يمر بالمستنقعات، والأراضي السبخة، والأوحال، وكان على درجة كافية من الأمان، شرط أن لا يمر به طفل بمفرده. أما الفتيات، فكن يسافرن جماعات دائماً، وكان الأطفال يحضُّون على أن يفعلوا الشيء نفسه. لكن هناك حيوانات كثيرة، وفي أكثر من مناسبة، أُختطف طفل صغير. فطلبت مارونا من هورسا أن يؤكد للأولاد الذين يتـــركون شـــاطئ النـــساء أن ينطلقوا علانية كي يصبح في الإمكان مرافقتهم. ضحك هورسا وكل الرجال منها. فكلامها هذا يعني أنها لا تفهـــم الأولاد أبـــداً، ولا تفهم مشاعرهم، وبالنتيجة، لا تفهم مشاعر الـــرجال. نعـــم، الأولاد بحاجة إلى أن ينسلوا بعيداً عن ذلك الشاطئ المزدحم بالأطفال الصغار، نعم، هذا هو بيت القصيد؛ إن كان هروب الأولاد سيخضع لمراقبة النساء، فإن عصر الهزل سيزول. سأل هورسا: "ألا تفهمين؟". ثم أردف قائلاً: إنها غبية.

رأى الأولاد الصغار - الذين شعروا أنهم لم يعودوا صغاراً منذ اللحظة التي زحفوا فيها من شاطئ النساء - أن هروبهم هو *الذهاب نحو الأشجار*، ففي كل الأحوال، لم تكن هناك إلا أشجار قليلة قرب الشاطئ. كانت مشاهدة وصول مجموعة من الأولاد أمراً مدهشاً، اضطروا إلى تجنب النساء اللواتي يحاولن إبقاءهم مدة أطول. ولما شاهدوا الفسحة الواسعة وسط الأشجار، انتابتهم الدهشة لوفرة كل تلك الأشجار.

وسرعان ما تسلقوا الأشجار. كانت الغابات تغطي جميع أرجاء الجزيرة - إن كانت جزيرة واحدة - باستثناء تلك الأماكن التي توجد فيها المستنقعات والأراضي السبخة. ثمة فائدة عملية من اللجوء إلى الأشجار، فبعض الحيوانات المفترسة لا تستطيع تسلق الأشجار، أو لا تستطيع تسلقها بسهولة، وتصل إلى تلك المظلة العظيمة من الأغصان والأوراق. كان الأولاد في وضع أكثر أماناً من وضع الإناث الشابات اللواتي يعشن معظم حياتهن على الأرض، أو ينطلقن في رحلات قنص.

ثمة تقارير تفيد بأن بعض المجموعات من الرجال يعيشون حياتهم كلها بين الأشجار، لكن مثل هذا الكلام لم يتردد بخصوص قوم هورسا.

أمضى الأولاد البالغون سبعة أعوام فما فوق معظم وقتهم بين الأشجار. هل هناك ولد يستطيع مقاومة أشجار غابة حقيقية؟ كانت حياة طيبة. فكانوا ينزلون من الأشجار إلى الأرض للمشاركة في تناول وجبات الطعام، وفي الولائم، وفي الرحلات.

ثم صنعوا لهم منصة بين الأشجار، وصنعوا بكرات وأرجوحات وممرات على اختلاف أنواعها. ودربتهم الحياة على الاعتماد على الذات، وذلك سبب آخر جعل من تذكر النساء شيئاً مزعجاً جداً.

وقلـــن إن الأولاد، إذا ما سقطوا، وانكسرت سيقانهم أو أذرعهم، فإن الرجال يرسلونهم إلى شاطئ النساء لمعالجتهم. ألا يستطيع الرجال مجرد مـــراقبة الأولاد الـــصغار مراقبة كافية تحول دون حدوث العديد من حـــالات الـــسقوط، بل وبعض حالات الموت؟ رأى الرجال أن هذا الكـــلام غير مترابط. فمن الطبيعي أن يغامر الأولاد في مواضع الخطر. ولا بـــدّ من وقوع حوادث مؤسفة. ما هذا القلق الغريب الذي تبديه الإناث بشأن السلامة؟

مـــواجهة أخـــرى بـــين مارونا وهورسا تخللتها اتهامات ومرارة وغـــضب. لم يكـــن في وســـع النساء فعل أي شيء، إذ كان الأولاد يهربون للالتحاق بالرجال حال بلوغهم السابعة من العمر، أو حتى قبل أن يبلغوا تلك السن.

كان الرجال جميعاً قد قاموا بتلك الرحلة المبكرة إلى الغابة، ولكل رجل ذكريات عن شاطئ النساء المزدحم، ضيّق الحدود.

أوضـــح هورسا أن هناك أنواعاً مختلفة من الشواطئ، لا يبعد أي واحد منها كثيراً عن الشاطئ الأصلي، لهذا فإن الإناث غير مضطرات إلى البقاء حيث هنّ. نعم، الكهوف الملائمة، وفي وسع الرجال الإقرار بـــأنهم يتوقون إليهن، فذكرياتهم الأولى راسخة في الكهوف المطلة على البحـــر. كانت الجروف المنتشرة في جميع الأرجاء قوامها صخور رملية ناعمـــة، ويـــسهل حفرها. وأفاد هورسا، بأن الرجال سيشيدون بيتاً جديـــداً للنـــساء، كل ركن فيه جيد قدر جودة البيت الذي يملكنه، وســـيكون بيـــتاً فـــسيحاً، واسع الأرجاء. غير أن هورسا قاوم عدم رضـــائهن بأي شيء سوى الأشياء التي كن قد اعتدن عليها، وعرفنها. وقلـــن له: إن شاطئهن هو الشاطئ الذي ولد فيه كل واحد وواحدة، إناثاً وذكوراً، وأنهن لن يغادرنه.

لم تسمع مارونا من هورسا مباشرة عن رحلته المقترحة، بل كان حـــديث الفتيات في ما بينهن، هو الذي نبهها. هل سيرافقن هورسا؟ ربمـــا لمسافة قصيرة؟ لم تفهم مارونا، أول الأمر أن الرحيل وشيك، إلى أن سألتها إحدى الفتيات إن كانت ستذهب بدورها. فأدركت أخيراً، بعـــد فوات الأوان، أن عدداً من الفتيات سيذهبن، وسيذهب الأولاد الصغار الموجودون كلّهم حالياً برفقة هورسا. وعندما فكّرت في الهدف مـــن الرحلة، أصيبت بالذعر. ولم تدرك على الفور أن هورسا لم يفكّر في هـــذا الهدف. فالتخطيط على المدى البعيد ليس من ابتكاره حتماً، لكـــن لنذكر مشكلة واحدة: لو أن الفتيات ذهبن فسيحملن، وعندئذ سيصبحن عبئاً على المسافرين. لهذا السبب، اعتقدت مارونا أن هورساً خطط لرحلة قصيرة.

ثم انطلقـــت بعـــد ذلك بعض الفتيات نحو قمة الجبل للتأكد من وجـــود رجـــال في الـــوادي، وشـــاهدن، قرب النهر، بعض الشبان يـــصطادون السمك لإقامة وليمة وإطعام النسور، طلباً لحمايتهم لهم في أثناء الرحلة.

وسرعان ما هبطت بعض الفتيات نحوهم، ولم يكن البعض منهن قد شاهدن تلك الطيور العظيمة قريبة جداً. أصيب بعض الأطفال بهلع شـــديد، غـــير أن الأولاد لم يشعروا بأي خوف، وراكموا كومة من الأسماك، وشرعوا بالغناء وهم يأكلون:

نحن أطفال النسر

أنتم آباؤنا.

هـــناك عدد كبير من أغاني النسور، بعضها يشير إلى أن أول فرد منا ولد من بيض النسور.

* * *

حسناً، لا تزال النسور تستحوذ على أخيلتنا نحن الرومان. فثمة عش لأحد النسور فوق طبقة بارزة من الصخور، في ضيعتي الريفية، حيث أخذ بعض عبيدي إلى ذلك المكان طعاماً ليكون نذراً. شيء ما في أعماقي استحسن هذه الهدية، وكأنها واجب. لا بـدّ لمـشاعرنا عـن النسور من جذور في مكان ما. لكن، أترانـي بهذا الكلام أزعم لنفسي قرابة بأولئك الأجداد القدامى الذين عاشوا منذ زمن بعيد؟ أنحن *أولاد نسر* أكثر مما نعرف؟ لكننـي أعـرف تماماً، أنني مضطر إلى إخفاء دموعي عندما أرى نسورنا الرومانية تمر أمامنا برفقة الفيالق.

* * *

عندما عادت الفتيات والأطفال إلى الشاطئ، وسمعت مارونا عن ولـيمة النـسور، أدركت أن مشروع هورسا أكثر خطورة مما كانت تتـصور. وعلى الفور، استدعت بعض الفتيات لمرافقتها، لأن الأولاد الصغار سمعوا أن هورسا سيترك قطعة أرضه في الغابة، ولن يعود أمامهم مكان يركضون إليه، عندما يرغبون في ترك شاطئ النساء. بالإضافة إلى ذلـك، ليس من العدل أن يأخذ هورسا بعض الأولاد – ليسوا كلهم أكبر بكثير من الأولاد الصغار – الذين سيبقون في أماكنهم. لذا، قررن البقاء في الغابة وانتظار هورسا ليعود.

ذهب الأولاد الصغار، فيما الفتيات ومارونا خلفهم. كانوا أولاداً صـغار السن، أشداء، اكتسبوا قوة أكبر من السباحة، وكانت الفتيات قويات أيضاً. كم فتىً انطلق في ذلك اليوم؟ *عدد لا بأس به من الأولاد الـصغار* هو كل ما لدينا. تمنين لو وصلن في الوقت المناسب للانضمام إلى الرجال، فقد سمعن كلهن عن الأشجار التي ستنتظرهن.

لكـن عند وصولهن المكان، لم يشاهدن بقعة فسيحة من أرض الغابة مملـوءة بالـرجال والأولاد والـشباب. كانت الأشجار منتصبة، كثيرة،

باســـقة، وقوية جداً، لكنها تراقبهن. وهناك شيء آخر أيضاً. فقد تعرضت الملاجـــئ والمـــلاذات الفارغـــة إلى غزو، بل هدم بعضها، وهناك بعض الحـــيوانات الـــسوداء الكبيرة تشخر وتقبع، أسنانها وأنيابها تشبه سكاكين حـــادة. إنـــنا نعرف أنها خنازير، وخنازير صغيرة، لا تختلف عن تلك التي نـــربيها، لكنها ضخمة، أكبر بكثير من أي خنـــزير لدينا. كما أنها ليست طرية، جيدة التغذية كخنازيرنا، بل عنيفة، سريعة وخطرة. لم يكن الأولاد الصغار قد تعلموا بعد التسلق، وقلما كانوا يفهمون الخطر المحدق بهم. أما الفتـــيات اللـــواتي امـــتلأن رعباً، وتسمَّرن في مكانهن من شدة الخوف، فحـــاولن جـــذب الأطفال الصغار والخروج من الفسحة الرهيبة. غير أن الخنازيـــر لم تلحق بهم. فقد كانت هناك مفردتان في قائمة وليمتهم. لكن الكلام الذي كانوا يريدون قوله هو: "هذه منطقتنا، ابتعدوا".

يا لها من رقابة تلك التي فُرضت على الرجال والأولاد في فسحة الأرض. لا بـــدّ أن لمعان العيون الصفراء والخضراء في الليل بات مألوفاً لأصحاب الوليمة مثلما هو مألوف وهج النيران.

لم يكـــن هناك هذا النوع الوحيد من الخنازير الهمجية، بل كان هناك أيضاً نوع آخر يشبه السنَّور، لكن أكبر حجماً، يستطيع التغلب علـــى خنـــزير صغير، أو أكثر، ونعلم أن هناك أعداداً كبيرة منها في الغابـــة. كما كان هناك أيضاً كلاب، نوع من الكلاب تسير قطعاناً. كانت هذه الحيوانات تراقب كلها في أثناء الليل، وفي ضوء اللهب، ما يجري في فسحة الأرض. أهي دببة؟ إننا نعلم أن هناك دببة.

* * *

مـــرة أخرى أُضطر إلى التدخل، ويرجع سبب ذلك إلى أنني، فيما أروي حكايتي عن الغابات والوحوش والبراري، فإنني كنت واعياً بأنـــه ليس بإمكاننا جميعاً أن نتخيل كيف كانت حياتهم قرب حافة

الأشـــجار الواســـعة، التي قد يقفز أو يثب منها في أي لحظة أي حـــيوان مرعب. أما أخيلتنا نحن الشعوب المتأخرة، فلا تمتد إلى الوراء كثيراً. فمنذ متى صادف أي مواطن من روما، يتنـــزه في الغابة، دباً من الدببة، أو ذئاباً، أو أي شيء أكثر تهديداً من القطط البـــرية؟ لقد خاف ولديَّ، اللذان، حاربا مع الفيالق في تلك الغابات الألمانـــية الوحشية، من الحيوانات البرية التي لم نعرف عنها شيئاً سوى ما عرفناه من الأساطير. حيواناتنا وراء القضبان، نعم أعداد كبيـــرة منها. ونذهب لمشاهدة الألعاب، كي نستمتع برؤيتها. نعم، إنني أذهب إلى الألعاب، برفقة شقيقتي مارسيلا، التي لا تفوّت أي حـــدث مثيـــر. كان يروقها أن أصحبها، لأن ذلك يثبت خلاف ما كنت أقول لها من أنها عاشقة الأحداث المثيرة. إن وجودي هناك، إلـــى جانبها، يثبت لها أنها إنسانة متحضرة وعاقلة. وليس ممكناً الجلـــوس في ذلك المكان، حيث يُؤتى بالحيوانات من أجل القتال، أو للهجـــوم علـــى ضحاياها المجروحين من دون أن يخفق قلب الإنـــسان، أو تنـــبض دماؤه. حاولت أن أجلس إلى جانبها، وأبقى ســـاكناً. لكن في لحظة ما، تجد نفسك وقد أطلقت صيحة، ووقفت علـــى قدميك، منادياً، وتفقدك رائحة الدماء صوابك. لماذا أذهب؟ أولاً، ذهـــبت كـــي أجـــرّب نفسي، لكنني أعرف الآن أنني لست بأفضل من ذلك الحشد الهائج، المتعطش للدماء. القضية هي، عدم الـــذهاب، وفـــي هذه الأيام، التي أصبحت الإثارة عندي هي إثارة الـــبحث الدراســـي، لا أذهب، إلاّ إذا أقنعتني مارسيلا. إنه لأمر مقـــرف، لكن كيف يمكن للمرء أن لا يوافق على ذلك؟ كثير من الـــناس يقولـــون إنـــه أمر مقرف، وأن المشاهد قاسية، ويعدّ كل مـــشاهد، مشاركاً في أكثر الأعمال الهمجية إثارة للاشمئزاز. لكن علـــى الرغم من ذلك، على الرغم من الإقرار، وعلى الرغم من الاعتراف، فإنهم يذهبون.

لقد تعجبت، بل سألت نفسي أكثر، وأنا أقرأ عن أولئك الناس القدامى الذين عاشوا في غاباتهم إن كان ما نقوله عن الألعاب هو كل ما يمكن أن يُقال؟ ثمة جانب من الوحشية في كل واحد منّا وهو يستمتع بالألعاب في الميدان. لكننا عندما نصيح عندما تتفجر الدماء من فم أسد أو فهد، أو من أي من الحيوانات البرية التي لا عدَّ لها ولا حصر التي تملأ ميادين الصراع، أفليس هناك شيء آخر، ربما؟ أسأل نفسي: أهو انتقام؟ كم عاش جنسنا في الغابات جنباً إلى جنب مع الفهود والخنازير والذئاب والكلاب، وكان ضحية لهم في أي لحظة؟ لم يكونوا قادرين على أن يتقدموا بضع خطوات داخل الأشجار، من دون أن يلمحوا بعض الحيوانات المفترسة، بعض الأعداء الرهيبة. كم من أجدادنا لقوا حتفهم ليوفروا وجبات طعام لأعدائهم من الوحوش البرية؟ لقد نسينا ذلك كله. لعلنا نسينا لأن الأسلوب الذي فعلنا به الأشياء السيئة جداً والتي حدثت لنا، كان أسلوباً فظيعاً. أو لم نبتكر نحن الذئبة التي اعتنت بأهلنا من الرومان الأوائل، تلك المخلوقة الكريمة، الحنون، لتعوض عن التاريخ الطويل الذي كانت فيه الذئاب تضايقنا وتؤذينا؟ وكما أعتقد بأن النسور تمتلك، عند تفكيرنا بها، شيئاً ما، شيئاً أكثر من الإعجاب بكبريائها وجمالها، إذ تأخذ الحملان من مجاميع الناس الذين اعتمدوا عليها في طعامهم، فإن النسور نفسها قد تخطف طفلاً، كما تناهى إلى مسامعي، في براري إمبراطوريتنا. إننا إذا أردنا استرضاء النسور التي تعود إلى جوبيتر، فذلك إجراء احترازي، وعندما تصرخ عندما يسقط أسد صريعاً، أفلا نعوض عن الأزمان التي كانت فيها الأسود والقطط الكبيرة تقدمنا طعاماً لصغارها، وهو ما فعلته حقاً؟

في ميادين الصراع، نجلس في صفوفنا الآمنة، نأكل ونشرب، ونـــراقب، فيما تُترك الوحوش العظيمة لتدخل وتلاقي حتفها، لكنها كانت تريد موتنا يوماً ما.

نحـــن الرومان، شعب ذو كبرياء، ولا نرى سهولة في السماح للضعف أو العرضة للخطأ، لكن ربما كانت صرخاتنا، إعجابنا هـــي التـــي تـــسمح بـــذلك كله. نحن في مأمن فوق كراسينا، والحـــيوانات التـــي ربما جيء بها من أفريقيا، من الصحارى الـــشرقية، تحـــت رحمتنا. ولن يهرب أي واحد منها من تلك الأقفـــاص الموجودة تحتنا، وحول ميدان الصراع، بل سيموت كل واحد منها، ونحن نراقبها. لكن لم يفكّر سوى عدد قليل من المـــشاهدين أننا كنا يوماً ما تحت رحمتها، إنَّ فرائصي ترتعد عـــندما أفكّر كيف كانت عيون أعداء الإنسان اللّدودة تلمع ليلاً تحـــت الـــضوء المنبعث من النيران العظيمة، التي كانت تبقى مُـــضرَمة لإثـــارة خـــوفها وإبعادها في تلك الغابة، حيث كان هورســـا قد نصب مخيمه، يراقب الأولاد الصغار الذين تعلموا الشجاعة، تحت حمايته وحماية فرقة من الشبان. هل نسينا تلك العصور الطويلة التي كان في وسع أي وحش أن يثب، في أي لحظة، من تحت الأدغال، أو يهبط عن غصن من فوق الرأس. عـــندما نهتف في ميدان الصراع، فإن الشيء الذي نسمعه هو الانـــتقام، أو هـــذا هو رأيي عندما أضع نفسي موضع أولئك الـــناس الـــذين عاشوا منذ زمن بعيد، الذين نطلق عليهم كلمة متوحـــشين، وهم من بني جنسنا، بل أجدادنا نحن. إن جنودنا الـــذين حاربوا في مجاهل إمبراطوريتنا وحدهم القادرون على الـــبدء بتخيل الشعور الذي راود أسلافنا، الذين امتلكوا الجرأة في دخول تلك الغابات القديمة.

* * *

ركـــضت مارونا، وبعض الفتيات، وبعض الأولاد الصغار حتى شاهدوا الرجال على الشاطئ الكبير الذي كان يتوهج بالنيران استعداداً للمساء.

وصـــلت النساء وهن يوجهن أصابع الاتهام إلى الرجال الذين صـــاحوا بهـــن. صـــاح الرجال قائلين: إن النساء الغبيات وحدهن اللـــواتي يفكّرن بترك الأولاد الصغار يذهبون إلى فسحة الأرض في الغابـــة بينما لا يوجد رجال يتولون حمايتهم. هذا الكلام غير أمين، على وجه الدقة، لأن هورسا وغيره من الرجال كانوا يعرفون *عادة* الأولاد في الهروب من النساء. لقد كان من السهل على هورسا أن يفكّر بأن الأولاد الصغار سيهرعون صوب الفسحة في اللحظة التي يدركون فيها أن هورسا سيرحل. لماذا لم يترك هورسا بعض الشبان في المكان لحراسة الأولاد؟ في الحقيقة كان هورسا خائفاً؛ فالحيوانات تجـــوب منطقته في الغابة، وهذا شيء يعرفه، لكن كيف يمكن لأي واحـــد منهم أن يعرف كم عدد أولئك الذين يصطادون في الغابة؟ لكـــن في الـــوقت نفـــسه، اســـتولت الخنازير الكبيرة عليهم حال مغادرتهم. يا لها من صدمة.

لقد خطفت الحيوانات الولدين الصغيرين والتهمتهما. وهناك عدد آخر من الأولاد الصغار، الخائفين المتشبثين بالنساء.

اســـتمرت المواجهة، فيما توهجت النيران على امتداد الشاطئ، وشقت عنان السماء.

لديـــنا روايات عن هذا المشهد، من الذكور ومن الإناث. فهذه مارونـــا تُوصَف لنا على أنها امرأة فارعة الطول، قوية، سوداء الشعر، بجـــدائل تـــتوج رأســـها، ما يوحي بأنها تريد أن تبدو أطول قامة مما هي عليه.

إننا لا ندري ماذا تعني كلمة *طويل* لهم. لعل هورسا، ذلك الصياد الكبير، كان رجلاً صغيراً نحيلاً، ليس قوياً، ولا يشبه أحد حراس الإمبراطورية.

هذا هو المكان الوحيد في كل مدوناتنا يأتي على ذكر الشعر. ربما كانوا من ذوي الشعر الأحمر، شأنهم شأن بعض قبائل الحرس. ربما كانوا كلهم من أصحاب الرؤوس الحمراء، أو الشقراء. أعتقد أن هذا غير مرجح، المرجح أكثر هو الشعر الأسود أو الدّاكن، والعيون السوداء أو الدّاكنة.

تشير المدونات إلى أن هورسا كان مهتاجاً بسبب تقصيره، الذي كان يتناهى إلى سمعه، عندما كانت مارونا تصرخ في وجهه. إلاّ أنه لا يملك حتى الآن أي فكرة عن قصوره في التفكير. كان يعدّ العدة لوليمة كبرى لهم وللنساء، فيما يتواصل الجدال الصاخب.

كانت مارونا تبكي بكاءً مريراً، غاضبة، محبطة، ذليلة، وكانت منهكة: فالطريق من شاطئ النساء إلى هذه البقعة، طريق طويل. وقالت إنها ستذهب إلى البيت الآن، وستأخذ الفتيات اللواتي لم يرغبن، على ما يبدو، في الذهاب، بل يفضلن البقاء هنا، ضيفات عند الرجال، الذين كانت تتشاجر معهم شجاراً مريراً. لقد فكّرت في أن ذهابها إلى البيت يعود إلى أن هورسا كان يخطط لرحلة طويلة. وكان قد حظّر على النساء الرحيل قبل حلول الصباح، لأن الطريق خطر، وفي وسع مارونا أن ترى ذلك.

كانت تحاول أن تجعله يفهم أشياء معينة.

"هل فكّرت بأن الفتيات اللواتي سيذهبن وإياك سيصبحن حبالى عما قريب، وإذا ما تأخرت في الرجوع، سيكون أمامك أطفال جدد تهتم بهم؟".

لا، مـــن الواضح أنه لم يفكر بذلك، وأنه دُفع الآن دفعاً للتفكير للمرة الأولى.

"ألا تهتم بنا يا هورسا؟ ألا تفكّر فينا؟".

هـــا هو الاتهام الذي يعذب هورسا. ما الذي يفترض به أن يفكّر فـــيه؟ قالت له: "أنت تعلم أنه لن يكون هناك أطفال جدد من دوننا. أنت تعرف وهكذا لن يكون هناك أطفال جدد أبداً يا هورسا.

اضـــطرت النـــساء، وهـــن يصغين إلى مارونا، إلى الوقوف إلى جانبها، حتى لو لم يفهمن إلا الموضوع فقط. وقفت النساء، يحدّقن إلى الرجال، كل واحد منهم ابن، كل واحد منهم ولد من أجسادهن. إنني غالباً ما أفكر، عندما أنظر إلى حشد من حشودنا الرومانية، في أن كل فـــرد مـــن الأفراد الحاضرين ولد من أُنثى، وإن كان هناك أي قدر أو مصير مشترك، عندئذٍ فلا بدّ أن يكون هذا هو القدر.

كانـــت النـــساء الواقفات إلى جانب مارونا أمهات، وكل ذكر هـــناك ســـبق لـــه أن اهتمت به أُنثى، ودللته وقلقت عليه، وأطعمته، ونظفـــته، وصفعته، وقبلته، وعلمته... إنه تاريخ حزين، مقنع، تنتابني الدهشة لأننا لا نتذكره كثيراً.

أثـــار ارتباكه هذا الإرغام، هذا الإرغام الذي يضطره إلى التفكير وإلى أن يقـــبل أنه كان لامبالياً وطائشاً، تماماً مثلما قالت عنه هي. غير أن هذه الاتهامات التي وجهتها إليه، دوماً، جعلته عنيداً ورافضاً، إلاّ أنه لا يـــستطيع أن يقـــول لها اليوم إنه لم يكن مصغياً إليها، وأنها تذمرت وتبرمت، لأنه كان يفكّر سراً في أنها على حق.

لديـــنا المشهد الآن وقد وصف وصفاً جغرافياً. وقفت النساء في ذلـــك المكان شبه المظلم، وربما البارد، يرتدين ثياباً مصنوعة من قشور الأسماك اللامعة، البراقة، لكنها لم تكن ثياباً تبعث الدفء في الأوصال،

وعلـــى مقربة منهن كان الذكور مجتمعين كلهم، ملتحين، ويرتدون، علـــى وجه التأكيد تقريباً، جلود الحيوانات المألوفة. وإذا ما رفع نسيم البحـــر طبقة من الفرو، عن كتف أو عن رأس، فإنه يصعب التأكد من أن هذا جلد أو لحية، أو ذنب أحد وحوش الغابة.

تقـــول المـــدونات إن مارونا وهورسا *تصالحا* في تلك الليلة. إنني أفكـــر بالكلمـــة الأصـــلية التي استُعملت آنذاك. كيف يمكن لهما أن *يتـــصالحا* فـــيما القضايا التي جعلت كل واحد منهما يصرخ في وجه الآخر، لا تزال عالقة؟

إننا نعرف جميعنا أنهم أقاموا الولائم واحتسوا الشراب الذي صنعه الرجال، وأكلوا فاكهة الغابة. المؤكد هو صعوبة البقاء في حالة غضب في أثـــناء الولـــيمة. هل تضمّن صلحهما ممارسة الحب؟ إننا نعرف أن هورســـا كـــان معجباً بمارونا، لكننا لا نعرف شيئاً عن هوى مارونا بهورسا إن كان هناك أي هوى.

* * *

نحـــن الرومان نفترض ممارسة الحب، لكن هل يمكن أن يأتي زمـــان يـــوجه النقد فيه إلى الرومان لكثرة ممارستهم الحب؟ أعتقد أن الجواب نعم. لكن هذا كلام رجل مسن على أي حال.

* * *

بغض النظر عن المجرى الذي اتخذته تلك المفاوضات فإننا يمكن أن نكـــون مـــتأكدين مـــن قضية واحدة: لا بدّ أن الاثنين كانا يعرفان الأطفـــال، والمشكلات التي يسببونها، لأن كلا التاريخين يدونان لنا ليلة صـــاخبة، يطلـــب فيها الأولاد الصغار الاهتمام بهم، يقظين كانوا أو نـــائمين. كان الأطفال، الذين أعلنوا أنهم سيذهبون برفقة هورسا، في حالة اهتياج شديد، وتباهٍ، ربما لأن الأولاد المرافقين لمارونا طلبوا منهم

أن يبقوا يقظين، لأنهم كانوا عرضة للكوابيس، ويتخيلون رؤية خنازير قاتلة. لكن الأولاد الذين عاشوا في تلك الفسحة وسط الأشجار، سخروا منهم وقالوا إنهم تخيلوا الخنازير، لكن الحقيقة هي أن ولدين صغيرين قُتلا، وكان الأطفال كلّهم يعرفونهما. كوابيس وصياح في أثناء النوم، ودموع، ومشاجرات، وثورات غضب... اضطُرت الفتيات اللواتي أردن أن يكنّ برفقة الرجال، وبخاصة أنهن أدركن تواً أن الحملة قد تأخذ الرجال بعيداً لمدّة طويلة من الزمان، إلى قضاء تلك الليلة في تهدئة الأطفال.

عندما حلّ الصباح، كانت الجماعة مرهقة، فاترة الهمة، بينما الأطفال يتصرفون مثل صغار الأطفال. يفترض أن هورسا حاول إقناع مارونا بآرائه إلا أنها أقنعته أن يرى *الأسطول* الذي يوشك أن ينطلق.

كانت في حالة صدمة شديدة بسبب ما شاهدته، فهاجمت هورسا، وضربته بقبضتيها، وبكت وهي تقول إنه مخبول. كان *الأسطول*، الذي حُشد له منذ أشهر، يتألف من طوف مربوطة بعضها ببعض بحبال الغابة، ومن أخشاب بعضها مجوف، وقوارب مدورة مصنوعة من جلود شدّت إلى دوائر خشبية، وحزم من قصب. كانت هذه القوارب المؤقتة جميعها قد استعملت في الصيد على مقربة من السواحل، وقد أثبت بعضها أنها مأمونة، على الأقل لهذه الأغراض المحدودة. في وسعنا أن نتخيل ما شاهدته مارونا، غير أن هتافها كان: "أنت تريد أن تقتلهم. أنت تريد أن تقتل أطفالنا".

أطفال من؟ هذه مشكلة حقيقية، ذات صلة لا تدعو إلى الاطمئنان باهتمامها: "ألا تهتم بنا؟" من؟ النساء؟ الرجال الصغار الذين لولاهم لن يكون هناك مستقبل للناس؟

قالـــت مارونا: "لا يمكنك أن تأخذ أطفالاً صغاراً معك". قالت علـــى نحو هستيري استناداً إلى تاريخ الذكور، فيما قال تاريخ النساء: على نحو ساخط. لكن الشيء المثير للاهتمام هو أن هورسا وافق على ما يبدو، على نحو خانع.

الحقيقة هي أنه لم تكن لديه فكرة عن حاجة الأطفال الصغار إلى العناية الشديدة؛ ويرجع سبب ذلك إلى الظروف الخاصة في الغابة.

وصـــل الأولاد الـــصغار بعد هروبهم من شاطئ النساء، يهذون لـــشدّة فرحهم، ومعهم بعض الفتيات، وسرعان ما تسلقوا الأشجار. كـــان في الغابة جدول جميل ضحل المياه، يناسب الأطفال تماماً. كان الجدول مأمون الجانب، كذلك الأشجار، على الرغم من وجود رقابة مـــستمرة على السنّورات التي تتحرك خلسة، وتدخل وتزحف وسط الأغـــصان، متمنية العثور على صبـــي صغير غفل من أي حراسة. هل هـــناك ضحايا؟ لا إشارة في المدونات. لكن يمكن أن نلاحظ من هذا الـــشرح القصير، وأن الاعتناء بالأولاد الصغار في الغابة لم يكن عملاً مـــنهكاً. وقـــد تولى هذه المهمة عددٌ من الشبان، مع الأخذ بالاعتبار الاحـــتفاظ بقاعدة واحدة. ففي حين ينحسر الضوء عائداً إلى السماء، وتغدو الأشجار شاخصة في الظلام، متوارية، ينبغي على كلّ طفل أن يخـــرج مـــن بين الأشجار، ويأتي إلى دوائر الضوء المنبعث من النيران، وبعدها يوضعون في ملجأ واحد، يقفل بابه بإحكام ليقضوا فيه ليلتهم. قلّما أُضطر هورسا إلى رؤية الأولاد، وإذا ما كسر أحدهم أحد أطرافه، أو أصيب بمرض، فإنه يعاد إلى النساء.

حدثت مفاجأة مذهلة ومزعجة لهورسا في تلك الليلة، تحت ضوء القمر العظيم الساهر، عندما صخب الأطفال، وأفصحوا عن متطلباتهم، وأحدثوا ضجة عالية.

عندما شاهدت مارونا تجمّع *السفن* وأنبته وأنبتهم، أخبرها بأنه لن يأخذ الأولاد الصغار، بل الكبار فقط.

لماذا لم يقل إنه لن يأخذ أي أولاد أساساً؟ أظن أن كبرياءه هو السبب. حتى في تلك الحالة، فإن الرجال ينبغي عليهم الإذعان للضحكات الساخرة، المدوية. في وسعنا أن نفترض تماماً تلك الضحكة. من منّا، نحن الذكور، لم يخضع لها؟

ثار الأولاد الأصغر سناً عندما أُخبروا بأنهم لن يبقوا مع الرجال، وقالوا إنهم سيرجعون إلى فسحة الأرض في الغابة، إلى الأشجار، وإنّهم سينتظرون هناك حتى يعود الرجال.

لم تكن لدى الرجال أي نيّة في إلزام أنفسهم بوعود العودة. لكن قبل أن يتمكنوا من الانطلاق، كان لا بدّ من عمل شيء ما لتحذير الأطفال كي يبتعدوا عن الغابة. انطلق الأولاد الصغار، العائدون مع مارونا إلى شاطئ النساء، والذاهبون مع هورسا، يرافقهم الصيادون حاملين أسلحتهم. كانت المسافة الممتدة إلى فسحة الغابة، مسافة بعيدة في ذلك اليوم، إذ كانوا كلهم مجهدين، ومعهم عدد كبير من الأولاد الصغار. (عدد كبير: تلك هي العبارة التي استعملوها). لقد كان الوصول إلى الشاطئ، وإلى موقع الرجال، عند هبوط الليل يعني الإسراع في السير، وعندما شاهد الأولاد الذين يعرفون الأشجار، أطلقوا صيحات الفرح لدى رؤيتهم إياها، لكن الصيحات والتهليلات توقفت فجأة، إذ شاهدوا في وسط تلك الفسحة، أسرة من السنّورات كبيرة الحجم مستلقية كأن المكان ملكها. لقد جاء الأولاد لمشاهدة السنّورات، غير أن مجرد النظر إليها جعل الدماء تتجمّد في عروقهم من شدة الخوف. أين الخنازير التي اختطفت الولدين قبل يومين لا أكثر؟ كانت أُنثى خنزير ضخمة، سوداء اللون، بخطم وأسنان تلمع

مستلقية إلى الجهة الأخرى من جدول الماء، بل كانت تسد مجراه، فيما أخـــذ الماء يتجمع من حولها في برك. كان حجمها الضخم هو الذي جعلها هي وبقية الخنازير في مأمن من السنورات. أي حيوان يمكنه أخذ قطيع من خنازير عنيفة وسريعة؟ ربما مجموعة من الكلاب.

وقـــف الأطفـــال ينظرون نظرة حزن إلى جنتهم، بل بدأ بعضهم بالبكاء. كان المكان خطِراً، على الرغم من وجود الصيادين الشباب.

انطلقـــت مارونا صوب شاطئ النساء برفقة الأطفال الأصغر سناً الـــذين اخـــتيروا اختياراً اعتباطياً، بحسب الطول والحجم. أما الأولاد الأكـــبر سناً، وكان عددهم عشرة أو زهاء ذلك، فقد رافقهم الشبان، وانطلقـــوا عائدين للبحث عن الرجال. كان الوقت قد تجاوز الظهيرة. وبدا الوصول إلى الرجال، في أثناء ضوء النهار، أمراً غير ممكن. وصلت هذه المجموعة من الأولاد أحد الشواطئ. (كم شاطئ هناك؟ عدد غير قليل). وحطوا رحالهم فوق أحد الشواطئ الفسيحة، وقضوا ليلتهم من دون طعام، ساهرين، فيما الأمواج غير المألوفة تصطدم بالقرب منهم، وبعيداً عنهم، إذ ينحسر المدّ بعيداً.

هكـــذا انتهـــى النهار عندما *تصالح* هورسا ومارونا. واستأنفت النـــساء المـــرافقات لها حياتهن الاعتيادية. تشير المدونات إلى أن النساء تذمـــرن مـــن هورسا، وغموض خططه، منذ اللحظة الأولى، وتذمرن أيضاً من أخذه الأطفال معه.

صـــدرت أوامر إلى الأولاد الذين سيرافقون هورسا بوجوب الالتـــزام بهـــا وحفظهـــا. كـــان أول هذه الأوامر صارماً، وفرض عقوبات، علموهم الطاعة. وإذا كان هورسا يشعر بالندم لأنه وافق على اصطحاب الأولاد، حتى الكبار منهم، إلا أنه لم يعترف بذلك الندم قط.

أظهر اليوم الأول أن هورسا لم تكن لديه فكرة عما يقوم به.

تخـــيلوا فـــرح الأولاد، لكل منهم طوفه أو حزمة قصبه، أو حتى جـــذع شجرة، وقد انطلقوا مع الرجال في المرحلة الأولى من الرحلة. كانوا مهتاجين، يجذفون مستخدمين العصي، أو مجموعة عصي مربوطة بعـــضها ببعض، أو حتى أيديهم، معترضين طريق الرجال المسافرين في قـــوارب أكـــبر حجمـــاً. وكانوا يتساقطون في الماء، فيتعين إنقاذهم. صـــحيح أنهـــم يـــستطيعون السباحة، ولا مجال للارتياب في احتمال غـــرقهم، فهـــم أطفال الماء، غير أن *الأسطول* الذي خطط له هورسا ومـــساعدوه اضـــطُر إلى الإبحار على نحو بطيء، لأن الأولاد الصغار استرعوا اهتماماً كبيراً بهم. وعندما شارف اليوم الأول على الانقضاء، كان كل شيء واضحاً إذا كان يراد للرحلة أن تتقدم، فلا بدّ، إذاً، من إبعـــاد الأولاد الصغار عنها. فأصدر هورسا قراراً يفيد بألاّ يكون أي ولـــد جزءاً من *الأسطول*، وألاّ ينضم إلى الرجال إن لم يحقق متطلبات رجولته. هل معنى هذا الفقر؟ هل معناه الأكبر سناً؟ لكن من المؤكّد أن حـــشداً مـــن الأولاد الواجمين، الغاضبين، الباكين، قالوا إن هذا ليس عدلاً.

غـــير أن هورســـا كـــان عنيداً. وسيبقى الأولاد الصغار قرب الـــشاطئ، وسيسحرهم الشباب، الصيادون والمتعقبون. ثم تذهب هذه المجمـــوعة مـــع هورســـا على امتداد الشاطئ بموازاة رجال القوارب. وســـيلتقي الجميع عند المساء قرب النيران لإقامة وليمة العشاء... نعم، هناك الكثير من التنظير هنا، حتى عند هورسا، الذي كشف عنه *قراره* إنه أحد أولئك القادة الذين يتوقعون زوال الصعوبات.

للـــشاطئ جـــونات هـــي ثغور الأنهار، بعضها كبير، وله أيضاً مـــستنقعات، أو جـــروف. وعلى الرغم من سهر الأولاد الكبار على

الأطفـــال، إلا أن هؤلاء مروا بأوقات عصيبة وهم يعملون على امتداد الشاطئ. وثمة حيوانات متوحشة أيضاً، فيما كان الأولاد يملكون كلهم أسلحة. لكن أي أسلحة؟ المذكورة منها هي السكاكين، المصنوعة من الأصداف البحرية والعظام الحادة، ونمط من أنماط المنجنيق الذي يصيب مقـــتلاً حتى في الحيوانات الكبيرة، وأقواس، ونبال. كان هؤلاء الأولاد الصغار يعرفون كيف يدافعون عن أنفسهم، لكنهم سرعان ما ضجروا وتذمروا، وتصرفوا باختصار تصرف الأطفال، بكوا، وأصبحوا عرضة لـــثورات غضب وانفعال شديدين. وتذمر الأولاد الكبار أيضاً. ما دعا إلى إبـــداء بعض المرونة، وكانت محاكاة أُسطول من سفن صغيرة يعني الركض على امتداد الشواطئ من دون الولوج في أصقاع اليابسة، حتى إن الحملـــة بأكملها اضطرت في بعض الأحيان إلى التوقف لبضعة أيام فـــيما يجـــتاز الأطفال مستنقعاً مليئاً بالأشجار، أو جرفاً كبيراً. اضطُر *الأُســـطول*، في أكثر من مناسبة، إلى الدخول ونقل الأولاد الصغار من حـــول عائـــق، وفي أثناء النقل، كانوا يصيحون مطالبين بالسماح لهم بالانـــضمام إلى المجمـــوعة الرئيسية على ظهر قواربهم المرتجلة. انطلقت الشكوى والدموع والاضطرابات، وصدحت أغاني ذلك الزمان، أغانٍ تكـــشف عن تهكم ومرارة، وهي تروي حكايات عن شجاعة المحاربين الـــذين اضـــطروا في أغلب الأحيان إلى التخلي عن مغامراتهم، والعناية بالأطفال.

كـــم مـــن مرة أرغم هورسا على لعن قراره بالسماح للأطفال بمرافقته، إلا أنه على الرغم من ذلك، لم يصرح بما كان يشعر به.

قـــبل أن تـــنطلق الحملة مسافة بعيدة، عادت بعض الفتيات إلى شـــاطئ النـــساء، وأخذن معهن بعض الأولاد. وكان الهدف من وراء ذلك هو حمايتهم من الحيوانات البرية، لكن يمكن الافتراض، أيضاً، أن

هورســـا كـــان مـــسروراً للتخلص من ولد، أو ولدين، أو أكثر متى استطاع إلى ذلك سبيلاً.

في غـــضون ذلـــك أصبح شاطئ النساء أكثر ازدحاماً، وجلبة، وإزعاجاً.

قالـــت الفتيات العائدات إن السفر برفقة هورسا كان صعباً، لا سيما أن عدد الفتيات لم يكن كافياً ليناسب عدد الرجال. ثمة إشارة - للمرة الأولى في تاريخنا - تفيد بوجود أزواج، أزواج معترف بهم. غير أن هورســـا لم يرقه ذلك، لأنه كان يؤدي إلى شقاق يصل إلى درجة القتال والنـــزاع من أجل الفتيات.

قالـــت الفتـــيات العائدات إن هورسا كان طاغية لا يحتمل. إن هورسا... من هو يا ترى؟ أولاً، لقد كان هو - أو هورسا - قد وضع حـــداً للاقتتال وسط الجماعات المختلفة في الغابة، وتولى زمام القيادة، وجمع كل الغرف الصغيرة. يقول تاريخ النساء: "لقد باتت الغابة آمنة، وفي وسعنا أن نذهب إليها، من دون أن نصاب بأذى، شرط أن نذهب جماعات".

ذلـــك هـــو هورسا في أفضل حالاته، القائد الفريد الذي كانت طاعـــته مـــثار سرور الجميع. ثم نظّم إثر ذلك الحياة في الغابة، موفراً الأمان للأولاد الصغار في أشجارهم، مختاراً الصيادين والمتعقبين، والذين ســـيهتمون بفـــسحة الغابة والملاجئ، والأبنية الخارجية، الملحقة بالبناء الرئيسي، والنيران. وهكذا أبعدت الحيوانات المفترسة التي كانت تجول خلـــسة في الجوار وتراقب الجماعة. وعلى الرغم من ذلك، فهو أيضاً قائد جلب الدمار إلى الحملة. شخصان مختلفان؟ كانت الأسماء في تلك الأيام تقترن بالسجايا: فقد بدت مارونا دائماً رمزاً للمرأة القيادية؟ أما هورســـا، فكان يمتلك الدبلوماسية والكياسة الضروريتين لقائد عديد

الرجال (كم عددهم؟)، إلا أنه لم يعرف كيف يدير الحملة، التي كانت النساء يصفنها بأنها حملة طائشة، خطيرة، غبية، وسيئة التخطيط. وقد اكتنفت حملة هورسا كل هذه الصفات.

ظلت البحار التي شق *الأسطول* عبابها هادئة، دافئة، ورقيقة، منذ زمن طويل، على الأقل، الزمن الذي يستغرقه الحمل. ومرت الزوارق، وجذوع الأشجار، وحُزم القصب والزوارق الصغيرة المكسوة بالجلود، بحبور على امتداد الشواطئ، على مرأى من الأولاد الصغار، وكان يسهل الوصول إلى الرمال الدافئة لتناول وجبات الطعام، أو لقضاء ليلة. في ذلك الوقت، لم تكن هناك صعوبة، على الأقل في بداية الأمر.

ثم حدث شيء ما لم يستطع هورسا تجنبه، ولا بدّ أنه فكّر في احتماله: ثمة عاصفة هوجاء تحطمت إثرها المراكب الصغيرة كلّها التي حملت على نحو مريح، يبعث على السرور، أولئك الشبان كلّهم على امتداد الشاطئ، وبقي حطامها هناك، مع غيرها من آثار العاصفة. لم تكن إعادة تجميع المراكب بالمهمة الصعبة، وأصلحت بعض المراكب الصغيرة، غير أن هورسا لم يقترح، على الفور، الإبحار مجدداً، بل خيّموا على امتداد الشاطئ، وأضرموا نيرانهم العظيمة، واصطادوا في الغابة، وطهوا لحومهم، وأرسلوا جماعات إلى داخل اليابسة بحثاً عن فاكهة وخضار؛ بدوا وكأنهم ينتظرون. ينتظرون من؟ في الحقيقة، لقد أخفقت الحملة وليست المراكب المحطمة سوى تأكيد على ذلك.

المشكلة تمثلت بالأولاد الصغار الذين يجب أن نتذكر أنهم لا يمكن أن نقارنهم بأولادنا الذين بمثل سنهم. كانوا في العاشرة، والحادية عشرة، والثانية عشرة من عمرهم و لم *تكن أجسامهم أجسام رجال* بعد، لكن في وسعهم استعمال مختلف أنواع الأسلحة، ويستطيعون الصيد برفقة الصيادين، وأن يتعقبوا الطرائد برفقة المتعقبين، لكنهم

كانوا أيضاً متمردين، متذمرين، لا يرضيهم أي شيء. فلم تكن متعتهم الأولى الموعـــودة بالمغامـــرة تعـــني هذا التسلق الشاق على امتداد هذه الـــشواطئ، وانـــتظار وصول الرجال القادمين من البحر. كما شعروا بالإرهـــاق أيضاً. بعضهم كان في السابعة أو الثامنة من عمرهم، وإن كانـــوا يـــبدون أكبر سناً عندما انطلقت مارونا مع الصغار. في بعض الأحـــيان كانوا يريدون أمهاتهم، أو على الأقل، النساء اللواتي كانت تـــروقهن رعايـــة الأطفال مثلما تروقهن المهام التي تكلفهن بها مارونا. وكـــان هورسا قد علم منذ البداية أن الأولاد كانوا غلطة، لكنهم باتوا بعـــيدين الآن عـــن البيت - إن كانت الغابة هي البيت - مثلما كانوا بعيدين عن شاطئ النساء.

خطط لإعادة الأولاد كلّهم إلى البيت، تحت حراسة الشبان، لكن عـــندما طـــرحت الخطة عليهم، رفض الشبان العناية بهؤلاء الأطفال المتمردين المزعجين على امتداد رحلة طويلة وشاقة. لا، ليس لدينا أي مدونـــة أخرى عن الشبان وهم يرفضون ما يطرحه عليهم هورسا، مما يعني الإقرار بأن الحملة كلها أخفقت ولا بدّ من العودة.

ليس هذا سهلاً. أليس كذلك؟ فالإقرار أمام مارونا، التي تكثر من الزجـــر والتأنيب، بأنها كانت على صواب أمر سيئ. وقال هورسا إنه يـــريد أن يكتشف، بالسير بمحاذاة الشاطئ، إن كان في وسعهم العودة مـــن حيث أتوا، ومشاهدة النساء فجأة على صخورهن، وأن يدركوا أنهـــم أكملوا الرحلة من حول أرضهم. أضف إلى ذلك، أراد هورسا العثور على أرض أخرى، على شواطئ أخرى، على شعب آخر؟ لا، لم يـــدُر هـــذا في رأسه. لكن لا بدّ أن هؤلاء الناس قد فكّروا، أحياناً، بوجود آخرين مثلهم، كانوا يحيون مثل حياتهم، ويفكّرون إن كانوا هم وحدهم في تلك البحار والغابات.

إن الـــذهاب إلى مارونا، وإلى النساء والقول... إنني أجد صعوبة في تخيل الكلمات التي سيلجأ إليها هورسا.

لكـــن إن كانت حاجة الشبان، منذ أن كانوا صغاراً، تتمثل في الابتعاد عن النساء، فإنهم يشتاقون الآن إلى سهولة الزيارة؛ زيارة النساء للـــرجال، وزيـــارة الرجال للنساء. لكن هل اشتاقوا إلى الزجر، وإلى النصح أيضاً؟

"غبـــــي، غبـــــي، غبي؛ هل اعتقدت حقاً أن في وسعك جعل الأطفال الصغار راشدين بمجرد معاملتهم معاملة الراشدين؟ هل فكّرت حقـــاً أن الأولاد الصغار سيتصرفون تصرف صياديك الشبان المطيعين، لأن ذلك التصرف يلائمك إذا أقدموا عليه حقاً؟".

أخـــذ هورسا بعض رجاله، وسار على امتداد الشواطئ ليرى ما يمكـــن أن يعثر عليه. وأخذهم في رحلات داخل اليابسة، حتى وصلوا الأشـــجار الباســـقة والتلال، وأي منطقة مرتفعة يمكنهم من فوقها أن يستطلعوا شيئاً قد يبرر آمال هورسا.

مـــرَّ الوقت، ثم وقع حادث أخيراً، أرَّخ للأحداث، لهم ولنا على حدٍّ سواء.

ثمة مجموعة من فتيات حوامل سبّب حجمهن وحالتهن صعوبات جمة لهورسا.

أنجبت هذه الفتيات، وسرعان ما تناهى إلى السمع صراخ الأطفال الرضّع على امتداد الشواطئ، التي كان الذكور يخيمون عليها، ويقيمون الولائم من حولها. أصيب هورسا بالذعر، شأنه شأن بقية الشبان، لأنهم كانوا قد هربوا مما يسمعون الآن. أليس كذلك؟

حـــسناً. ماذا يمكنكم أن تتوقعوا؟ فتيات ينجبن، وأطفال يبكون. ولا بـــدّ مـــن إطعام الأطفال وغسلهم وبث الدفء في عروقهم؛ ألم

تفكّـــروا في ذلـــك؟ أغبياء، حمقى. لقد نفد صبرنا معكم... أتعني يا هورســـا أنك لم تعرف بما سيحصل؟ ألا تتذكر أننا قلنا لك، إنك إذا اصطحبت الفتيات في الحملة، فسيحملن؟

تخيلوا الزجر والكلمات: "... وما العمل الآن؟".

تـــوفي طفل رضيع. ثمة ذباب استوطن هذا الشاطئ، ذباب مائل لـــونه إلى الـــصفرة، يعيش أسراباً في أي مكان يمكن فيه العثور على الطعـــام، مـــثل الفتات الذي يقذف به البحر على الشاطئ مثل سمكة متعفنة أو حيوانات أو طيور بحرية ميتة، وأعشاب بحرية، وعلى أجساد الأولاد والرجال، شبه العارية، الذين تذكروا أن مآزرهم المصنوعة من الريش وورق الشجر كانت لها فائدتها حقاً.

أضرمت النيران حتى تسامقت، واشتدت حرارتها. وتجمعوا على مـــسافة قريبة جداً منها. كان الطفل الذي توفي قد تورم جسده بسبب اللـــسعات، وحاولـــت الفتـــيات تأمين حالة أطفالهن الرضّع بأخذهم للاســـتحمام باســـتمرار في أمواج البحر؛ مما أدى إلى إصابة جلودهم بالتجاعيد والالتهابات.

أصـــدر هورســـا أوامره بضرورة الخروج من المنطقة، إلى منطقة أخرى لا وجود فيها للذباب. فالشواطئ الرملية متشابهة من حيث توفر مرافق الحياة.

غير أن الأطفال الرضّع بكوا وانـــزعجوا، وتذمرت الفتيات. لقد جـــئن في هذه الرحلة لأن التزاوج راقهن، مثلما راقتهن رفقة الرجال، لكنهن عرفن الآن معاشرة الرجال، ولن يخففن عن الرجال والأولاد.

فكّر الأولاد متذمرين: إذاً، ما فائدتهن؟

أمـــا الفتيات فقلن: "ما الفائدة؟ ألا ننجب نحن جيلاً جديداً من الناس؟".

غير أن الأولاد قالوا: "إنهن يكثرن من الإزعاج".

لقد جاؤوا من مسافة بعيدة، إن قيست بالوقت، تسعة أشهر على الأقل. على الرغم من التوقف والبطء في الطريق - إن قيست بالمسافة - لكنهم لم يعرفوا كيف السبيل إلى ذلك.

كم سيستغرق منهم طريق العودة؟ العودة إلى أين؟ إلى الفسحة في الغابة؟ إلى أشجارهم التي كانوا يحلمون بها؟ يا له من زمان جميل، حيث الأمان وسط الأشجار العظيمة. كان عدد كبير من الأولاد والشبان يقولون إنهم كانوا مجانين عندما غادروا المكان. كل ما يحتاجون إليه هو حرس مسلحون تسليحاً جيداً حول أحفّة فسحة الغابة، لإبعاد الخنازير المغيرة والسنورات الزاحفة.

لكن لسبب ما، لم يرغب أحد في الإقدام على هذا الشيء؛ فالرحلات تنتهي إلى مكان معلوم، حيث يتم العثور على شيء ما، والاكتشاف، والتملك... ولم يكن التذمر مفيداً لهم. إذاً، ما الذي يمكن عمله؟

توفي طفل صغير آخر. وأضيف إلى بكاء الأطفال صوت نحيب النساء. لم يستطع هؤلاء الأولاد أن يتذكروا أن الأطفال يموتون بسبب المرض. يعتقد أن المرض هو الذي كان يقضي على هؤلاء الأطفال.

باتت الفتاتان اللتان فقدتا طفليهما فاترتي الهمة، فبكتا أو استلقتا في مكان ما، أيديهما تغطي وجهيهما، وبقيتا صامتتين، معذبتين... كما سال الحليب من أثدائهما. أوه، يا له من أمر رهيب، غير لائق، فيما أظهر الأولاد نفورهم، لكن هاتين الفتاتين شاركتاهم المغامرة، وكانتا رفيقتين، مثل الأولاد، إلا أنهما أفسدتا كل شيء عندما أصبحتا حبليين، وتلا ذلك مناظر وأصوات لا تبعث على السرور، أما الأولاد الصغار فقد تقززوا.

كـــم كان كل شيء لطيفاً في الغابة التي لم تكن بعيدة جداً عن شاطئ النساء. فقد كان في وسع الفتيات القيام بالزيارة والحصول على الشيء الذي يأتين من أجله – بعث الحياة في أرحامهن – ثم العودة إلى الـــديار مـــرة أخرى. وكانت هناك فتيات جديدات، وكنَّ معينات، نافعـــات، بارعـــات في فسحة الغابة، كما أظهرن براعتهن في معالجة الأطـــراف المكـــسورة، والأمـــراض البـــسيطة. ثم نظروا إليهن الآن، منـــشغلات بأطفـــالهن الرضّـــع الـــصخّابين، أو تراهن مضطجعات، صامتات، حزينات، لا يعاملن الأولاد معاملة تنمّ عن حنان.

هـــنا نلاحظ توقف كبير في التواريخ. فقد أشارت حملة هورسا وتـــدمير الصدع، إلى *نهاية*. كما كانت *بداية*، أيضاً، لظهور القرى في الغابـــات. إلا أنهن لم يعرفن يومذاك عن احتمال ظهور القرى. كما لم يعـــرف المدونون أيضاً. *فالكلمات: لم يعرف هورسا أين مكانه*، أهت قسماً طويلاً من التواريخ.

يتطلب الأمر شخصاً لمعرفة شخص! فأنا أعرف متى ينظر المؤرخ إلى الـــوراء، إلى زمان بعيد عن زمانه، أو زمانها، ويشعر بعدم الارتياح لأن الزمان قد تغير.

* * *

مـــاذا يعني هذا الكلام عندما يقال للمدونين الجدد: "لن يعرف هورسا أين مكانه". أين هي تلك الأصوات الجديدة؟ في القرى داخل الغابات. إننا لا نعرف عدد القرى، ولا عدد السكان الذين عاشـــوا فـــيها. فقد شعر المدونون أنهم لا بدّ أن يؤكدوا وجود حاجـــزين من أعمدة ناتئة يحيطان بكل قرية لإبعاد الحيوانات. كانوا يعرفون أين هم، لسبب واحد، هو أنهم لم يكونوا بعيدين عن مستوطنات النساء الممتدة على الشواطئ. هل تطلب الأمر زمـــناً، عـــصوراً؟ من النساء مَن وافقن على مغادرة البحر،

والتوغل على اليابسة برفقة الرجال، شرط أن يكنّ قريبات من الشاطئ. لهذا عندما قال مدّون القرية: "لم يعرف هورسا أين مكانه"، ينبغي علينا أن نفترض أن النساء كن يعرفن مكانهن، فقد أصبحت غنائم هورسا، ورحلته المجنونة في ما وراء الأمواج محفوظة في أغانٍ وحكايات تُروى عند الجلوس من حول النيران.

أنا لا أعتقد أننا نحن الرومان يمكننا أن نتخيل معنى هذه العبارة: *إن هورسا لا يعرف أين مكانه*. فقد تعلمنا نحن الرومان التعبير: *أين نحن؟* بألف طريقة. فعندما عادت فيالقنا من الغال، ومن بلاد الجرمان، ومن داسيا، أخبرونا بمكانهم. وعندما هدد الغزاة مدينة روما، فإننا كنا نعرف جهة قدومهم. سفننا تشق عباب البحار، وتمخر نحو الشمال، وتصل بريطانيا، ومصر، ويعرف عبيدنا البلاد التي قلما سمعنا عنها. نحن الرومان نعرف مكاننا، بل حتى الطفل الصغير عندنا يعلمونه كيف يقول: *"هذه روما مدينتنا لا تحتوي على كل ما هو معروف"*. ومن شأن هذا الطفل، أن يعرف إن كان يقف على شاطئ وشاهد أمامه شاطئاً مقوساً آخر، فربما يكون ذلك الشاطئ هو الجهة الأخرى من خليج ما، وأن الوصول إليه، لا يحتاج إلاّ إلى سفر بضعة أيام من المكان الذي يقف عليه كي يصل إلى ذلك الشاطئ.

* * *

لكن فكّروا في هورسا، وفي الأشياء التي كان يعرفها. لقد كان يعرف الأمواج الصخرية القاطعة على شاطئ النساء. وكان يعرف النهر العظيم، وغابات وادي النسور. وكان يعرف فسحة الغابة والأشجار الضخمة فيها والدروب التي تمتد فيها، وتقود إلى النساء. لهذا، عندما وقف ونظر إلى الأمام، إلى ما وراء الأمواج، لم تكن

لديه أي فكرة عن أنه قد يكون في خليج، وأنه ينظر إلى جزء آخر من أجزائه. أوه، نعم.

كـــان يعرف الخلجان من تقدم أُسطوله حول الشطآن بدءاً من نقطـــة البداية، حيث ودّع مارونا. إنها خلجان صغيرة، وجروف ناتئة داخـــل البحـــر. أكانـــت لديه أسماء يسميها بها؟ لقد كان المؤرخون المتأخـــرون في القرى يعرفون ما الخليج وما الجرف الناتئ، لأن اندفاع هورسا الجنوبي إلى ما وراء الأمواج علّمهم أن هذا ليس بخليج، صغيراً كـــان أم كبيراً، حيث أمضى هورسا ورجاله الوقت، من دون عمل، عليه، لا يعرفون ما يفعلون. أكرر القول: تمثل *عبارة هورسا لم يعرف أين مكانه قصوراً* في المعرفة، لا يمكن لأي روماني أن يتخيله.

لم يمضِ هورسا الوقت غير مدرك ما يفعل هناك وحده. فقد كان رجالـــه الأكـــبر ســـناً يرافقونه عندما لا يكونون منشغلين بالصيد في الغابات. نحن نعلم أن هذه المجموعة من الرجال لم تكن لتتصف بالقناعة والرضا.

لقـــد اضـــطرب هورسا اضطراباً كبيراً بسبب النساء وأطفالهن الـــصغار والأولاد الـــصغار الـــذين لم يكن يقوى على فرض سيطرته عليهم.

فقـــد نظـــر الأولاد الـــصغار إلى أنفسهم على أنهم أولاد كبار، وتـــشبهوا بالصيادين وجامعي الطعام. كم كان عددهم؟ إذا ما أخذنا بالاعتـــبار أن بعضهم رحل برحيل النساء إلى بيوتهن، فإن تخميننا (لا يمكن أن يكون هذا إلا مجرد تخمين وحسب) هو أن عددهم ربما كان عشرين، لا أكثر.

إن كلمـــة "بعـــض" كلمة مفيدة يستخدمها المدونون. لقد كان الأولاد راضـــين بمنجزاتهم، وكانوا يعودون إلى الشاطئ متبخترين وهم

يحملـــون الحـــيوانات التي أجهزوا عليها، تماماً مثلهم مثل الشبان الذين أرضـــوا أجـــسادهم. كانـــوا أشداء، لا يعرفون الخوف، ولم يطيعوا هورســـا، ولا أطاعوا أحداً. ربما ينطلقون في مجموعة لوحدهم يوماً أو يـــومين. وفي أكثـــر من مناسبة، قتل أحدهم على يد دبّ أو مجموعة كـــلاب. لم يعـــرف هورسا ما يفعل بهم، فبذلت عدّة محاولات لربط بعـــضهم بمجموعات الصيد المؤلفة من شبان كبار، ولدمجهم في التيار العام، غير أن هؤلاء الأولاد الصغار – الذين لا يشبهون أي ولد صغير نعـــرفه – كانوا فخورين باستقلاليتهم، بل وصل بهم الأمر إلى انتخاب زعيم لهم، وهو صبـــي لا يكبرهم سناً، لكنه أقواهم وأكثرهم شجاعة وإقـــداماً. وقـــد طلـــبوا مساعدة الفتيات اللواتي على استعداد لعقد صـــداقات، لعلاج طرف مكسور أو مداواة جرح. تشير المدونات إلى أن الفتيات كنَّ خائفات من أولئك الأولاد الهمجيين، الذين لم يعد من الممكن وصفهم بالصغار لتجاوزهم تلك المرحلة. لا، لم يكونوا أولاداً صـــغاراً. أما الشبان الأكبر سناً، الصيادون الذين يواجهون مثل هؤلاء الأولاد فقـــد كانوا شديدي الحذر تجاههم، كأنهم أعداء. وقد حدثت بعـــض المعارك بين الشبان البالغين *والأولاد الصغار*، الذين، وإن كانوا بنصف حجم البالغين، إلا أنهم بمثل شجاعتهم، ودهائهم، ومهارتهم في طرق الغابة.

مـــا الذي سيفعله هورسا بهؤلاء الأولاد الذين إن سئلوا عما إذا كانـــوا يـــريدون العودة إلى النساء، ضحكوا أو صاحوا: "لا، لا، لن نعود؟".

كان صديق هورسا، الذي رافقه في مشروعه، قد صحبه في هذا الشاطئ المريح، وتناقش الاثنان نقاشاً لا نهاية له عما يجب عمله. يبدو من الواضح أنهما لم يكونا على عجلة من أمرهما لعمل أي شيء.

لقد أرادا أن يكتشفا إن كانت أرضهم هذه جزيرة، لكن مفهوم *الجزيـــرة* ليس هو المفهوم الذي نقبله نحن الرومان عن الجزيرة. وفكّرا علـــى هـــذا النحو: فقد يجدا فجأة في صباح يوم ما، أنهما أبحرا بعيداً جداً، حتى أصبح في وسعهما أن يريا شاطئ النساء يمتد أمامهما، بما فيه من جروف وكهوف. لهذا كانت في ذهنيهما فكرة المحيط، نقطة نهاية حـــيث بدأت فيها البداية. لقد استخدم مدونو القرية المتأخرون كلمة جزيـــرة. فقد بدت رحلة *الأسطول* المنطلقة إلى الخارج، حيث يعرفون حقـــاً من أين انطلقوا في رحلتهم، إذاً، ليست لديهم فكرة عن مكان هذه *النهاية*. كيف عرفوا أن هذه الرحلة كانت بلا نهاية؟ كيف عرفوا أن أرضهم لم تكن كبيرة فيتمكنوا من الإحاطة بها؟ إن هذه الأفكار لم ترد في بالهم عندما انطلقوا وقد غشيتهم نشوة الرحلة.

عـــندما لم يكن هورسا ورجاله من الشبان والصيادين والمتعقبين يقومـــون برحلة داخل الغابة فإنهم يقضون الوقت حول النيران في أثناء الليل، ويحاولون إقناع *الأولاد الصغار* بالجدال، ويصغون إلى الأمواج في مدّها وجزرها، ورسائل حركاتها التي لا تنتهي، وزوالها، ويحدّقون إلى الأفـــق... ربمـــا في تلك اللحظة، وللمرة الأولى حقاً، أصبحت فكرة خليج، خليج كبير جداً، شيئاً موجوداً في أذهانهم، ويستطيعون الإشارة إلـــيه. هـــل عثـــروا على كلمة لإطلاقها على *خليج* واستعمالها؟ في وســـعهم، على الأقل، القيام برحلة قصيرة لرؤية ما يمكن العثور عليه. و لم يكن صنع القوارب من مجاميع القصب، ومن الألواح الصغيرة، ومن الأغصان، بالأمر العسير. وقد ذهب سراً عدد قليل من الرجال الكبار – ربمـــا رجلان أو ثلاثة – مع هورسا بوصفه القائد، في أُسطول صغير مـــن هـــذه *القـــوارب* وانطلقوا في وقت لم يكن فيه *الأولاد الصغار* موجودين في الجوار، وانطلقوا على امتداد الشاطئ. إنني أتخيل – وهذا

أمر يصعب عدم التفكير فيه على هذا النحو - أن هورسا ربما فكّر في القيام بالرحلة، على كل حال، وترك الأولاد الصغار. غير أن هذا يعني ترك الفتيات الحوامل. وتردد صدى كلمات مارونا في عقل هورسا *ألا تهتم بنا يا هورسا*؟ مما يعني الاهتمام الآن أكثر من ذي قبل. لقد كان هورسا يعلم، وإن لم يعلم أفراد مجموعته كلّهم، أن إنجاب الأطفال يعني الحاجة إلى الرجال.

لا بدّ أن هورسا، عندما فكّر في جملة *ألا تهتم بنا يا هورسا*، اعتقد بأن النساء مضى على سفرهن بعيداً شهور عدّة، كان هذا التفكير ينطبق على قضاء الوقت لا على المسافة التي قطعت. لا بدّ أنهن قد أصبن بالجنون وهن ينتظرن الرجال. لقد كان من المعروف، بين الرجال والنساء، أن فترة زمنية قد انقضت بين التزاوج والإنجاب، على الرغم من عدم قدرة هؤلاء الناس، على ما يبدو، على معرفة الأرقام في حالة الجمع، أو وسائل الاستنباط، مما يجعل *الفترة الزمنية* غامضة. لكن الوقت قد مرَّ، وطالما سمع هورسا *ألا تهتم بنا*؟

هل اهتم هورسا بما نسميه استمرار جنسنا على النحو الذي نستمر فيه اليوم؟ مثلاً، نحن ندفع ثمناً للعبدات الحوامل أكثر من الثمن المدفوع للنساء العجائز أو صاحبات البطون المسطحة.

هل تجشّم الآن، في فسحة الغابة، عناء حراسة الأولاد الصغار والاهتمام بهم؟ ثم نعود الآن إلى هذا السؤال الذي لا نستطيع الإجابة عنه: هل فكّر في الناس؟ هل كانت مارونا تعني بقولها: "ألا تهتم بنا؟" كلهم، الذكور والإناث والفتيات والمسوخ؟ من نحن؟

في غضون ذلك، استمر هورسا في طريقه ليوم، ليومين، لثلاثة أيام، متوقفاً في أثناء الليل، إذ تكون الأمواج عارمة، والشاطئ يمتد أمامه بلا نهاية. وعندما كانوا ينظرون فوق أكتافهم، فإنهم كانوا

يـــشاهدون خـــيطاً مـــن ألوان، سبق أن حدّقوا إليه منذ زمن طويل، وفكّـــروا إن كـــان ذلـــك الخيط يعني المضي قُدماً، تاركين الآخرين وراءهم.

عندما حيّت الفتيات وأطفالهن الشبان، من مكانهن، تحية تفيد بأن مـــا يفكّرون فيه هو أن هؤلاء الشبان هجروهن، حدَّق هؤلاء الشبان أمامهم وشاهدوا من دون إدراك حقاً، عند الحافة التي يلتقي فيها البحر والسماء، خطاً من لون بعيد لم يغير مكانه، يشبه الشاطئ. البعض قال إنه الشاطئ - لا بدّ أنه شاطئ - إذ لم يتصور أي واحد منهم بسهولة خليجاً بهذا الحجم الكبير الذي يكون فيه جانباه المتقابلان متواريين عن الأنظار تقريباً. ولم يكن سهلاً الاقتناع بأن الشيء الذي كانوا ينظرون إلـــيه مكان يمكن السفر إليه. أو ربما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، لو أنهم ملكـــوا ما يكفي من القوارب الكبيرة. ما الذي يمكن أن يجدوه؟ بلاداً حـــيث لا يعامل الولد معاملة الطفل الرضيع؟ فتيات ودودات لم يعرفن الحزن والوجوم أو يرفضن اللعب؟

كان هورسا في حالة من حمى، لأن هذا الشاطئ اكتسب مسحة حلـــم، وقال إنهم أبلوا بلاءً حسناً كلهم في حطام قواربهم حتى هبوب العاصـــفة. فقد تقدموا وجذفوا لأسابيع، لأشهر - لعصور - في ذلك الوقت. وكانت الأمواج رحيمة بهم، وبدت الرحلة مدهشة. نعم، لقد أصرّ هورسا على القول إنّه كان في وسعهم صنع مركب ملائم إلى حدّ يستطيعون أن يعبروا به إلى ذلك الشاطئ، الذي بدا وكأنه يدعوه إليه، وسينطلقون فوق أمواج هادئة ويجدون... صُنع مركب من مجموعات من القصب ربطت بعضها ببعض، أقوى وأكبر من أي مركب سبق أن صـــنعوه. صـــاح الأولاد الكـــبار والصغار مطالبين بمرافقتهم في تلك المغامـــرة، إلا أنهم وُعدوا برحلة أخرى إن نجحت هذه الرحلة. انطلق

هورســـا وصديقه الذي لم نعرف اسمه قط، فجراً باتجاه خط، بدا تحت هذا الضوء، لؤلؤياً متورداً، وفوقه حافة سحابة زرقاء داكنة.

تـــوقعا الوصـــول إلى هـــناك عما قريب، تلك هي الكلمة التي اســـتعملها المدونون. لم يقولوا عند المساء أو بعد وقت قصير، بل عما قـــريب. واســـتغرقا وقتاً أطول مما كانا يتوقعان. بذلا مجهوداً شاقاً في التجذيف، واستمرا عليه، غير أن ذلك الشاطئ الذي كان يومئ إليهما بالمجيء لم يقترب البتة. كانت ظهيرة اليوم قد انقضت منذ وقت طويل، وهمـــا يواصلان تقدمهما، وعندما حلَّ الشفق، باتا على مشارف أرضٍ جديـــدة - إن كانت كذلك - إلا أنهما لم يملكا أدنى فكرة عما يمكن أن تكون. شواطئ مرة أخرى، وأشجار من نوع لم يشاهداه من قبل. كانـــت الأشـــجار هي التي أغوتهما بالتفكير في أن هذا المكان أفضل، وأغنى، وأكثر جمالاً من مكانهما. وتبدو الأشجار التي أتى على وصفها أنـــاس لم يـــسبق لهم أن رأوا أي شيء يشبهها، مثل أشجار النخيل، وكانـــت عليها طيور عظيمة، بيضاء اللون، وريش طويل يشبه سعف النخيل. وبدا كل شيء ينظران إليه مدهشاً وجديداً، وكان كل الذي يـــريدانه هـــو الرسو بمركبهما المهلهل الآيل للتفكك، بعد هذه الرحلة علـــى الأمواج التي طالت أكثر مما كانا قد اعتادا عليه، وعندئذٍ ستبدأ حياة جديدة، و...

تجـــاوز الـــوقت العـــصر، وبدأ ضوء الشمس يخبو، فيما أخذت الـــنجوم ترصّـــع السماء. نظر هورسا إلى الأعلى إلى برجه، وفكّر أن الـــبرج ينظـــر إلـــيه من الأعلى. أصبح ضرورياً النـــزول إلى البر عما قـــريب، لكن مركبهما المهلهل بدأ يهتز، تتقاذفه الأمواج، فيما هبت ريـــح باتجاههما مباشرة، قادمة من هذا الشاطئ اللامع الموعود، ريح ذكـــرتهما بتلك العاصفة التي حطمت قواربهما. كما سارت السحابة

الـــسوداء، التي استقرت فوق الأرض، باتجاههما، بهيئة تيارات سوداء، ووجـــدا أنهما مدفوعان إلى الوراء، إلى المكان الذي جاءا منه. وبسبب هـــبوب الرياح الشديدة، أخذ المركب يجري بسرعة وخفة على سطح الأمـــواج التي باتت الآن قاطعة وعالية، فيما تشبثا بمجموعة صغيرة من القـــصب، هي كل ما تبقى من ذلك المركب الذي تفكك، وتحلل في البحـــر. وسقط هورسا وصديقه، مثل رغوة، فوق الأمواج، وانقلبا في ثـــناياه، حـــتى دفع بهما صوب الشاطئ، الذي رحلا عنه فجراً، دفعة قـــوية، لا ترحم. كان الليل قد هبط منذ وقت طويل، والنيران تستعر على امتداد الشواطئ. كان صديق هورسا مستلقياً بلا حراك، متكوراً، مـــصاباً بكـــسور، ولم تصدر عنه أي استجابة، ولم يعد إلى وعيه. أما هورســـا فقد تهشمت ساقه، وكانت ملتوية، وظل مضّجعاً على الرمل الدافئ، وأجهش بالبكاء من شدة الألم، بل من شدة الخيبة.

* * *

لا أستطيع هنا إلا أن أتدخل مرة أخرى، ويرجع سبب ذلك إلى أنني أشعر بعطف شديد إزاء ذلك الشاب هورسا المستلقي على الرمل، وهو مصاب، يحلم بذلك المكان الآخر، الذي لم يستطع الوصول إليه، على الرغم من محاولته... إنني أشعر أنه يمثل نفـــسي الـــشابة، ربما هو ولدي. ما الذي كان يتوق إليه عندما شـــاهد ذلك الشاطئ البعيد ورغب فيه؟ أعرف أن هناك أولئك الـــذين يعـــتقدون أن الإغريق قالوا الكلمة الفصل في موضوع الأمانـــي. لكننـــي لست بذلك الشخص الذي يخضع للإغريق، وبخاصـــة في هذا الميدان. فأنا من أولئك الذين يعتقدون بأننا نحـــن الرومان الذين طوروا من الإغريق. فهورسا لم يكن من الذين يجرون وراء الآفاق الأكثر جمالاً في الحياة، وأراه سلفاً لـــنا نحـــن الرومان. إن ما نراه نحتاج إليه للفتح، وما نعرفه

موجـــود هـــناك ولا بدّ لنا من معرفته. لقد كان هورسا نفسه مستعمراً، لكن ذلك حدث قبل ولادة الفكرة والكلمة. إنني أشاهد هورسا المسكين مستلقياً في ذلك المكان كسيحاً، وأفكر كيف أن رومـــا ألحقـــت الأذى بنفسها في مسعانا للتوسع والتملك. إنني أفكّـــر فـــي ولـــديّ المسكينين، الراقدين في مكان ما في تلك الغابات الشمالية. لا بدّ لروما من أن تقفز إلى الأمام، أن تنمو، وأن تتوســـع. لقـــد امتدت حدود إمبراطوريتنا الرومانية طولاً وعرضاً، هل هناك سبب يدعو إلى نهايتنا، نهاية روما، ونهاية حـــدودنا. قـــد يُحاربـــنا الـــسكانُ الخاضعون لنا، إلا أنهم لا يـــستطيعون إيقافنا. إنني أتخيل في بعض الأحيان كيف سيكون العـــالم تابعـــاً لروما، خاضعاً لحكمنا النبيل، للسلام الروماني، للقوانـــين والعدالـــة الرومانية، وللكفاءة الرومانية. صحيح أننا نحـــول الصحارى إلى أراضٍ يانعة، والأراضي التي نغزوها إلـــى أراضٍ مزدهرة. ثمة قوة، أعظم من قوة البشر، هي التي ترشـــدنا، وتقـــودنا، وتشير إلى حيث ينبغي لفيالقنا الذهاب في المـــرة القادمة. وإذا وجد هناك من ينتقدنا، عندئذ لا أملك إلاّ جواباً واحداً: لماذا يريد كل واحد أن يكون مواطناً رومانياً، إذا كـــنا نفتقر إلى السجايا المطلوبة لجعل كل الأرض تزدهر؟ إن الكـــل، كل فرد، بدءاً من أي بقعة في إمبراطوريتنا، وإلى ما وراءهـــا، يريد أن يكون إنساناً حراً ضمن القانون الروماني، والـــسلم الرومانـــي. أجيبوا عن هذا السؤال أيها المتشككون، المنـــتقدون. أمـــا أنا، فأتخيل هورسا المسكين مستلقياً في ذلك المكـــان فـــوق بقعة من رمل، كسيحاً بسبب حاجته إلى معرفة تلـــك الأرض الأخـــرى المدهـــشة، وأفكر فيه، سراً، بوصفه رومانياً، واحداً منا، منا نحن.

* * *

كـــان مستلقياً مثل طفل، ذراعه تغطي وجهه. وعندما تمكن من الكـــلام، وأراد الآخرون الإصغاء، تحدث عن عجائب الشاطئ الآخر. ففي حين كانت هذه الأرض، أرضهم، ذات أشجار وطيور وحيوانات جميلة، تتألق عيونها باتجاههم من بين الأدغال، فإن الشاطئ الذي أخفق في الوصـــول إلـــيه، الذي قذفته من هناك رياح هوجاء بكل قوة، هذه الأرض، الأرض الجديدة، كانت أرضاً مغرية، مرغوبة على نحو لا يمكن أن تتصف به أرضهم أبداً.

غـــير أن الآخرين أظهروا عدم اهتمامهم بالإصغاء. ثمة مهمات، صعوبات، أولها التخلص من جثة الشاب الميت، برميها وسط الأمواج الـــتي أعادتهـــا مـــرة أخرى لتحط مهشمة على مسافة غير بعيدة من هورســـا. جاءت إحدى الفتيات، وكانت قد فقدت طفلاً، لتؤكد أن البحـــر لم يقبل الموتى، وأن من الأفضل دفن هذه الجثة. وهكذا، وضع رفـــيق هورسا تحت الرمال، واضّجع بقربه، وفكّر في أنه ربما كان هو الـــذي سيتوارى تحت الرمال الخانقة. أتت فتاة أخرى إليه، تحمل ماءً وطعامـــاً، مـــن وليمة المساء، لكن كل الذي كان يتحدث عنه أولئك الأولاد الكبار والشبان هو الأولاد الأصغر سناً، الذين أتوا بذبيحة من صـــيدهم، إلاّ أنهم كانوا يشوونها على نار مستقلة، لا تبعد كثيراً، بدلاً مـــن إضـــافتها، كما هو المألوف، إلى الطعام الرئيسي. كان الأطفال يرقصون ويغنون، أطلقوا العنان لأنفسهم بسبب استقلاليتهم، وسخروا مـــن الأكبر سناً منهم، الذين كانوا يتجمعون حول نيرانهم. صاح بهم هورسا أن يأتوا وينضموا إلى الوليمة الرئيسية، إلاّ أن الأطفال تجاهلوه. غالباً ما كان هورسا موضع تجاهل، ولم يفهم سبب ذلك، ولم يلاحظ أن سمـــة الفـــرح والفوضى التي عمت المكان إنما ترجع إلى أنه لم يكن موجـــوداً هناك، يقودهم كلهم، ويتزعمهم، دائم الحضور بوصفه نقطة

ارتكاز السلطة. لا، لقد كان مستلقياً على الرمل، أو يزحف أو يحاول الجلوس، واهناً يعتصره الألم.

كان البحر قد قذف بقطعة خشب، فتشبث بها هورسا، وحاول أن يـــرفع نفسه ليستند إليها. التفت الناس يحدقون أولاً، ثم يبتسمون، ويختلسون النظرات بعضهم إلى بعض. كانت العصا الملتوية إلى جانب الـــساق الملـــتوية أشـــبه بصدىً كاذب، بينما شرع الأولاد الصغار، الواقفـــون قرب النار الثانية يشمتون ويشيرون بأيديهم عندما شاهدوا هورســـا بـــثلاث ســـيقان، إحداها متدلية. وحذا الشبان الأكبر سناً حـــذوهم، بيـــنما وقف هورسا متمايلاً، يسعى بصعوبة إلى التشبث بالعـــصا، لكنه هوى أخيراً، ودوى المكان بالضحك. حاول هورسا أن يـــنهض، لكنه أخفق. جاءت الفتاة التي فقدت رضيعها إليه، وحاولت أن تـــساعده على النهوض، لكنها فشلت، فانصرفت، وبقي هورسا في مكانـــه مغلـــوباً على أمره، مثل حيوان فقد حياءه. راوده شعور بأنه أصـــبح منـــبوذاً منهم، وعندما جاء الأولاد الصغار ووقفوا إلى جواره يـــشيرون إليه، ويشمتون به، تكوَّر فوق الرمل، يحاول أن يواري نفسه عـــن الأنظار. انصرفوا بدورهم، وعادوا إلى الغابة ومنها إلى الشاطئ. كـــان الأولاد الكبار قد خططوا للصيد اعتباراً من اليوم التالي، ولم يبدُ علـــى أحد منهم أنه رآه، فقد زحف بعيداً عنهم ليلبـــي نداء الطبيعة، ولمـــا قفـــل راجعاً، تمدد وراء صخرة عالية، أخفت معظم جسده. لم يكلمه أحد، ولم يفهم الشعور الذي راوده. لقد كان دوماً كل شيء، قوياً، وسيماً، وتمنى لو تمكن من الاختفاء إلى الأبد.

استيقظ في الصباح، والألم يعتصره، والعطش آخذ منه كل مأخذ، واضطر إلى الزحف زحفاً بطيئاً إلى الحاوية حيث يوجد ماء. إلاّ أنه لم يستطع رفع الصدفة البحرية الكبيرة. كان بعض الآخرين قد استيقظوا،

وكـــان الشبان الأكبر سناً قد انطلقوا للصيد، و لم يكن الأولاد الصغار هناك. رأته بعض الفتيات الحاملات أطفالهن، الواقفات على مسافة من بقـــية الناس، لكن بدا أنهن لا يرغبن في مدّ يد العون له. أخيراً، عندما أدرك أنـــه سيـــسقط الـــصدفة ويهدر الماء، حضرت إحدى الفتيات وأشربته. لم تكن تفتقر إلى الحنان، لكنه كان معتاداً على حنان أكبر... مـــا الذي كان يفتقر إليه؟ وما الذي لم تمنحه إياه؟ إنه الاحترام الذي طالما ملكه، واحتاج إليه.

بعـــد أن روى ظمأه، التفت ليلقي نظرة إلى البحر، فشاهد على مسافة بعيدة، حيث يلتقي البحر بالسماء، ضوءاً يلمع، عرف أنه موطن خـــياله، أرضه التي سيجد فيها بغيته، على الرغم من أنه لم تكن لديه فكرة عما كان يتوق إليه، حتى شاهد تلك السواحل اللؤلؤية الوردية، حـــيث الطيور العظيمة ذات اللون الأبيض تزين الأشجار كالأحلام. كـــان هـــناك يحتمي من حرِّ الشمس اللاهب، تحت ظلال الصخور، محـــدقاً، دوماً محدقاً، بينما الشاطئ المغوي يغير ألوانه بمرور الشمس. لم يحضر أحد ليساعده، أو ليقدم له ماءً، أو طعاماً، أو حتى يتحدث معه. كم رغب في أن يخبرهم عن المكان المدهش الذي رآه، الذي أوشك أن يصل إليه، حيث...

لو امتلكتم سلطة طوال حياتكم، بسبب طبيعتكم، أو شيئاً لم تعرفوا أنكـــم تملكونه، ثم تفقدونه، عندئذ يصعب كثيراً طرح الأسئلة الصحيحة. مـــا الـــشيء الـــذي فقده؟ ما الشيء الذي يحتاج إليه الآن والذي سبق للآخرين أن احتاجوا إليه منه؟ إن هورسا لم يقرّر بنفسه أن يصبح زعيماً، وموحد العديد من الجماعات المتناحرة - إن كان هو الذي أقدم شخصياً علـــى فعل هذا الشيء، وليس شخصاً ورث عنه السلطة - و لم يقاتل من أجل أن تكون له السلطة على الآخرين، لكنه لم يعرفها قط. لِمَ يبدو رفاقه

وكـــأنهم قد أصيبوا بالصمم عندما يكلمهم؟ جلست إلى جانبه تلك الفتاة الـــتي طلـــب مـــنها أن تحضر له ماءً فلبت طلبه، وشرع يحدثها عن تلك الأرض المدهشة التي شاهدها بأم عينيه، قبل أن تقذف به الريح العاتية فوق الأمـــواج وتعيده إلى شاطئه. ثم قالت له الفتاة بألاّ يكذب ويهذر برؤيته، لأن الآخـــرين يقولون إنه قد أصيب بمس من الجنون، وإنّهم قلقون جميعاً بـــشأنه. لقـــد فشل مشروعهم على نحو خطير. لا بدّ من اتخاذ القرارات، لكـــن من الذي سيتخذها؟ بدت وقد آمنت أن هورسا لا يمكن أن يكون قـــد أصـــبح مقعداً، يزحف على رجليه. لا بدّ له، لهورسا، من أن يختار واحـــداً مـــن الـــشبان الأكبر سناً للعمل وإياه، وتأسيس ما يشبه القيادة المركـــزية. وبيـــنما كان هورسا يغمغم في هذيانه عن الأرض الأخرى، وقعت أحداث خطيرة.

فقـــد أغفل الشبان شأن هورسا الذي يحاول السير في الجوار معتمداً علـــى عصاه المعوجة. و لم تكن الفتيات أفضل حالاً. كان معهن أعداد أقل من الرضّع، لأن بعضهم توفي، و لم تكن هناك فتيات حوامل، لأنهن ابتعدن عن الرجال، وبقين مجموعات، إن استطعن إلى ذلك سبيلاً، على الرغم من أنهـــن حـــصلن على نصيبهن من الطعام. التحق الأولاد الصغار، في بعض الأحـــيان، بولائم المساء العامة، لكن في معظم الأوقات كانوا يذهبون إلى أمـــاكن أخـــرى؛ فأحياناً تُسمع لهم أصوات تتردّد في جنبات الغاب، لا ســـبيل الآن إلى الـــسيطرة علـــيهم. ربما كانوا أطفالاً، لكن إن لم يحققوا رغـــبات أجـــسادهم الرجولية فإنهم كانوا في مثل شجاعة ومهارة الرجال الذين خافوا التعامل معهم، وتلك هي الحقيقة.

بـــدا أن الفتيات كن يطالبن بنوع من القيادة أو السلطة المركزية، وعندما حاولن فرض السيطرة على الأولاد الشبان، قيل لهن إنهن مجرد إناث، ويجب أن يخرسن.

ولـــد طفـــل آخر، فقال الرجال الشبان للفتيات بأن يعتكفن مع الرضّـــع الـــصاخبين، ولهذا، بقيت الفتيات دائماً على مسافة قليلة من عموم الجماعة.

لم يـــتمكن هورسا من إقناع أي من الأولاد الكبار بأن يأخذه أو يقـــبل بـــه رفـــيقاً. لم يرغب أحد في الإصغاء إلى كلامه عن الأرض الأخرى التي كانت تومض متألقة بألوانها الذهبية واللؤلؤية الزرقاء، من تحت السحب الثقيلة ذات اللون الأزرق.

لم يرغب أحد بهورسا مطلقاً.

علـــى الرغم من ذلك، وبعجز هورسا، اختفت نهائياً تلك الروح الموحدة التي كانت سائدة قبلئذ. وفكّر، كيف يمكن له أن يضّجع هناك تحت ظل صخرة، فيما وقف من قبل وسط قومه أقوى وأفضل منهم، وكان كل ما يقوله موضع اهتمام؟

كل ذلك، خلا الأولاد الصغار: فقد مضى الآن بعض الوقت منذ أن كانوا يصغون لأحد ما.

جاءت ميف، الفتاة الحنون التي حذرت هورسا، إليه وأخبرته أن الأولاد الـــصغار عثـــروا على الكهف، أو منظومة من كهوف، حيث يقضون وقتهم. ألم يلاحظ أنهم غير موجودين مع الآخرين في الجوار؟ كان هذا الخبر أشبه بصدمة لهورسا. فهو لم يلحظ ذلك. إذ بدا أنه لا يـــرى ســـوى ألمـــه، وطرفه الثقيل الذي يجره بثقل. أرغم نفسه على الوقـــوف، مستخدماً عصاه، وتمرّن على السير أو، جرّ نفسه جراً فوق الرمل.

مـــا إن انتصب على قدميه، على الرغم من عدم تخليه عن عصاه حـــتى بـــدا أن الناس رأوه مرة أخرى. لم يريدوا الإصغاء لحكاياته عن الأرض الجديدة، لكنه عندما تكلم انتبهوا لكلامه.

سألت ميف عن الأطفال، وكان الشبان من الرجال في حالة تنم عن عدم الارتياح ونفاد الصبر. ما الذي يفترض عليهم أن يفعلوه؟ رأى هورسا أن غياب الأطفال أقلق الأولاد الأكبر سناً، وجرت مناقشات، واتُخذت قرارات لم ينتبه إليها.

قال هورسا، وهو واقف، إنه لا بدّ من أن يأخذه أحد إلى هذا الكهف أو الكهوف، وبدا أن قدراً من السلطة عاد إليه، تمكن بمساعدة هذه العصا، وبمساعدة شاب من كل جانب، يسندانه، من أن يجر نفسه إلى سفح الجرف القائم وراء الشاطئ، وشاهد مدخل كهف، وممراً يؤدي إليه، فعرفوا أن الأولاد الصغار طرقوه؛ غالباً وعلى نحو جيد.

ثمة إشارة هنا توحي بعدد الأطفال. فلكي يصبح الممر مطروقاً طرقاً جيداً، لا بدّ من أربعة أو ستة أو حتى عشرة أشخاص. أو لعلنا نشاهد هنا مقياساً للوقت. فقد مرَّ على وجود هؤلاء الناس على هذا الشاطئ الجديد، وقت أطول مما كانوا يعتقدون. وكانت خارج فتحة الكهف فسحة من الأرض انتُزِعت منها الأعشاب والحشائش، ومنها كان في مستطاع الأولاد أن ينظروا إلى الأسفل، إلى الشاطئ حيث كان الأولاد الأكبر سناً قد أضرموا النيران عند تناول وجبات الطعام، حيث كان لا بدّ من وجودهم هناك، مع مشاركتهم بما يحصلون عليه من الصيد. سهل جداً أن نتخيل الشماتة والضحكات الطفولية للأطفال الذين أصبحوا خارج نطاق الإشراف.

كان الكهف نفسه عالياً، وكبيراً. أحفّته سوداء اللون من الجوانب، حيث يفهم من ذلك، أن ما من طفل أو بالغ يرغب في الذهاب. كان الكهف الرئيسي أملس، سبق أن لجأت إليه – أو تلجأ إليه الآن – بعض الحيوانات. ووضعت على بعض الصخور المنخفضة حاجيات الأولاد الصغار كجلود الحيوانات ومآزر تشد على الخصر

لستر العورة مصنوعة من جلود الأسماك، وصدفة كبيرة فيها ماء، وقليل مـــن اللحم هو بقية من عشاء سابق. لم تكن الرائحة زكية. لكن أين الأطفال؟ لا توجد إشارة تدل على وجودهم. صاح البالغون، ونادوا، بـــل هـــددوا وأمروا، لكن الصمت وحده هو الذي ردّ عليهم. إما أن يكـــون الأطفال قد خرجوا للصيد، أو أنهم دخلوا إلى أعماق الكهف، ينتظـــرون أن يتـــركوا وشأنهم هناك مرة أخرى. اقترح هورسا على الأولاد الكـــبار أن يوغلوا في تقدمهم قليلاً إلى أعماق الكهف، ورأى أنهـــم وافقـــوا، وإن على مضض. كان النفق الكبير في مؤخر الكهف يتفـــرع إلى فرعين، وبدا أن بعض الشبان قد تقدموا إلى هناك ليجدوا أمـــامهم متاهة من الكهوف. كان في وسع هورسا أن يشاهد الشبان وقـــد شعروا بالحرج، بل والخجل لأنه كان عليهم أن يحرسوا الأولاد الـــصغار، إن أمكن وصفهم بهذه الصفة، عندما كان هورسا ضعيفاً لا يعرف شيئاً عن نفسه.

اقترح هورسا أن يتسلق البعض من هذا المكان عند المساء للتأكد مـــن احـــتمال رجوع الأطفال. نعم، لكن أحدهم صاح إنه لا يريد الـــذهاب إلى مـــا هو أبعد، داخل هذا الكهف أو أي كهف آخر؛ إذ كانـــت هناك حيوانات تدل عليها أصواتها المنبعثة منها. ثم قال آخر إنه مـــضطر إلى القـــول بأنه لا يحبذ مواجهة الأطفال في الظلام إذا كان بمفرده. وقف هورسا، متماسكاً مستنداً إلى عصاه، مرتجفاً بسبب وهنه، مـــصغياً لكلامهم. ثمة منظومة من الكهوف، تتخللها الأنفاق، والأنهار العميقة تحت الأرض، بل حتى البحيرات. وإذا ما أراد أحد أن يبذل أي محاولة على أساس استعادة الأطفال، عندئذ لا بدّ من بذل تلك المحاولة نهـــاراً، وبمجموعتين من الباحثين على الأقل، لديهم حبال متينة، كي يتبينوا الغابة والمشاعل. فإذا ما تاهت مجموعة، فإن المجموعة الأخرى

يمكـــنها أن تلحـــق بها لإنقاذها. قال هورسا: "إننا لا نستطيع ترك الأطفال وحسب، إن كانوا قد تاهوا في مكان ما". وعندما وجد أن كلامه يفتقر إلى عنصر الإقناع، أضاف "مع كل ما سبق، إننا ننسى أنهـــم مجرد أطفال". وشاهد عيون رفاقه تتجه إليه مندهشة، متأملة، بل حتى غير مصدقة: "إنه يسمي هؤلاء الأولاد الخطرين... أطفالاً".

وقـــف هورسا ينتظر خروج الشبان من الكهف قبل أن يتشبث بعـــصاه ويـــسير مـــتمايلاً وراءهم. وهنا جاءت ميف لمساعدته. على المنصة، خارج الكهف، حيث بقايا نيران المساء، أمسك هورسا بجذع شجرة صغير، وأغمض عينيه، ليستعيد توازنه. وعندما فتحهما، كانت ميف لا تزال تمسك به، بينما هو يحدق أمامه مباشرة، إلى البحر حيث عرف من خط الضوء المتألق، والسحابة السوداء من فوقه، أنه ينظر إلى الأرض الأخـــرى. مـــن هـــذا المكان، من فوق الجرف العالي، كانت الأرض تمتد مسافة بعيدة في الأفق. وهل كانت أرضاً ممتدة في العمق؟ بـــذل هورســـا جهده، لكنه لم يستطع أن يرى. كم كانت تبعد؟ هل سأل نفسه، أم تراه قاس مسافتها بالرحلة البحرية البطيئة التي قام بها هو وصـــديقه باتجاهها إلى أن جرفهما الموج بسرعة، وبخفة، وأعادهما إلى مكانهمـــا؟ كـــان في استطاعته أن يثب في هواء ذلك اليوم من أيام الـــصيف الحار، وأن يخطو خطوتين نحو منطقته التي كانت تنتظره. عـــندما شـــاهدت ميف كيف كان يحدّق، نظرت بدورها، لكنها قالـــت: "إن الآخرين لا يروقهم أن تحدق إلى هناك يا هورسا. ماذا تـــرى؟ ثمة سحب تتجمع هناك دائماً، وفي استطاعتنا أن نرى كلنا ذلـــك". عـــند ذاك لاح لهورسا ذلك الوميض المنبعث من *سحابة*. برق؟ ما الذي يصنع ذلك الوميض، الذي كان أشبه بإشارة موجهة إليه: "إنني هنا. لا تنسَ".

وصـــل هورســـا إلى أسفل التل، واتجه إلى الشاطئ، بينما كانت ذراع مـــيف القوية تضغط عليه ضغطاً خفيفاً. تعثر، لكنه تمالك نفسه، وتمنى ألاّ يكون الآخرون قد شاهدوا سقطته. أمسكت به ميف بصبر، إلى أن وصـــل إلى مستوى الشاطئ، وجلس على صخرة، وانتظر حتى غادره ضعفه.

عـــندما أضـــرموا نيران العشاء على الشاطئ، نظروا إلى أعلى درب الجـــرف كي يحظوا برؤية الأطفال، إن كانوا في ذلك المكان. كما نظروا إلى الأعلـــى علّهم يرون ناراً تستعر خارج الكهف. انتظروا ليلة إثر ليلة، حـــتى أثقلتهم الهموم. انتشرت تمتمات بصوت خفيض مفادها أن الأطفال تاهـــوا. عـــندئذ انطلقـــت، حسب الاقتراح السابق، مجاميع تحمل الحبال والمـــشاعل، عـــند منتصف الظهيرة، حيث يكون ضوء النهار على أشده، وربما يخترق الكهوف قليلاً، وعادوا ليقولوا إن هناك متاهات خطيرة، وإن مـــن السهل تماماً تخيل الأطفال وقد جرفتهم الأنهار، أو سقطوا في أعماق الهاويـــة. نادوا وصاحوا في الكهوف، الواحد تلو الآخر، وعلى الرغم من صعوبة ذلك، حيث نظام الكهوف الذي يكتنفه الصدى، والذي يضاعف أي صـــوت، فـــإنهم اعتقدوا أنهم سمعوا صرخات الأطفال التائهين، الذين كانوا يستغيثون طالبين النجدة، على الرغم من أن الصوت الذي تناهى إلى الأسمـــاع كـــان صوت طيور البحر فوق الجروف، أو حتى الحيوانات التي كانـــت تعـــيش في الكهوف. بُذلت محاولة أخرى للتوغل عميقاً، إلاّ أن المشكلة في عدم وجود كهف واحد أو نظام واحد وحسب، بل أعداد لا تحـــصى منها، وأصبحوا مضطرين إلى التيقن من أن الأطفال فُقدوا حقاً. قـــال هورسا إنه لا بدّ لهم من الانتظار، إذ لعل الأطفال يظهرون، غير أن الـــرأي كان بأن يتحركوا إلى الأمام، وبعيداً عن هذا الشاطئ الذي ساد حوله إحساس بأنه شاطئ سيئ الحظ.

ألا تهتم بنا يا هورسا؟ سمع هورسا صوت مارونا في أحلامه، وفي صوت الأمواج وفي الرياح *ألا تهتم بنا يا هورسا*؟

بعد ذلك، عُثر على بعض الأطفال في المتاهة. بعض. كانوا أشبه بهياكل عظمية. وهذا دليل. فالأولاد الصغار الأصحاء لا يصبحون كتلة من العظام في يوم أو نحو يوم. كانوا مذعورين، عيونهم جاحظة. شيء ما، مزعج جداً، أثار هلعهم. كانوا في حفرة عميقة داخل نفق عمودي. ويبدو أن الأولاد الكبار لم يبتعدوا أكثر، لكن تَكلّمَ زملائهم الذين قالوا لهم: "جبناء! أنتم خائفون" جعلهم يندفعون إلى أكثر مما ينبغي في توغلهم. ولو كانت المياه الجوفية قد تحولت، مثلما تحولوا، لوجدت هياكل عظمية حقيقية. في البدء، لم يستطع الأولاد تناول الطعام، ثم أكلوا بنهم شديد بعد ذلك، ولم يتمكن أحد من الرحيل حتى أصبحوا كلهم قادرين على السفر. كما أنهم رفضوا النزول مرة أخرى إلى داخل الكهوف. وعلى طريقة الأطفال، أقسموا بأنهم يفضلون الموت على الذهاب إلى أي كهف. لم يعرفوا ما حدث لبقية الأطفال، أو ربما كانوا خائفين من البوح بما حدث لهم. وسمع محاوروهم أسماء: سقط *براين* في النهر، سقط دبّ كبير في النفق العمودي. أما *العدّاء* فقد أطبق عليه ثعبان كبير. وهكذا لديهم هذه الأسماء، على الأقل، التي سيأخذونها إلى النساء اللواتي ينتظرن؛ اللواتي كن يشغلن بالهم.

منذ وقت طويل لم يفكّر أحد، أو يأتي على ذكر النساء. أما الآن، وبسبب الأطفال المفقودين، تحدثوا عن مارونا، وعما ستقوله إن عرفت بما جرى. وكان الرجال يردّدون أكثر فأكثر إن وقت العودة قد حان. وهذا يعني أنهم كانوا يعرفون أنهم ليسوا هم الذين يضعون الأطفال في الأرحام وحسب، بل إن الوقت مهم جداً؛

فتـــرات مـــن الوقت. لم يتكلم هؤلاء، أجدادنا، أسلافنا البعيدون، بقدر ما نعرف من خلال مدوناتهم، عن الطريقة التي عرفوا بها قياس الـــزمن. تحـــدث الرجال المتحلقون من حول النيران العظيمة، التي كانـــت ترسل انعكاسات قرمزية وذهبية طويلة فوق الأمواج عند اقتـــرابها، عن النساء، وعن انتظارهن. من خلال النكات التي يمكن علـــى وجه التأكيد الاستنتاج بأنها رويت (أتخيل مجموعة من جنود الفيالق حول نيرانهم وهم يفكّرون في النساء المنتظرات) عن مارونا الـــتي ستكون تواقة، وأنها ستكون غاضبة عليهم عندما يأتون. لكن متى يتوقعون حدوث ذلك كلّه؟

كانـــت الخطة تقتضي الالتفاف حول الجزيرة والوصول إلى أبعد مكـــان يـــستطيعون الوصول إليه، أو إلى أن يصلوا شاطئ النساء. هل كانوا يعرفون آنذاك أن الشاطئ قد يكون جزيرة؟ نحن نعرف، مما يمنح تصوراتنا عن رحلتهم شكلاً وحدوداً. ثمة جزر في نهر الوادي العظيم، ولا بـــدّ أنهم واجهوا جزراً، عند قياسهم البطيء للشواطئ وهم على ظهر مراكبهم، بمعنى، يابسة قائمة بذاتها، حيث تضربها الأمواج من كل جانب. هل شاهد هورسا شاطئه المثير المغوي على أنه حافة جزيرة؟ إنه لم يـــستعمل هذه الكلمة. لعل فكرة منطقته اللامعة بوصفها شيئاً ما له محيط ألقت ظلاً عن أفكاره عنها.

بيـــنما كـــان الأولاد الصغار يستردون عافيتهم - التواريخ هنا توضح أن استرداد العافية كان على المستويين العقلي والبدني - حدث شـــيء آخـــر. فـــالأولاد كبار السن الذين كانوا يميلون التعاطف مع الأطفـــال الـــذين عانـــوا صدمة قوية، أمضوا وقتهم معهم، متحدثين ومصغين، وهذا ما فعلته الفتيات أيضاً، إلاّ أن فتاة واحدة أنجبت طفلاً مات لتوه.

شـــكّل هذا الحدث صدمة لهم جميعاً. ما سبب موت هذا الطفل، مـــن دون سبب، ومن دون سابق إنذار؟ لم يكن على الشاطئ ذباب، يلسع لسعات سامة. وللمرة الأولى نقرأ أن هذا الطفل كانت له قيمته بعـــد أن اختفى عدد كبير من الأطفال. أصيبت الأم الثكلى بالذهول، وبيـــنما رأوا في نحيـــبها وعويلها شيئاً مزعجاً، فإنهم لم يفقدوا صبرهم وإياها، مثلما فقدوه مع غيرها من الأمهات الباكيات سابقاً. مرة أخرى تردد الحديث عن مارونا: ما سبب موت الأطفال هنا، معهم، بينما لم يموتوا مع النساء، كما يتذكرون؟

لم تكـــن المجموعة المنطلقة إلى الديار – وهو التعبير الذي استخدم حقاً، مما يظهر تبدل الأهواء – خالية البال كعهدها سابقاً. عندما تقرر سفر الأطفال استناداً إلى دراسة جيدة، وكذلك الفتيات اللواتي أصبحن ثكالى مؤخراً، اضطروا إلى الجدال بشأن المنطقة التي سيذهبون إليها.

وجـــد الصيادون الشبان، الذين كانوا يطاردون أرنباً برياً خلال ما يغطي سطح الأرض من أدغال، فجوة اعتقدوا أنها كهف رئيسي، عريض وعـــال، لا تتشعب أعماقه إلى مئات الأنفاق الصغيرة، بل يمتد إلى الخلف مباشرة ويستوي بعيداً عن الجرف. بدا أنه درب تستخدمه الحيوانات، فقد كانـــت الحيوانات الصغيرة والكبيرة تعيش في تلك المنطقة، إلى أن أبعدتهم إلى مكـــان آخر، ضوضاء الصيادين ومنغصاتهم. كانت الآثار مطبوعة في كل مكان على أرضية الكهف الرملية. ها نحن مرة أخرى: أي حيوانات؟ دبـــبة عملاقة؟ خنازير؟ قطط عظيمة؟ يا لغرابة تلك العقول عنا، إذ كانت تعلم أنها ليست بحاجة إلى أن تطرح سؤالاً. ماذا؟ كم؟ كيف؟

كانـــت الحـــيوانات قد هربت، لكن الشبان، على ما يبدو، لم يـــربطوا بـــين اختـــفائها والضوضاء التي تسببوا بها، وكذلك الأقدام المـــسرعة، والـــصرخات والـــزعيق والحجارة التي رميت على جدران

الكهـــف حـــتى تردد صداها. ذهبت بعض الفتيات إلى الكهف الأول ونـــادين بأسمـــاء الأولاد المفقودين، وتوغلن بعد ذلك إلى أبعد مكان تجـــرأن علـــى الـــتوغل فيه، وذلك قبل أن يقررن ما الكهف الرئيسي بوصفه، على الأقل، يمثل بداية رجوعهن. هنا نلاحظ إشارة تفيد أنهم ربمـــا كانـــوا أخوة، أو أبناء مفقودين. نادين الأسماء، وأصغين السمع. نادين وأصغين، لكنهن لم يسمعن سوى أصواتهن تردّد أصداء الأسماء.

قـــيل، حـــول النيران، إن مارونا أصرّت على اصطحاب بعض الأولاد الـــصغار عـــند عودتها. "وبخلاف ذلك، لن يصبح لدينا أولاد يكـــبرون ويصبحون مثلنا". وقد تردد هذا الكلام على نحو حكيم على ألـــسنة كل الشبان حالما تفوه به أحدهم. "فكروا! لنفترض أن ما من أطفال ولدوا، فماذا يحدث؟".

قـــال لهم هورسا إنه حتى لو كانت الأمور كذلك فسيأتي زمان يكون فيه جيل الشبان الذين اصطادوا ودافعوا عنهم كلهم، جيلاً قليل العدد. "سيكون زماناً خطيراً بينما ننتظر نحن الأولاد كي يكبروا".

تـــسببت الفكرة في إبداء عناية أكبر واهتمام أشد في السهر على الأولاد الـــذين تـــركوهم، والـــذين صعب أمرهم وباتوا متوترين بعد محنتهم. ظلوا يرددون أنهم لا يستطيعون التوغل عميقاً في هذا الكهف الجديـــد، الـــذي لم يكن خطراً مثل خطورة الكهوف الأولى. لم يكن الكهـــف مظلمـــاً تماماً، وكان له عدد من المخارج تؤدي إلى الغابات الممتدة في الأعلى، حيث رحل هورسا. كانت أعمدة من ضياء الشمس تسقط داخل هذا الكهف، وكانت رائحة الأشجار الزكية والماء العذب أقـــوى بكثير من رائحة الحيوانات. امتدت، من تحت الكهف العظيم، أنظمة من أنفاق وحفر، لكن لم يتجرأ أحد على النـــزول إليها. غير أن معـــرفة المدى الذي يمكن أن يتوغلوا فيه، على امتداد الكهف قبل أن

تـــصادفهم أي عقبات، باتت لعبة. وشوهدت أحياناً أكوام من أنقاض هـــي نتيجة انهيار سقف أو نفق عمودي كبير، مما أدى إلى السير بعناية حولها. كانوا يسيرون على مهل إلى الأمام، من دون أي خطر. كما أن ســـيرهم كان يبعث على سرور أكبر لأنه كان يسهل عليهم أن ينادوا هورسا الذي كان يسافر فوقهم برفقة الأولاد الصغار. غير أن هورسا صعب عليه السير حثيثاً كبقية الأولاد بسبب ساقه المصابة. كان أولئك الأولاد يـــستردون نشاطهم بصورة جيدة، غير أن المجموعة على أرض الغابة، والمجموعة الأخرى من تحت، الموجودة داخل الكهف، كانت قد توقفت في الوقت نفسه لتشتركا في تناول وجبة طعام، وللتأكد من أن كل فرد لا يزال موجوداً بين ظهرانيهم.

أصبح من الواضح الآن، أمام الجميع، أنّ هذه الأرض كثرت فيها الـــثقوب والحفـــر، كأنهـــا قطعة من خشب قديمة استهدفها الحفارون بالـــثقب. كهوف وأنفاق وآبار وعوالم عظيمة من أنهار وبحيرات تحت الأرض. مـــن ذا الذي كان سيخطر على باله هذا الشيء، لو لم يشيد الأولاد الصغار بأنفسهم بيتاً لهم في أعالي الجرف المطل على الشاطئ؟

* * *

ممـــا لا يبعث على الطمأنينة في نفسي هو التفكير في الكهوف والأنفـــاق التي تتحكم بسطح الجزيرة – على أنها متاهة تشبه حقـــيقة خفية عن عالمنا المعروف – عندما كنت شاباً، لم أفكر يـــوماً في سراديب الموتى. لماذا أفكر؟ فأنا أرى الموت، وما يـــشبهه، مؤجلين لسنوات طويلة. لكنني لا بدّ أن أتذكر الآن، أنـــا، والرومانيون كلّهم، سراديب الموتى. فالمجرمون والعبيد والسجناء الهاربون يختفون هناك، ...

* * *

سـرعان ما أصبحت هناك مجاميع أخرى، لا مجموعتين وحسب. ففي حين بدا ذلك الكهف الممتد إلى ما لا نهاية، مزوداً بعدد هائل من الاستفزازات والمفاجآت كل يوم، فإنهم لا بدّ من أن يملّوا منها، فيما جاء بعض الشبان يبغون السفر بمعية هورسا والأولاد الصغار إلى أن وجدوا إيقاع الرحلة بطيئاً أكثر مما ينبغي فانطلقوا وحدهم ليجدوا الشواطئ، التي اعتقدوا أنها تختلف عن شاطئهم الأول. غاصت الشمس في البحر على نحو ذكّرهم بشاطئ النساء. هل أوحى ذلك لهم بشيء ما؟ هل عرفوا أنهم يتجهون الآن مباشرة نحو النساء؟ إن كانت كلمة *مباشرة* قيد الاستعمال آنذاك عند العديد من الجماعات التي كانت تستكشف هنا وهناك، تذهب ثم تقفل راجعة. المنطقة الوحيدة التي لم يرغب أحد في زيارتها الآن هي منطقة الشواطئ، التي لم تكن تبعد كثيراً، وتمتد إلى الجهة اليمنى؛ هذا إن كانوا، أجدادنا، قد قرروا أن هناك يميناً وشمالاً، وأن هذا كان مقياساً في وسعهم استعماله. غير أن الشواطئ فقدت جاذبيتها. لقد كانوا على شواطئ، وعلى مقربة منها، منذ زمن طويل. لم يكن هناك شيء يخصّ الشواطئ والبحار التي تغيَّرت حتى عند النظر إليها، إلا وكانوا يعرفون به.

تسلق هورسا إحدى التلال بعد أن أخبرته إحدى الفتيات أنه سيتمكن من مشاهدة شواطئه تلمع إن هو مدَّ بصره فوق تلك التلة إلى ما وراء أعالي الأشجار. بدت الشواطئ قريبة جداً، بخطوطها اللؤلؤية الوردية الشبيهة بباطن صدفة، وكانت تحمل على الدوام علامة تشير إلى سحابة زرقاء داكنة. جلس هناك وحلم، غير أن الآخرين تذمروا، فنزل عن التلّة، وانضم إلى الأولاد الصغار، الذين كانوا يستردون عافيتهم ونشاطهم بسرعة، حتى إنّ بعضهم كانوا مستعدّين لرحلة ينزلون فيها داخل الكهوف مرة أخرى.

عـــاد بعـــض الصيادين ليقصّوا خبر بئر أو حفرة عميقة، مملوءة بالعظام... نعم، لقد فكّروا بأنهم رموا الحجارة إلى قاع الحفرة، فحدث انفجـــار: فقد أثارت الحجارة جيباً ما أو مخزناً ما، مملوءاً بالهواء الفاسد الـــذي كان ينتظر كي ينفجر. كانوا خجلين قليلاً، ليس كثيراً، على الـــرغم من أن هورسا انتابه الغضب، وأمر بعدم القيام بأي استفزازات جديـــدة مـــن هذا النوع. لا بدّ أن صوت الانفجار أزعج الحيوانات والطيور. وكان هورسا يقول لهم دائماً إنهم كثيرو الضوضاء، يزعجون حياة الغابة.

في بعض الأحيان. كان الصيادون يخرجون لأكثر من يوم قبل أن يجـــدوا الطرائد، وتلك مشكلة أخرى، إذ كانوا يعتمدون كلهم على الـــصيادين في طعـــامهم، حيث كانوا يأتون بالحيوانات لشويها فوق الـــنيران. بيد أن الشبان لم يصطادوا ما فيه الكفاية، إذ كانوا يفضلون استكشاف الكهوف والتلال، حيث كانوا يجدون دائماً أنظمة جديدة مـــن الكهوف. أما الفتيات فقد أتين بالفاكهة من الغابة، وهي مهمة، وقد وجدها الأولاد مألوفة أكثر مما ينبغي، لهذا كانت الفاكهة متوفرة دائمـــاً. غير أنه لم يكن هناك عدد كاف من الفتيات لإطعامهم جميعاً، على الرغم من عدم وجود أي فتاة حاملٍ بينهن آنذاك، كما لا يوجد أطفال رضّع يحولون دون ذلك.

أصدر هورسا أوامره بوجوب القيام بحملة صيد كبرى، ليقطر الدهن مـــرة أخرى من الذبائح وسط النيران المضطرمة، فيما امتدت ألسنة اللهب لتلعق الأغصان. وفي الصباح، تدلت الأوراق شاحبة، هشة.

لاحظ المدونون أنه إذا أرادت النساء اللحاق بركب الرجال، فإن في وســـعهنّ أن يفعلن ذلك بسهولة بوساطة الرماد، والنيران، والعظام، والأشجار ذات الأغصان المتدلية التي تحمل آثار اللهيب.

كانـــوا يـــتحدثون عـــن قرب وصولهم شاطئ النساء. لكن هذا الحـــديث كان سببه تمنياتهم بأن يصلوا عما قريب. الرغبات الملحة، لا مـــن أجـــل الجـــنس وحده، بل من أجل النساء أنفسهن، هنّ اللواتي جعلـــنهم قلقين، متلهفين ومفعمين بالأمل. هل نسوا التأنيب، والنكد؟ ربمـــا كان هورسا يريد أن يقول شيئاً مثل هذه العبارة: "كان من شأن مارونـــا أن تقـــول هذا وذاك". من المؤكد أنها لم تكن لتوافق على ما قاموا به من تفجير في الحفرة التي كانت أشبه بصدع حقيقي.

قـــرروا أن ينقـــسموا مرة أخرى إلى مجموعتين، تتوغل المجموعة الأولى داخـــل الغابة، والأخرى داخل الكهوف من الأسفل، إن كانت هناك كهوف. وهكذا انطلقوا، يقودهم هورسا مرة أخرى، على الرغم من بطئه واضطرابه فوق عصاه.

دُوّن هـــذا الجزء من الرحلة العظيمة تدويناً بائساً. ولا بدّ أن كل يـــوم كان يشبه سابقه. فقد غادرتهم تلك الثقة الأولى التي أطلقتهم من الـــشاطئ، حيث يمكن مشاهدة أرض هورسا الخلابة. كما بدا هورسا يـــشعر أن كل يوم في هذا الجزء الأخير من رحلتهم، إنما كان يأخذه بعيداً عن الألق اللؤلؤي للأفق الذي حنَّ إليه.

لم يجـــد تلّـــة مرة أخرى حيث يمكن له أن يشاهد المكان، على الـــرغم من أنه رأى، من ربوة ما، لمعاناً أو بريقاً ينبعث من شلال ماء، ففكر إن كان الوميض الذي شاهده، والذي ربما يكون برقاً، إنما هو في الحقيقة انعكاس الشمس على صفحة الماء.

في غـــضون ذلـــك، ما الذي حدث في ساحل الإناث، النساء، اللـــواتي فكّر الرجال فيهن، وتحدثوا إليهن مراراً وتكراراً؟ لقد انتظرن وانتظـــرن... من أجل عودة... حسناً، أولاً، كن يردن أولادهن، فكل واحد من الذكور الغائبين كان، في نهاية الأمر، أخاً أو ابناً... لكنني لا

أتجـــرأ على استعمال كلمة عاشق. علينا أن نفترض أن كلمة *أحبك* لم تكـــن مـــن الكلمات الملفوظة أو المسموعة، على الأرجح. أما عبارة *تروقني أكثر مما يروقني الآخرون*، فأعتقد أنها كانت عبارة جائزة يمكن أن نـــسمع أحد أطفالنا، وهو بعيد عن الظهور بمظهر الرجال أو مظهر النـــساء، يخاطب بها غيره من الأطفال على نحو خجول، وربما يرفق بها قـــبلة طفولـــية، مرتبكة على الخد. أنا لا أقول بهذا الكلام، إن أولئك القـــوم، مـــن الماضي السحيق، كانوا طفوليين. بل أنا بكل بساطة لا أستطيع *سماع* كلمة *أحبك* عندما أعود القهقرى إلى الماضي.

أما الكلمات *أفتقدك ونفتقدكم*، ففي وسعي سماعها بكل يسر.

مـــنذ أن رحلـــت مارونا عن هورسا في بداية هروبه... نعم، في وســـعي أن أسمـــع تلـــك الكلمة بسهولة كبيرة. هل تراني *أسمع* عبارة *الرجال ليسوا سوى أطفال بالغين*، وهي العبارة التي أقول بكل ثقة إن كل قارئ ذكر لهذا الكتاب قد قيلت له في لحظات الخصام مع زوجته أو عـــشيقته. يا للسهولة التي أدون فيها هنا كلمة *عشيقة* لنا... منذ أن رأت مارونـــا هورسا للمرّة الأخيرة، باستثناء عودة الفتيات إلى البيت بـــين حـــين وآخر، لأنهن وجدن حياة الرجال شاقة، لم تُسمع كلمة واحـــدة مـــن المسافرين. لعلهم سافروا إلى أحفّة العالم... لكن لا... انتظروا. لم تكن هناك أحفّة أو حدود للعالم، ويصعب علينا أن نتخيل ذلـــك، نحن الذين اعتدنا على تصور حدود إمبراطوريتنا العظيمة، التي نعرف أنها تغطي معظم العالم. ما من كلمة. المؤكد أن الحملة كان في وسعها أن ترسل أحد أفرادها لطمأنة النساء. لم تعرف أي امرأة المكان الـــذي توغل فيه الرجال، ولم تكن لديهن أي فكرة كيف تلكأوا فوق ذلـــك الشاطئ الذي حلم هورسا بشاطئه الذهبـــي اللؤلؤي، وأصبح بعـــدها مقعـــداً. مـــن شـــأن المبعوث أن يخبر الجميع بساق هورسا

المكـــسورة، وســـقوط ضحايا من الأولاد الذين غرقوا في المستنقعات والأنهار. لكن قيل بعد مرور الوقت، إن بعض الأولاد الصغار، فُقدوا. الأفضل لو لم تعرف النساء.

في غـــضون ذلك، رفض الأولاد الصغار المغامرة لأنهم في منتهى الـــصغر، وأنهم يكبرون، وأنهم كانوا لا يتمتعون بمظهر البالغين، فإنهم ليـــسوا الآن حقـــاً أطفالاً صغاراً. كانوا أقوياء، علّمتهم الأمواج التي كانت قبلتهم. تذمروا كثيراً، وحرموا من أماكن لعبهم في الغابة، ومن حقهـــم الابـــتعاد عن النساء والالتحاق بالرجال في الغابة، كي ينشأوا ويترعرعوا بينهم.

كانـــوا يعلمون أنهم لا يستطيعون إلى ذلك سبيلاً. كانوا يعلمون أن *منطقـــتهم* ليست ملكاً لهم، ولا يمكن أن تكون كذلك إلى أن يعود الـــرجال ويقاتلوا الخنازير والقطط الكبيرة والخطيرة، يستعيدوا موطنهم الـــذي لهم حق فيه، وهو موطن الرجال. ولولا وجود الصيادين، وهم الأولاد الكـــبار، لا يمكن لأي شيء أن يحدث. وهكذا انتظر الأولاد الصغار الذين لم يعودوا صغاراً جداً، عودة الرجال، تماماً مثلما انتظرت النساء، كي تصبح حياتهم كلهم متكاملة.

لم يكـــن الوضع مطمئناً على شاطئ النساء، ذلك الشاطئ الذي كـــان مـــريحاً عـــندما انطلق الأولاد في إثر الرجال داخل الغابة. كان عددهم كبيراً في تلك المنطقة، ومضى على وجودهم فيها زمن طويل. غـــير أن شيئاً واحداً أخذ يصيبهم بالجنون رويداً رويداً؛ إذ ليس هناك أي أطفـــال رضّـــع ولـــيس هناك أي احتمال بوجود أحد من هؤلاء الأطفـــال، لعدم وجود أي نساء حوامل. وكان أصغر طفل رضيع قد بـــدأ يمـــشي على قدميه. لا وجود لأطفال يبكون، على الرغم من أن بعض الأولاد الصغار كانوا يتسببون في إحداث جلبة كافية. كان الناس

يتذكـــرون أســـاطير قديمة. صحيح أن الأحوال كانت أفضل عندما لم يـــضطر الرجال إلى إنتاج الأطفال، فقد عمل القمر، أو المحيط، أو حتى السمك الكبير الحجم، على تلقيح الإناث، أو ربما روح الصدع نفسه. أمـــا الآن، فقد جلست النساء، مستعدات للتزاوج فوق الصخور، بلا هدف، وتحدثن عن الرجال. كل ما فعلنه هو الانتظار.

عـــندما تـــبادلن أطـــراف الحديث عن الرجال، وعن الأطفال المفقـــودين، ساد توجس بالشر. فقد كن يعرفن إهمال الرجال، وفكّرن لـــو أن الـــرجال قُدّر لهم أن يحملوا الأجنة في أرحامهم ويتعذبوا عند ولادتهـــم، لمـــا أصبحوا بمثل هذه الدرجة من الإهمال، معرّضين الحياة للخطر... "ألا تهتم بنا يا هورسا؟ ألا تهتم؟".

أحـــياناً، تحـــدثت النساء عن أولاد بعينهم، تسهل إصابتهم من مختلف الأوجه. فهذا معرض للإصابة بسعال حادّ، وذاك ليس قوياً مثل الآخـــرين، بينما هناك ثالث لا يستطيع النوم على نحو مطمئن، وتنتابه الكوابيس. كانت في أذهان أولئك النسوة صور، أو خرائط عقلية، عن هـــؤلاء الأولاد، أولادهنّ، حيث تنـــزلق أيادي الأمهات، كالطيف، فـــوق أطـــراف شـــبيهة، كي تختبرها، وتقدرها، على الرغم من أن الأجسام، موضع البحث، قد نمت نمواً خارج حدود السماح للآخرين بلمسها، نمت نمواً خارج أمهاتهم، وخارج طفولتهم. لعل بعضهم قضى نحـــبه. هذه الهواجس زادت من قتامة أفكار النساء، اللواتي قد يجهشن بالبكاء دونما سبب، أو يستيقظن من نومهن إثر أحلام مزعجة. فكّرن في *براين والدبّ الكبير والعدّاء والغراب الأبيض*.

كـــان أصـــغر الأولاد، الـــذين لم يعـــودوا صغاراً جداً، ضجرين، متمـــردين، ينـــزلون للسباحة على نحو خطير، ويتسلقون الجروف، كي يختبروا أنفسهم، لينسل بعد ذلك، عدد منهم، بالأسلوب القديم نفسه، بحثاً

عـــن مغامـــرة بين الأشجار. كان لا بدّ من إقامة مواقع للمراقبة، فهناك فتـــيات لم يـــبلغن بعـــد، قادرات على الركض بسرعة مثل أي صبـــي، ويـــستطعن تحمـــل الأولاد. يتعين عليهن المواجهة، والقبض على الأولاد، وهو عمل تحول إلى لعبة مميزة. وقد أدى هذا كله إلى ارتياح الجميع، لأنه اســـتنفد الكـــثير من طاقتهم، ولولاه، لانخرطوا في ألعاب خطيرة. بدأت الفتـــيات الـــشابات بإيراد قصص غريبة، بعد أن تربعن في أماكن عالية، يـــستطعن مـــنها مراقبة كل شيء، وليس الأولاد الصغار المحبّون للمغامرة وحـــدهم الذين كان يروقهم المرور من أمامهن. فقد بدا جبل، ليس ببعيد عـــن المنطقة، كأنه يريد أن ينفجر على نحو ترك قمته مدببة. قالت إحدى الفتـــيات إنهـــا شاهدت، وإن على مسافة بعيدة جعلتها تفتقر إلى الدقة، أشكالاً في الغابة، أشكالاً ليست حيوانات، بل ربما أحد الرجال.

أدى هذا الكلام إلى اشتعال الحماس ونفاد الصبر.

لقد بات نفاد الصبر مزاجاً سيئاً. فقد اتهمت إحدى الفتيات فتاة أخرى بالخروج سراً، لوحدها، للقاء أحد الصيادين، ليتحول الاتهام بعد ذلـــك إلى ظاهـــرة عامة. لكن لا يوجد على وجه التأكيد من شاهد الذكـــور حقاً. فالأشكال التي تشاهد في الغابة يمكن أن تكون دببة، أو قططـــاً، أو أي حيوان كبير آخر يتسلق الأشجار. وهنا اتخذت مارونا مـــوقفاً، بعـــد أن كانت قد نأت بنفسها عن مناقشات النساء. إن ما يجري أمر يدعو إلى السخرية. هكذا قالت. كما أنه شيء خطير جداً. فالمـــشاجرات الـــتي تصل إلى حدّ اللكمات هي من فعل الرجال الذين كانت تحلو لهم المناقشات ويحلو لهم القتال، وبلغ بهم الأمر أن ابتكروا المصارعات في ما بينهم لمجرد اللهو. وأكدت مارونا بصوت مرتفع ينم عن عداء، أنهن يعلمن بأن الشيء الذي يدفعهن إلى التوتر وإلى المباشرة بالهجوم هو أن أرحامهن فارغة، لم تُشبع.

وقفت فوق إحدى الصخور، وبانت مرتفعة فوق النساء والأولاد، وقالت: "انظروا إليّ. ليس هناك رحم مملوء بيننا كلنا. انظروا إلى بطوننا المستوية، وإلى نهودنا الفارغة. إننا نفهم، على وجه التأكيد، ما يقال عند رفع أصواتنا واتهام الأخريات. لم يحدث مثل هذا الشيء من قبل؛ أو لا وجود لسجل يشير إليه. إننا بحاجة إلى عودة رجالنا إلينا وملء أرحامنا، هذا كل شيء. إننا نستطيع حقاً الانتظار من دون حاجة للتصرف على نحو طفولي... ثم بدأت تبكي. الأطفال لم يفهموا الكلام بطبيعة الحال. فالنساء لديهن بطون تكبر حجماً، ثم يسمع بكاء رضيع، لتعود البطن مستوية مرة أخرى... لقد عرفوا هذا كله، وسلموا بوجوده، لكنهم لم يفكّروا فيه.

استنتجوا أنّه *لا يمكن للفتيات إنجاب الأطفال من دوننا*. ولوحظ أنهم أخذوا يتفحصون ذلك الجزء من أجسامهم، الذي جعلهم ذات مرة، قبل زمن طويل جداً، مسوخاً.

نزلت مارونا إلى البحر للسباحة، وتوغلت مسافة بعيدة بعد أن تبين لها أنها هي نفسها كانت سيئة المزاج، لا هدف لها، مثل الأخريات تماماً، وفكّرت أن في وسع موجة ما، في ذلك الماضي البعيد، أن تودع طفلاً في رحم ما، أو في الأقل، هذا ما تقوله الحكايات القديمة. واصلت السباحة حول الصخور وهي تفكر *لعل ذلك يحدث مرة أخرى*.

لهذا جلست الإناث جميعهن في الجوار، تحت ضوء القمر، وبدأت كل واحدة تقص حكايات قديمة عن كيفية نشوء الجنين عن طريق ضوء القمر الساطع، وإذا ما بقين جالسات هناك مدة كافية، وحدقن إلى القمر طويلاً، فربما...

أرادت مارونا أن تضع حداً للاتهامات بشأن اللقاءات السرية بالرجال، لذلك أخبرتهنّ أن من غير المرجح تماماً أن تكون تلك

الأشكال التي رأينها هي أشكال رجالهن. فلو كانوا قريبين إلى هذا الحد لأسرعوا بالعودة إليهن، لأن الرجال سيشتاقون إليهن مثلما يشتقن هن إليهم. أدركت النساء أن الرغبة فيهن هي التي كانت تحكم الرجال، حتى أنهم نسوا النساء إثر تحقيق التزاوج بهنّ؛ إلى أن يحين التزاوج التالي. رُويت نكات كثيرة. من المؤكد أن هذه النكات كانت من النكات الأولى عن هذا الموضوع. إنني أعتقد أننا، بعد أن عشنا بعد ذلك العصر بزمن طويل، يمكننا أن نعيد نكاتنا إلى الماضي بكل أمان. على أي حال، لا يستطيع الذكر، إن في الماضي أو في الحاضر، أن يخفي الجوع الذي يحس به أي عضو من أعضائه. إن ثيابنا وأرديتنا مفيدة جداً لنا، لكن أولئك الناس، لم يتمكنوا من إخفاء الشيء الكثير تحت جلودهم وجلود الأسماك، ومآزرهم المصنوعة من الريش وأوراق الأشجار. إن ألعابنا الداعرة، في كل حانة أو خمارة، تعتمد اعتماداً كبيراً على ذلك الجزء من جسم الذكر. كيف إذاً، يمكن للأشياء أن تكون مختلفة آنذاك؟ إنني أعتقد أن سبب تلك الضحكة المدوية قبل عصور سحيقة هو ببساطة أن النساء يمارسن النكد والتذمر والنقد، لكنهن يعتمدن على شيء من القلق الذي جعل الذكور يحملون صفة المسوخ قبل عهود طويلة. لكنني... أغير دفة الحديث الآن وأقول: إنني لا يمكن ببساطة أن أصدق أن نكتة من نمط ما، نكتة رجالية أو نسائية، لم تكن موجودة آنذاك، أو أنها انتهت.

تفحص الأولاد أنفسهم في أثناء انتظارهم الرجال، إذ أدركوا أهمية عنصرهم، وتوصلوا إلى نتائج، وبدأوا يتباهون ويمزحون، مما فاقم استياء النساء.

على مسافة غير بعيدة، بل على مسافة قريبة جداً بين مارونا وهورسا يمكن قطعها بمسيرة نصف يوم، بدأ الرجال ينطلقون بشكل

جماعـــات، في الاتجاهـــات كلّها، ليعودوا في أثناء استراحات لا أكثر، بسبب إصرار هورسا. انتبه الصيادون إلى وجود بعض الأشكال المحددة للأشجار، فأسرعوا للتحقق من الأمر. ربما لم يكن في وسعهم ملاحظة الصدع الذي كان قريباً، أو الشاطئ، الذي كان يتصل بشاطئ النساء، وكـــان يـــشبهه، لكـــن ما إن وقفوا كلهم في فسحة الغابة التي كانوا يتذكـــرونها، حـــتى لم يعـــد هناك ما هو خطير في مخططهم. تذكروا الحـــيوانات المفترسة، فكانت أسلحتهم في أيديهم. وقفوا صامتين تحت الأشـــجار الـــتي أشرفت على طفولتهم، ولم يكن هناك ما يعكر صفو ذكرياتهم سوى النساء الثلاث اللواتي أتين معهم واللواتي احتججن على إصرار الرجال لاصطحابهن معهم. كان الرجال يريدون المعاشرة، وإذا مـــا حـــان وقت للمعاشرة، كانت النساء مترددات، لكنهن في الوقت نفـــسه اتصفن بالغنج، بحسب تعابيرنا، (بل بحسب أفكارنا ربما). على أي حـــال، لم تعرف أي واحدة منهن أن نهاية الحملة باتت قريبة، إذ ربما تصورن أن هذا الرحيل سيستمر إلى ما لا نهاية، وهو ما حدث حتى الآن. بمعنى، أن الأطفال سيولدون في أثناء السفر، وربما يموتون. هل فكّرن على ذلك النحو؟ تشير المدونات كلها أن النساء *امتنعن عن الرجال*.

لا تـــشير المـــدونات كلها التي بين أيدينا إلى وجود تذمّر بسبب رغـــبة الأولاد في معاشرة الإناث، حتى عندما كان عدد الذكور يفوق عـــدد الإنـــاث بمـــرات عديدة، حتى عند حدوث ما نسميه حالات اغتصاب تقوم بها عصابات. في وسعنا أن نفسر ذلك على هوانا، ويبدو أنهـــم بذلوا محاولة في هذا الشأن. إن جميع التفسيرات تعكس انحيازاً. فعلى سبيل المثال، تفكر بعض سيداتنا المتشددات أن رفض المعاشرة في أثـــناء الحمـــل صحيح ومناسب. كما أن بعض الفئات المتدينة لديها أسبابها غير الواقعية بألاّ نقدم على ذلك أيضاً في أثناء الحمل.

نـــدم الـــصيادون في أثناء وجودهم في الغابة في ذلك اليوم، على إرغـــام الفتـــيات على المجيء معهم، وكن يتذمرن معلنات أن المنطقة خطيرة، وأن الأولاد لا يبذلون ما يكفي من الاهتمام بهن.

الحـــق أن الأولاد ذهـــبوا، على وجه الخصوص، في إثر الخنازير. ورأوا أن الملاذات والملاجئ التي كانت قائمة يوماً ما في تلك المنطقة قد تحـــولت إلى حطام. كما انهارت منصة سبق أن نصبها أحد الأولاد في إحـــدى الأشجار تحت ثقل قط كبير، على ما يبدو. وكان الماء يجري صـــافياً مرة أخرى، بعد أن تمرغت فيه أنثى خنـــزير، على الرغم من وجود طبقة غرينية تحته، تجعل الماء عكراً فوقها مباشرة، ليعود ويصفو مرة أخرى على السطح. وليس تمرغ أُنثى الخنـــزير هو الذي يؤدي إلى الاســـتنتاج بوجودها في الماء، بل الروث الذي لم يكن قد مضى على وجـــوده زمن طويل، مما جعل الفتيات ينظرن نظرات لا تنم عن الرضا إلى ما كان ينمو تحتها.

كـــان الأولاد يتمـــتمون: "لماذا هم ليسوا هنا؟" ثم نظروا حولهم، متـــشبثين بأسلحتهم على أهبة الاستعداد. غير أن الفتيات أجبن إجابة تنم عـــن تقريع: "أوه، يا لكم من أغبياء. لقد كانوا موجودين في هذه المنطقة لأننا كنا هنا، وسيأتون الآن مرة أخرى، طالما يعرفون بأننا رجعنا".

غمغـــم الأولاد قـــائلين إنهم في بداية احتلالهم لتلك الفسحة من الغابـــة، لم يعثـــروا على حيوانات، أو لم يعثروا على حيوانات كثيرة. فقالـــت الفتيات: "المؤكد أنها لا تأتي بسرعة. فهي لم تشاهد أي شيء يشبهنا. كما لم تعرف في البداية أن لحمنا لذيذ. على أي حال، إننا لا نريد البقاء هنا عندما تأتي". ثم بدأن بالبكاء.

"لمـــاذا لا تعيدونـــنا إلى منطقتـــنا عند الشاطئ وحسب؟" لم يفكر الأولاد في هذا الأمر. ولم يستطيعوا تذكر سهولة الذهاب إلى الشاطئ من

هـــنا، والعودة مرة أخرى. بدت الأوقات الجميلة التي مروا بها قد حدثت مـــنذ زمن بعيد، وكان ذهابهم إلى ذلك المكان ومجيئهم منه يبدو غائماً في ذاكـــرتهم. إلا أنهـــم قرروا ألاّ يخبروا الفتيات بذلك. "لماذا نخبركنّ؟ فأنتن تعرفن طريق العودة، وما عليكن سوى الركض بأنفسكن إلى هناك".

"لكننا نخاف إن ذهبنا وحدنا، أن تكون هناك حيوانات".

كـــان الأولاد مترددين في أن يظهروا للفتيات أنهم لا يعرفون إلا النـــزر اليسير عن مكانهم قياساً إلى منطقة النساء، لكن الفتيات فكّرن بـــذلك. كيف فعلن ذلك؟ إن أُسلوب قراءة الإناث لأفكارنا ينطوي على مهارة.

* * *

تلـــك الخاصـــية لـــم تُوضـــع على وجه التأكيد! هذا ما يقوله مؤرخكم الحالي.

* * *

أرادت الفتيات أن يعرفن، فسألن:

- ماذا دهاكم؟ لماذا تبدون وكأنكم لا تعرفون أين أنتم؟

تذكـــرن كـــيف أن مجموعة من الأولاد، بما فيهم اثنان من هذه المجمـــوعة، توغلوا في الأرجاء داخل أحد الأنفاق، من دون أن ينتبهوا للعلامـــات، إلى أن قالت إحدى الفتيات: "ألا ترون؟ لقد دخلنا هذا الجزء من النفق أكثر من مرة".

أما الآن، فيبدو أن الأولاد لا يدركون موقعهم.

أوضحت إحدى الفتيات:

- ألا ترون الصدع؟

حقاً، كان الجرف العظيم الذي يضم ذلك الصدع شاخصاً فوق الأشجار، لا يبعد كثيراً عنهم.

حـــدَّق الأولاد. نعـــم، إنه الصدع، وهذا معناه... هل يا ترى شاهده هورسا؟

قال الأولاد إنهم جائعون، وإنهم في طريقهم إلى الصيد.

قالت الفتيات:

– نعـــتقد أنكـــم ستـــشعلون ناراً. يا لها من فكرة رائعة، ستأتي الحيوانات كلّها إلى هذا المكان على الفور.

هـــذا مـــا أراده الأولاد، و لم ترده الفتيات تماماً. في غضون ذلك عثـــرت الفتـــيات على بعض الفاكهة قرب فسحة الغابة، فأكلن منها كمـــية كافية تقيهم الجوع. هبط الظلام، فصعدت الفتيات إلى إحدى الأشـــجار، فيما جلس الأولاد القرفصاء تحت الجذع، وأسلحتهم على أتم الاستعداد.

قالت إحدى الفتيات إنه لا بدّ من مراقبة الأولاد، إذ ربما يهربون ويتركوهن وراءهم، إن استطاعوا إلى ذلك سبيلاً. عندما لاحت تباشير الفجر، كان الأولاد قد مضوا في طريقهم.

قالت الفتيات بلهجة فيها ما يكفي من الحزن:

– ألا يهتمون بنا؟

ثم انـــتقلن بعد ذلك للحديث في موضوع مفضل لديهن وهو أن الأولاد مـــرتبكون في علاقـــاتهم، مرتبكون تماماً معظم الوقت، وأنهم يفتقرون إلى الحس، أو الأحاسيس.

انطلقـــت الفتيات صوب شاطئهن، خائفات، لأنهن لا يملكن أي ســـلاح. كانت الدروب والطرقات قد توسعت، بينما سقطت أشجار هنا وهناك. لم تكن الرحلة لتبعث على السرور.

أخـــبرن مارونا أن الرجال، الذين لا يزالون بقيادة هورسا، ليسوا على بعد مسافة كبيرة، إلا أن الفتيات لا ينبغي عليهنّ أن يعلقن آمالهن

العريـــضة على ذلك، لأن الرجال لم يكونوا ليعرفوا كم هم على مقربة من منطقتهن.

في غـــضون ذلـــك، توجه الصيادون الثلاثة إلى هورسا، وتوقفوا قليلاً عند فتحة كهف، كما يبدو، أو لتسلق شجرة يصعب تسلقها، أو لمطاردة خنـــزير برّي خطير المظهر.

أدركوا من استفساره المتلهف، ومن تأنيبه، أنهم كانوا قد أمضوا مدة طويلة جداً خارج المنطقة. وكان هورسا قد أرسل شباناً آخرين في إثـــرهم، داخـــل الأنفـــاق. ألم يكن ذلك المكان هو الذي قالوا إنهم سيذهبون إليه؟ نعم، لقد قالوا ذلك، لكن عندما شاهدوا تلك الأشجار العظيمة، أشجارهم، لم يقووا على المقاومة.

قالوا، واجمين، وكأنهم أطفال:

– كما أن الفتيات غاضبات منّا أيضاً.

حـــسناً. إنهم لم يتجاوزوا الطفولة كثيراً. كم أعمارهم؟ خمس عـــشرة سنة؟ ست عشرة سنة؟ أقل؟ كانوا بعمر نعتقد أنه الوقت الملائـــم لشباننا كي يفكّروا في الانضمام إلى الجيش أو العثور على راعٍ لهم.

كـــان هورســـا أكبر سناً بكثير من الآخرين، إلا أنه ربما كان لا يزال في بداية العشرينيات.

قالوا متذمرين:

– الفتيات غاضبات جداً منا، وهن متقلبات المزاج.

قـــال هورسا، مكشراً عن أسنانه: إن وقتاً طويلاً قد مضى وآن الأوان لمعاشرة النساء.

– سيتذمرن وينتقدن لا أكثر.

– من الذي يقول إنه سيُصاب بالجنون إن لم يحصل على فتاة الآن؟

كـــشر الجميع عن أسنانهم. وكانت تلك التكشيرة الخجولة هي أولى التكشيرات المدونة لدينا. هل ظهرت قبل ذلك بزمن طويل؟ لا بدّ لنا أن نتساءل، فتلك أساس كل ملهاة. نعم. فنحن نعرف، على سبيل المثال، الشيء الذي رآه الإغريق مدعاة للضحك. لكن ذلك حدث منذ زمن طويل، طويل جداً.

– لا أريـــد مـــنكم أن تـــرحلوا ثانية. ستذهبون. عندما يعود الآخـــرون، ســـتذهبون. إنـــني أريد أن نكون كلنا معاً، معاً وبرفقة الفتيات. إن رأيتم المنطقة القديمة في الغابة، فإن النساء لن يكن بعيدات كثيراً.

– نعم، ثم هناك الصدع.

وجـــد هورسا صعوبة في التعرف إلى هذا المعلم القديم والمشهور جداً. لكنه رآه في نهاية المطاف، لتسود لحظة ارتياب بعد ذلك.

لم يـــتطلع هورســـا إلى الـــيوم الذي يقص فيه على مارونا قصة الأولاد المفقـــودين. كمـــا أصابت الفتيان الآخرين ألسنة التقريع من الفتيات، فذكرتنا بصعوبة أمر الفتيات.

طالب الأولاد قائلين:

– هل من المناسب الخروج للصيد؟

وقطعوا عهداً على العودة عند هبوط الظلام.

أود هـــنا أن أتخيل حرصاً في تلك الأصوات الشابة. فقد سبق لهم أن تركوا هورسا وحيداً لبضعة أيام، فيما وعدوا ألاّ يتركوه. هل كان وحيداً؟ فكّروا أنه ربما كان وحيداً.

– نعم. اذهبوا، لكن عودوا عند غروب الشمس.

هل كان وحيداً، وتُرك في أغلب الأحيان بمفرده، عاجزاً إلى حدّ مـــا، بسبب ساقه الكسيحة؟ هل يجوز لنا استعمال هذه الصفة وغيرها

مـــن الصفات من معاجم مشاعرنا؟ إننا نفترض أن أولئك الناس شعروا بمثل شعورنا لأن أشكالهم تشبهنا، وأنهم مثلنا. ربما لم يعلمهم أحد على الـــوحدة. هل هذا سؤال يبعث على السخرية؟ أو الحزن؟ فعلى سبيل المـــثال، لا تحـــوي المدونات الشيء الكثير عن الحب، بحيث يمكننا أن نـــستعمل هذه الكلمة، ولا عن الغيرة، لا شيء عن الغيرة، على الرغم مـــن أنهـــا شعور شائع جداً، حتى إننا يمكننا مراقبة الطيور تتشاجر من أجل التزاوج. إن مجمل ميدان التأمل صعب عندي، فهو ميدان ينطوي على إزعاج، وتحدٍّ، ويتركني دائم التفكير. إننا نعرف كيف كان يعيش أمثالنا الإغريق فهذه مسرحياتهم تخبرنا بذلك.

لـــو أن هـــؤلاء القـــوم الـــذين عاشوا في عصور غابرة كتبوا مسرحيات، لعرفنا مشاعرهم، إذ لا يوجد في المدونات شيء كثير يشير إلى قـــيامهم بوضـــع علامات على لحاء الأشجار أو على الصخر. لقد سردوا تواريخهم في آذان المسؤولات عن الذكريات، ولعلهم لم يفكّروا البـــتة في ذلك عندما قالوا، على سبيل المثال: "اشتاق هورسا إلى أرضه (الأخرى)"، وأن الأقوام التي ستأتي من بعدهم بزمن طويل لن تعرف ما كانوا يعنون بكلمات مثل *شوق*، *ورغبة*، *وحلم*.

– أأنت حزين يا هورسا؟

– حزين؟

– حـــسناً، لنجرب هذا. ما هي مشاعرك عندما تفكر في ذلك الـــشاطئ الـــسحري؟ هـــل تفكر: "أخيراً سيكون هناك قومي الذين يتـــصفون بالرحمة، وسيقولون: "هل قد عدت يا هورسا؟ لماذا تأخرت هكـــذا كـــثيراً؟ كنا في انتظارك!" هل تشعر أنك مستبعد عن سعادة ما؟".

– سعادة؟

لا بدّ أن تكون هذه الصيحات التي نطلقها في الماضي أسئلة. لكن لا ضرورة للأجوبة.

فلو أنني جالس إلى جوار شخص من جيلي وأقول: "هل تتذكر؟ "فإن الكلمات التي أتلفظ بها تختلط بالأحداث في ذاكرة هذا الشخص، ويكـــون الجـــو بيننا جواً حيوياً، يسوده الإصغاء. تفوهوا بالكلمات نفـــسها أمـــام شـــخص من جيل أصغر سناً، فيكون ذلك أشبه برمي حجارة في البحر.

لم نحصل على شيء بعد استجواب هورسا.

فلـــو كان يسمعني، لربما قال: "لا، إنك لا تفهم. إنني لا أعرف كـــل مـــا ينبغي لي أن أعرفه عن هذه الأرض، عن كل شجرة، وكل نبات، وكل طير، وكل حيوان. أما ذلك الشاطئ الآخر الذي أشاهده يومض كأنه فجر، فلا أعرف عنه شيئاً. لكن لا بدّ لي من أن أعرف؛ ألا تدرك ذلك؟"

ربما هذا هو الكلام الذي قد يتفوه به. وأنا أفهم ذلك، مثلما أن أشـــياء أخـــرى كثيرة عنه لا يفهمها هو نفسه. نيران أسئلتي تأتي من رومـــاني مـــسن بلغ نهاية المطاف في حياته؛ وليست لدينا فكرة، أي فكرة، عما كانوا يفكّرون فيه أو يشعرون به.

.....

.....

.....

.....

.....

لو كنا نعرف معنى النجم آنذاك، لربما نسمع هورسا يتكلم أخيراً، أو نتخيل أننا سمعناه يتكلم.

انتظـــر هورســـا عودة رجاله، وكانت أفكاره حزينة، صعبة الاحـــتمال. وهذا ما توضحه الروايات. ويرجع السبب في ذلك إلى الشيء الذي سيضطر إلى قوله لمارونا. تلك حالة واحدة من الحالات التي لا يستطيع فيها الهروب واللجوء إلى وادٍ آخر، وفسحة جديدة في الغابة. القضية هي ليست أنه لم يندم على الأولاد الصغار الذين اخـــتفوا في الكهـــوف، لكنه لم يستطع التوقف عن التفكير في أن الأرحام سرعان ما امتلأت، وأن الأطفال سيولدون؛ وسيكون هناك أطفال جدد. لهذا، كلما أسرع الرجال بالوصول إلى النساء، أصبح الحال أفضل.

في غـــضون ذلك، نظر إلى ما وراء قمم الأشجار - إذ كان فوق تلة صغيرة - وحدّق إلى الصدع الذي بدا مختلفاً من هذه الزاوية، فرأى ســـحباً بيضاء تخرج من الصدع، وسمع دوي انفجارات متعددة. عرف على الفور ما حدث. فهؤلاء الرجال المجانين، رجاله الشبان الشجعان، لم يستطيعوا منع أنفسهم من رمي حجر أو اثنين في الحفرة.

هنا عادت إلى هورسا مجاميع الصيادين، ومجاميع الأفراد الذين لم يتمكـــنوا من البقاء خارج الكهوف، وجاء أيضاً الأولاد الذين أنقذوا من البئر في الكهف. وقفوا كلهم حول هورسا، ينظرون إليه، ينتظرون تفجـــر غضبه وتنديده. لكن كل الذي تفوه به هو: "حان الآن وقت الذهاب إلى النساء".

انطلقوا جميعاً ببطء في بادئ الأمر، غير أن هورسا لم يتمكن من اللحـــاق بهم، وسرعان ما أصبح وراءهم بمسافة بعيدة، برفقة الأولاد الذين تم إنقاذهم.

سألوه:

- هل ستغضب مارونا منا؟

أجاب:

- حسناً، ما رأيكم أنتم؟

كلمـــا قطعوا مسافة أكبر تجلى لهم على نحو أوضح حجم الدمار الذي تسببت به الانفجارات. وكان البياض قد علا الأشجار على نحو كثيف، ثم وصلوا بعد ذلك إلى الشاطئ الصخري الذي يفترض بالنساء أن يكنّ في انتظارهم عنده. كأن عظام العديد من الأجيال، المتحولة إلى رمـــاد تشكل طبقة سميكة من المنطقة التي كانت تنجرف منها سحب بيـــضاء نحـــو الهواء بفعل النسمات. ثم لاحت النساء عن بعد، فأطلق الأولاد صـــرخاتهم لأنهـــم كانوا مذعورين من تلك الأشباح البيضاء المولولة والباكية.

مـــضى الذكـــور الشبان قدماً يسبقون هورسا، إلا أنهم تلكأوا وعادوا إلى الخلف، خائفين من النساء. كانوا قريبين من بعضهم، طلباً للحماية. كانت نسمات البحر، قد أخذت تحمل الرماد الأبيض ليلتصق بالنـــساء، وجعلتهن يبدون وكأنهن يدخنّ. أصبح الصدع الآن، الذي كـــان يهـــيمن علـــى كل جانب، بنصف حجمه، وكان يظلل جبالاً جلـــيدية صـــغيرة ذات غـــبار أبيض أيضاً. كانت للبحر قمة بيضاء، فأزاحهـــا المـــوج، وفككها فوق الشاطئ. بدا اللون الأبيض صلباً بما يكفـــي للسير عليه. حاولت بعض النساء التخلص من الرماد الأبيض، عـــند حافة البحر، فوجدن أنفسهن وقد أصبح هذا الرماد أكثر كثافة عليهنّ، فحاولن فركه وإبعاده عنهن، وبكين وهن في حالة ذعر وثورة. لكن البحر كان صافياً على مسافة أبعد.

عندما شاهدت مارونا هورسا، لم تتعرف في بادئ الأمر إلى ذلك الرجل الأعرج، غير أنها توجهت إليه بعد ذلك وهي تصيح:

- لِمَ فعلتَ ذلك؟ الصدع؟ لقد دمرت الصدع. لماذا؟

كانت تعرف أن الرجال هم المسؤولون عن ذلك، وهذا يعني أن هورسا نفسه مسؤول أيضاً. كانت تطلق الاتهامات على نحو هستيري، فشوهت الصرخات القبيحة وجهها الذي يعلوه الرماد الأبيض.

- إنها منطقتنا. لقد دمرت منطقتنا.

- لكـــن هناك مناطق أفضل يا مارونا. إنني أقول لك هذا الكلام دائماً. ثمة منطقة أجمل بكثير على مسافة غير بعيدة من هنا. وقد مررنا الآن بتلك المنطقة.

- لقـــد عشنا في هذه المنطقة دائماً. لقد ولدنا هنا. وأنت ولدت هنا، ولدت في ذلك الكهف العالي هناك.

هـــنا أجهشت بالبكاء على نحو يدعو إلى الرثاء، وهدأت ثورتها، فأمـــسك بهـــا بلطـــف، وفكّر أنه لن يفهم الإناث أبداً. لماذا لم تنتقل مارونـــا، أو مارونا التي عرفها منذ زمان، منذ زمان طويل. لطالما كان هذا الشاطئ مزدحماً وضيقاً، ولو رحلوا قليلاً إلى منطقة أخرى... شيء جميل أن ذلك الصدع قد انفجر، إذ كان ذلك يعني أنّه سيكون للنساء ساحل محترم في نهاية المطاف.

- هيا يا مارونا. لا يمكنك البقاء هنا.

ثم اســـتدعى رجالـــه بأن أشار إلى الشاطئ الممتد وراءه. ففهموا قـــصده، لأنهـــم طالما ناقشوا وإياه غباء النساء بسبب عدم الرحيل إلى شاطئ أوسع.

وضـــع هورســـا ذراعه حول مارونا، وقاد المجموعة، وهي مجموعة يمكنـــنا أن نـــستنتج أنها كانت كبيرة العدد، مكونة من نساء قادرات عل التـــزاوج، وعما قريب سيصبحن أمهات مرة أخرى. وراءهنّ سار الأولاد الـــصغار الـــذين أنقذوا من الكهف، على مقربة شديدة من مارونا. لقد نـــسوا، في هذه الشهور التي بقوا فيها بمعية الرجال، أن النساء رمز الراحة

والدفء والحنان. ووراءهم سارت الفتيات الثلاث اللواتي هربن من الغابة إلى هـــذه المنطقة. و لم يخبرن مارونا عن الأشياء المزعجة في الرحلة. غير أن النـــساء بكـــين جميعاً، وألقين نظرة إلى الوراء، إلى شاطئهن المهجور. ثم تـــوقفن عـــن النظر إلى الوراء؛ لم يعد البحر أبيض اللون، بل أزرق، عليه طبقة رقيقة زرقاء اللون، ثم عاد إلى طبيعته مرة أخرى، وإلى لونه الحقيقي. لقد تركوا عالم هشيم العظام وراءهم. وسرعان ما قذفت النساء بأنفسهن في البحـــر، رمزهم، رمز أمومتهم - وهو ما كان البعض منهن يعتقد به - ثم ظهـــرن من بين الموج لامعات كعجول البحر المفعمة بالصحة والعافية. لديـــنا هنا دليل آخر عن مظهرهن. "وقفن وهن ينفضن الماء عن شعورهن الطـــويلة. وقـــف الذكـــور يراقبون، وسرعان ما بدأ التزاوج الذي طال انـــتظاره. قصد هورسا ومارونا الشاطئ وهما يسيران في مقدمة الآخرين. كـــم من الوقت؟ وكم من المسافة؟ الإجابة التي نملكها هي "مسافة لا بأس بها"، و"سيراً مريحاً للنساء المتمتعات بالصحة".

جذب هورسا مارونا كي تقف بجانبه فوق صخور تشبه إلى حدّ كـــبير الـــصخور الـــتي رحلوا عنها إلى الأبد. صخور وبرك ماء بين الـــصخور، وموج متلاطم منعش، ووراءهما شاطئ طويل لامع قوامه رمل أبيض نظيف: لم يكن هناك شاطئ عند شاطئ النساء القديم.

قـــال هورسا وهو يؤشر إلى الأعلى إلى الجروف المطلة على هذا الشاطئ:

- انظـــري. كهوف، تستوي في جودتها مع جودة الكهوف التي كنت فيها.

وقفت مارونا صامتة تنظر إلى الشاطئ وهي التي لديها، على أي حال، كل السجايا التي كانت تمكنها من حكم النساء، وأدركت مدى الفائدة من ذلك كله.

جـــاء الأولاد الصغار الناجون يركضون صوب مارونا وهورسا بعد أن غسلوا أنفسهم.

لكن عددهم، حسب ما علمنا، كان قليلاً.

تـــراجعت مارونـــا إلى الخلـــف، بعيداً عن حماية ذراعي هورسا وقالت:

- أين بقية الأولاد؟ متى سيأتون؟

هـــنا حانت اللحظة المرعبة. فقد وقف هورسا أمام الاتهام، محني الـــرأس، تـــتدلى ذراعاه إلى جنبيه! كفّاه باتجاهها، وكان هذا الوضع يوحـــي لها بما ستسمعه. ارتجف هورسا وهو واقف، وارتجف عكازه، وارتجفت عصاه بدورها.

كانت مارونا قد بدأت تنتف شعرها المبلل بكلتا يديها. تذكروا، كـــان شـــعرها غالباً *مكومًا فوق رأسها*. أما الآن، فكان مسدلاً إلى الأســـفل باســـتثناء المـــناطق التي جعلها الرماد الأبيض مجموعة عقد. أمـــسكت بشعرها وبدأت تنتفه، في محاولة لجعل الألم أشد كي تقمع العذاب الذي تشعر به.

- أين هم يا هورسا؟ أين هم؟

هزَّ رأسه، فعادت إلى الصراخ:

- إذاً ماتوا؟ لقد قتلت أولادنا الصغار. أوه، كان ينبغي عليّ أن أعرف ذلك. ما الذي أتوقعه حقاً؟ أنت مهمل جداً. أنت لا تهتم...

وقفا يواجه أحدهما الآخر، فوق حافة الشاطئ الخلاب، الذي ســـرعان ما سيصبح مأوى النساء والأطفال والرجال كلّهم الذين جـــاؤوا للزيارة أيضاً. كان الغضب قد أخذ منها كل مأخذ بينما وقف هورسا في ذلك المكان، أعرج، مذنباً، بعد أن ارتكب خطأً. صـــرخت مارونا، وواصلت الصراخ، وفي نهاية المطاف تحول صوتها

إلى صوت أجش، فلزمت الصمت، ونظرت إليه. كان يرتعش، كان أعـــرج بسبب الغم الذي أخذ يشعر به الآن، لأن حزنها كان يخبره بمـــدى جـــسامة العمل الفظيع الذي ارتكبه. ولما رأت ذلك منه، فهمت. نظرت، وفهمت تلك الساق التي تدعو إلى الشفقة، الساق المرتجفة، الملتوية.

ليست الرقة من السجايا التي نقرنها بالشبان من الرجال. إذ لا بـــدّ للحياة من أن تغرسها فينا، وتطرقها في أعماقنا على نحو أسهل وأرق ممـــا يسمح به كبرياؤنا البدائي. رأى هورسا مارونا كما لم يـــرها من قبل. لعله شعر بها أكثر مما رآها، لأنها كانت تمثل دائماً حضوراً ينطوي على النقد والاتهام. رأى هذه الفتاة المرتجفة، التي لا تـــزال ملوثة بالرماد الأبيض، على الرغم من أن الدّموع قد غسلت وجههـــا. كانـــت في حـــزن شديد، لا حول لها ولا قوة. في تلك اللحظـــة كـــبر عمره، ووقف محاولاً أن يأخذها بين ذراعيه، فيما فـــتحت هي ذراعيها له وهمست: "أيها الطفل المسكين"، ثم ناغت: "أيها الطفل المسكين". في هذه اللحظة انهار وأجهش بالبكاء، وعاد هورســـا العظـــيم، طفلاً صغيراً مرة أخرى. عظيم. يمكنني أن أقول ذلـــك بكل اطمئنان. عظيم أن يصبح المرء طفلاً صغيراً بين ذراعي أمـــه، تلاطفه، وتغفر له... وحسب معلوماتنا، أو معلوماتهم، فإن مارونا كانت والدة هورسا.

كلما ازدادت المعاشرة، ازدادت فرصة الارتداد. لا بدّ لي هنا من أن أدون هذا الشيء أيضاً. من لم يشاهد أو يعرف أو يدرك ذلك؟

بيـــنما كـــان هورســـا بين ذراعي مارونا، تغدق عليه من حبها وتـــسامحها، تشكلت في مكان ما من ذهنه القلق فكرة: "سأخبرها عن المكـــان المدهش الذي عثرت عليه. نعم، سأخبرها. سترغب في رؤيته

أيـــضاً. أنا متأكد من ذلك. وستفهم، نعم، سترافقني، وسنذهب كلنا إلى هـــناك. سأصـــنع ســـفينة أفضل من أي سفينة صنعناها من قبل، وسنهبط إلى ذلك الشاطئ و...".

* * *

لم أتوقع أن أقول ما هو أكثر في هذا الموضوع. أولاً، أنا كبير الـــسن الآن، والحـــياة التي يكتنفها البحث العلمي ليست سهلة عندي. غير أن انفجار بركان فيزوف جعلني أفكر مرة أخرى بالـــصدع، وانفجاره المتواضع نسبياً. لقد قضى بركان فيزوف علـــى أنـــاس بعـــيدين جداً عنه، وعلى مسافة بعيدة بُعد مدينة بومبيا. وبدا أن نوعاً من الرذاذ السام هو السبب. ولم يسلم أحد مـــن ملمسه. غير أن الصدع كانت فيه أبخرة سامة. غير أن انفجاره لم يقتل أحداً برماده الأبيض. لكن على الرغم من ذلك، كـــان الـــصدع قريباً جداً من الشاطئ الذي كان عليه الأطفال والنساء. ولا بدّ لهذا من أن يثير الأسئلة بطبيعة الحال. يبدو أن هناك أشياء كثيرة لا نعلمها، على الرغم من أننا نحن الرومان نحـــب أن نتـــصرف وكأننا نعرف كل شيء. لقد كان صديقي بلينـــي ينـــشد المعرفة، ومات بسبب جهوده لتحقيق ذلك. ظل البحـــر القـــريب من شاطئ النساء، لبضعة أيام، يغسل بموجه الملـــوث برماد العظام، تلك الصخور التي اكتسبت طبقة صلبة لا تـــزول، وهو ما تُعلِمُنا به المدونات. وعلى امتداد الشاطئ بمـــسافة قلـــيلة، كان البحر يجري صافياً، أزرق اللون. قضية ثانوية تماماً تلك هي قضية تدمير الصدع؛ إلا أنها تترك أسئلة صـــعبة، صـــعوبة الأسئلة التي نطرحها عن البركان العظيم، الذي نفترض أنه سينفجر مرة أخرى يوماً ما.

بدت الصخور البيضاء القريبة من الصدع وكأنها مغطاة بسماد مـــن زرق الطـــيور المتراكم عليها. إنني أفكر الآن، لو أمكن

للبحث المتأني من حول كل شواطئ جزرنا البحرية أن يكشف عـــن صخور كانت يوماً ما بيضاء اللون، فتجعلنا نوافق على أنها موطن تلك الرواية القديمة الخاصة بالإناث والمسوخ. غير أن انفجار بركان فيزوف يخبرنا بألاّ نفترض ديمومة الخطوط الـــساحلية للجـــزر أو حتى الجزر نفسها. ولنفترض أننا قررنا فعلاً أن هذه المجموعة من الصخور المبيّضة كانت هي مدار بحثـــنا فلـــن تكون إلا اهتماماً عاطفياً. إن هؤلاء المؤرخين – وهم يطلقون على أنفسهم هذه التسمية، إذ يرون أنفسهم مدوني ذلـــك العصر الموغل في القدم – كتبوا من قراهم في الغابات عـــن ســـجل الأحداث التي انتهت بانفجار الصدع. (قرى؟ كم عددها؟ أين؟ كم عدد سكانها؟). لقد كتب مؤرخو القرية بعيدان مـــن فحـــم على الجزء الباطني من لحاء الشجر. وتوقفوا عن ســـرد قصصهم لآذان صاغية. لم يبقَ شيء من تلك السجلات القديمة المحفورة على لحاء الشجر، لكن الشيء الذي أعقبها – وهي علامات على مدونات القصب، لا يزال باقياً – وإن على نحـــو قليل، أنّ انفجار الصدع يشكل نهاية رواية وبداية رواية أخرى. ويوافق المؤرخون الذين كتبوا قبلي بأزمان طويلة عن ذلك. إذاً، فليكن ذلك.

الأُنثى

تأخذنا دوريس ليسينج إلى مجتمع خيالي خالٍ من الكيدية الجنسية، والغيرة، والمنافسة. مجتمع خالٍ من الذكور، لا تحتاج فيه الأنثى إلى الرجل أو حتى إلى معرفته، حيث يتم الحمل بإناث فقط وولادتهن حسب المد والجزر ودورات القمر. ولكن، ومع ولادة غريبة لطفل ذكر، يضطرب المجتمع المسالم الآحادي الجنس وتداهمه الأخطار.

اقرأ أيضاً لدوريس ليسينج:

ISBN 978-9953-87-570-5
9 789953 875705

جميع كتبنا متوفرة على شبكة الإنترنت
في
نيل وفرات كوم
www.neelwafurat.com

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com